دراسة

آن أبلباوم

شفق الديمقراطية

سحرُ إغواءِ السلطويَّةِ

ترجمة:
هشام شاميّة









شَفَقُ الدّيمُقراطيَّةِ
سحرُ إغواءِ السلطويَّةِ

آن أبلباوم

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود



Author: Anne Applebaum

Twilight Of Democracy

The Seductive Lure of Authoritarianism

Translated ... | ترجمها عن ...
Hisham S... | **هشام شامية**

Edited by: | تحرير:
Omid Ab... | **أوميد عبدو**

Book & Cover Design: | الإخراج الفني وتصميم الغلاف:
Sarwar Murad | **سرور مراد**

الطبعة الأولى | أيلول / سبتمبر 2022

ISBN: 978-9921-712-60-5

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:

1800-2022



© Alkhan Publishing & Distribution

+965 99462291
+965 51088000

@DarAlkhan_kw

info@daralkhan.com



© Naqesh Publishing House

(نقش 31 | تراجم 11)

+963 933 682 655

naqeshpublishing@gmail.com



© Shiler Publishing House

www.shiler.info

weshanashiler@gmail.com

دراسة



شَفَقُ الدّيمُقراطيَّةِ

سحرُ إغواءِ السلطويَّةِ

آن أبلباوم

ترجمة

هشام شاميّة







2022



Author: Anne Applebaum

Twilight of Democracy

The Seductive Lure of Authoritarianism





2022


MOHAMED KHATAB

إنَّ عصرَنا حقاً عصرُ التنظيم الفكريّ للكراهية السياسيّة، وسيكون هذا أحدَ الادّعاءات الرئيسة التي يجب ملاحظتها في التاريخ الأخلاقيّ للبشريّة.

جوليان بيندا، "La trahison des clercs"، ١٩٢٧.



علينا أن نقبلَ حقيقة أنّ هذا النوعَ من التمرد على الحداثة متأصلٌ في المجتمع الغربيّ، يجسّد برنامجه الغرائبيّ والمُرِبك، وخطابه غير العقلانيّ وغير السياسيّ، التطلّعاتِ على أنّها حقيقيّة تماماً، مثل تطلّعات حركات الإصلاح الأخرى والأكثر شهرة.

فريتز ستيرن، "The Politics of Cultural Despair"، ١٩٦١.



* آن أبلباوم/ Anne Applebaum:

صحفيَّةٌ ومؤرِّخةٌ أمريكيَّة، حصلَتْ على درجة البكالوريوس في التاريخ والأدب من جامعة ييل، وتخرَّجَت بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٨٦، ثم ذهبتْ إلى بريطانيا حيث درسَتْ العلاقات الدوليَّة في كليَّة لندن للاقتصاد، وحصلَتْ على درجة الماجستير عام ١٩٨٧، ثم درسَتْ في كليَّة سانت أنتوني، أكسفورد، قبل أن تصبحَ مراسلةً لمجلة "الإيكونوميست" وتنتقل إلى وارسو، بولندا، في عام ١٩٨٨.

كتبتْ أبلباوم لصحيفة صنداي تلغراف وصحف أخرى، وأجرتْ في عام ٢٠٠١ مقابلةً مع رئيس الوزراء توني بلير، كما أجرت بحثاً تاريخيَّاً حول نظام معسكرات الاعتقال السوفيتي في كتابها "Gulag: A History" (٢٠٠٣)، الذي مُنح جائزة بوليتسر في عام ٢٠٠٤، ورُشِّحَتْ لجائزة الكتاب الوطني، وجائزة لوس أنجلوس تايمز للكتاب.

كانت زميلاً في الأكاديميَّة الأمريكيَّة في برلين في ربيع عام ٢٠٠٨، وصُنِّفَتْ في العام نفسه من بين أكثر مائة مثقف نفوذاً من قِبل مجلة فورين بوليسي الأمريكيَّة في لندن، وحاز عملها في التاريخ الحديث لأوروبا الشرقيَّة العديد من الجوائز، وتعدُّ من أوائل الصحفيين الذين دقوا ناقوس الخطر بشأن التدخل الروسي في الانتخابات الأمريكيَّة والاتجاهات المناهضة للديمقراطيَّة في أوروبا، وألهمتْ مقالتها

في مجلة "ذا أتلانتيك" في عام ٢٠١٨ بعنوان "تحذير من أوروبا/ A Warning from Europe" هذا الكتاب، ورُشّحَ إلى المرحلةِ النهائيَّةِ في جائزةِ مجلةِ ناشيونال.

* هشام شاميّة:

كاتبٌ ومُترجِمٌ سوريٌّ، وُلِدَ في مدينة دمشق عام ١٩٨٥، درسَ في جامعةِ دمشق قسم التّرجمة في اللُّغة العربيّة والإنجليزيَّة، عضوٌ في اتحادِ الكتاب العرب، عملَ في مجالِ ترجمة البحوث والمقالات والمراجعة اللغويَّة، ونقلَ إلى العربيَّةِ كتباً في ميدانِ العلومِ الاجتماعيَّةِ والدّينِ المُقارنِ وتاريخِ المنطقةِ العربيَّة قبل الإسلامِ، صدر منها: المشركون والمسيحيّون اليهود في القرآن، مكَّة قبلَ الإسلام، الكنيسةُ في ظلّ المسجِد، الألوهيَّة والقبائل: دراسةٌ في الأدبِ الدينيّ عند العربِ قبل الإسلام، خفايا الإسلام وبداياته: إعادةُ قراءةٍ في النقوش والمسكوكات، الجِنس والشَّبقيَّة في أدبِ بلاد ما بين النَّهرين، مفهومُ الله وأنداده عند العرب قبل الإسلام، فكرةُ الوثنيَّةِ وظهور الإسلام، معاوية بن أبي سفيان من الجزيرة العربيَّة إلى الإمبراطوريّة، وغيرها.

الفهرس



مُقدِّمة المترجم:

إنّ للاستبداد صورةً قديمة قاتمة ومألوفة للغايةِ في عصرنا، والديمقراطيَّة التي تستعرضُ انفتاحها ليست إلا ديكتاتوريَّة العوام، وإن كانت أنماط نشر الكراهية والباطل بعد تآكل الأسس الديمقراطيَّة ورؤية الواقع المرير الذي تمرُّ به البشريّة ما أدى لظهورِ هذا الكتاب حول جاذبيَّة السلطويَّة والاستبداد، فإن ما يميزه تناول مؤلفته مجموعةً من الحالات التي جاهدت لتشدّ الغطاء إليها دوماً، فكل ركن في السلطةِ لسان حاله أنه الحق فليتبعوه، وهو نقلٌ للأحداث لا كمجرد متلقٍ يجمعُ المعلومات من دون أدلة بل لكون المؤلفة عايشتها، وكان لها الدور المهم في بعضها، فلم تسلم من الاتهامات، فهي زوجُ شخصيَّة مهمَّة، بالإضافة إلى موقعها الفاعل في المجتمع، ويبدو أنّه سيقدم فرصاً لأولئك الذين ليسوا جزءاً من طبقة النخبة في معرفة ما يدور خلف الكواليس التي تمسك بخيوط عوالمنا وتناوله لموضوع شامل يمتد على قوس الحضارة الإنسانيَّة ـ إغواء السلطويَّة ـ ووضعه في سياق زمننا الحاضر.

يوفرُ هذا الكتاب نظرة ثاقبة حول سبب انجذاب الكثير من الناس إلى الاستبداد ودعوةَ إيقاظٍ لأولئك الذين ينتمون إلى أجزاء من الطيف السياسي المهتمين ببناء أوطانهم بدلاً من هدمها بشعارات مستهلكة، وإلى الآخرين الذين اختاروا البقاء جاهلين في مواجهة الحقائق المظلمة التي تدور من حولنا.

وقد رأيت الإسهام في ترجمة هذا الكتاب الذي يقدّمُ فحصاً لظهور الاستبداد في بولندا والمجر والمملكة المتحدة وأمريكا، وتحليلاً مدروساً لتشكيل الفهم الأعمق من التجارب تمهيداً لمعرفة الموضوعات الأساسية لآلية قيام الأنظمة الاستباديَّة وهدفها من إنشاء ديمقراطيات غير ليبراليَّة من خلال ظروف مناسبةٍ لسحق أحزاب المعارضة، زيادة الولاء للحزب المسيطر، الولاء للوطن، الولاء للأشخاص، الإعلام الكاذب، الانتخابات المزيفة، وكلها عوامل كانت بالفعل جزءاً من التاريخ.

كما عمِلتُ على تزويدِ هذا العمل بمجموعةٍ من التعليقات في الجزء المُخصَّص للحواشي؛ أُدرِجَت لتفسّر بعضَ المُصطلحات والكلمات كي تعمَّ الفائدةُ مع رؤية أعمقَ في النَّص المُترجَم، ويحدوني الأمل إلى أن يحفّز هذا الكتاب النّقاش في هذا المجال، ويعمّق اهتمام عموم القرّاء.

هشام شاميّة

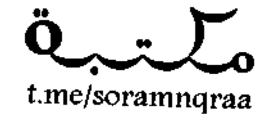
٢٠٢٢

شكر وتقدير:

أنا ممتنةٌ للغاية لقراءة كلّ من كريستيان كاريل ودانييل كريتيندين وديفيد فروم وكولين ميرفي وكريستينا أودوني وبيتر بوميرانتسيف وألكسندر سيكورسكي ورادِيك سيكورسكي وكريستينا هوف سومرز وجاكوب ويسبرغ وليون ويزيلتير مسودات أو مسودة فصول هذا الكتاب.

ساعدَ كلٌّ من جيف غولدبيرغ، الذي كُلّفَ بإعدادِ مقالةِ "ذا أتلانتيك" (The Atlantic، مجلة شهريَّة أمريكيَّة) التي ألهمتْ هذا الكتاب، وسكوت ستوسيل ودينيس ويلز وبقية فريق التحرير في "ذا أتلانتيك" على تشكيل تفكيري حوله، وقد أرسلني فريد هيات وجاكسون ديل من صفحة افتتاحيَّة "واشنطن بوست" إلى إسبانيا للبحث وإعداد التقرير عمَّا أصبح الجزء الإسباني من هذا الكتاب، والأكثر أهميَّة أنَّ العديدَ من الأفكار الأخرى هنا اكتشفت لأوّل مرة في الأعمدة التي كتبتها لصحيفة "واشنطن بوست" على مدى العقدين الماضيين، وهذا هو الكتاب الرابع الذي يوضع مع نفس فريق التحرير العابر للأطلسي: ستيوارت بروفيت في لندن، وكريستين بوبولو في نيويورك، والوكيل نفسه، الأسطوري جورج بورشاردت، جميعهم كانوا صبورين للغاية مع هذا الكتاب، وهو مشروع مختلف عن السابق تماماً، وأنا أُقدّر تفانيهم.

شكراً جزيلاً لماريان واريك للمساعدة في تجميع التعليقات الختاميَّة، ودانييل ماير ونورا ريتشارد وأليس سكينر للمساعدة في الإنتاج والتحرير.



الفصلُ الأوَّلُ
لَيْلَةُ رَأْسِ السَّنةِ الجديدة

أقمْنا حفلةً في ٣١ كانون الأوَّل ١٩٩٩، كانت نهاية الألفيَّة وبداية أخرى جديدة، أرادَ الناسُ الاحتفالَ بشدَّة، وفضَّلوا أن يكونَ ذلك في مكانٍ غريب، ولقد حقَّقَ حفلنا هذا المعيار؛ إذ أقمناه في مدينة شوبيلين/ Chobielin، في بيت عِزْبَة صغير في شمالِ غرب بولندا اشتراهُ زوجي مع والديه قبلَ عقدٍ من الزمان ـ بسعر الطوب ـ حينها كان متعفناً وغيرَ صالحٍ للسكن، ولم يُجدَّد منذُ فرار المحتلين السابقين من الجيشِ الأحمر في عام ١٩٤٥. رمَّمْنا البيت، أو معظمه، على الرغم من البطء الشديد، ولم ننتهِ منه في عام ١٩٩٩ تماماً، لكن كان له سقفٌ جديد بالإضافة إلى صالون كبير مطلي حديثاً وغير مؤثَّثٍ تماماً، وهو مثاليٌّ لإقامةِ حفلة.

كان الضيوفُ متنوعين: أصدقاء صحفيُّون من لندن وموسكو، وعددٌ قليلٌ من الدبلوماسيين المبتدئين المقيمين في وارسو، واثنان من الأصدقاء، سافروا على متن طائرة من نيويورك، لكن معظمهم كانوا بولنديين، وأصدقاء لنا وزملاء لزوجي، راديك سيكورسكي/ Radek Sikorski، الذي شغل آنذاك منصب نائب وزير الخارجيَّة في

حكومة بولنديَّة من يمين الوسط، وكان هناك أصدقاءٌ محليّون، وبعضُ أصدقاء راديك من المدرسة، ومجموعةٌ كبيرةٌ من الأقارب، كما حضرَ عددٌ قليلٌ من الصحفيين البولنديين الشباب ـ لم يكن أحد منهم مشهوراً بوجهٍ خاص ـ مع عددٍ قليلٍ من موظفي الخدمة المدنيَّةِ وواحد أو اثنين من أعضاءِ الحكومةِ المبتدئين.

كان يمكنك جمع معظمنا ـتقريباًـ في الفئة العامَّة لما يسمّيه البولنديون باليمين المحافظين، المناهضين للشيوعيَّة، لكن في تلك اللحظة من التاريخ، ربَّما تكون قد وصفت العدد الأكبر منَّا بالليبراليين أيضاً: ليبراليو السوق الحرَّة، والليبراليون الكلاسيكيون، وربَّما التاتشريون*، حتى أولئك الذين ربَّما كانوا أقلَّ وضوحاً بشأن الاقتصاد يؤمنون بالديمقراطيَّة، وسيادة القانون، والضوابط والتوازنات، وفي بولندا التي كانت عضواً في الناتو (NATO) وفي طريقها للانضمام إلى الاتحاد الأوروبيّ (EU)، بولندا التي كانت جزءاً لا يتجزَّأُ من أوروبا الحديثة، وهذا ما يعنيه "على اليمين" في تسعينيَّات القرن الماضي.

كان الأمرُ غيرَ منظَّم بعض الشيء مع استمرار الحفلات؛ لم يكن هناك شيءٌ مثل تقديم الطعام في المناطقِ الريفيَّةِ في بولندا في التسعينيات، لذلك حضَّرتُ وحماتي طناجر من يخنةِ اللحمِ البقريّ والبنجر (الشمندر الأحمر) المشويّ، لم تكن هنا فنادق

* "التاتشريَّة" شكلٌ من أشكالِ الأيديولوجية البريطانيَّة المحافظة سُمّيت على اسم زعيمةِ حزبِ المحافظين مارغريت تاتشر، ويُستخدَمُ المصطلحُ لوصفِ مبادئ الحكومةِ البريطانيَّةِ في عهدِ تاتشر من الانتخاباتِ العامَّة لعام ١٩٧٩ إلى استقالتها في عام ١٩٩٠ وصولاً إلى حكومات المحافظين تحت قيادةِ جون ميجور وديفيد كاميرون (تعليق المترجم).

أيضاً، لذلك أقام نزلاؤنا المئة ونيف في بيوت المزارع المحليَّة أو مع أصدقائهم في البلدة المجاورة، احتفظت بقائمة تحوي هويَات المقيمين وأماكن إقامتهم، لكن انتهى الأمر بشخصين أن يناما على أرضيَّة الطابق السفليّ، وفي وقت متأخر من المساء، أطلقنا الألعاب الناريَّة؛ ألعاب ناريَّة رخيصة، مصنوعة في الصين، وأصبحَتْ متاحةً على نطاقٍ واسع، وربَّما كانت خطيرةً للغاية.

خلقَتْ الموسيقا ـ على شرائط الكاسيت، التي أنتجت في عصر ما قبل سبوتيفاي* ـ الانقسامَ الثقافيَّ الجادّ الوحيد في المساء: لم تكن الأغاني التي يتذكّرها أصدقائي الأمريكيُّون من الكليَّة مماثلةً للأغاني التي يتذكَّرها البولنديون من الكليَّة؛ لذلك كان من الصعب جعل الجميع يرقصون في الوقت نفسه.

صعدتُ ذات مرَّة إلى الطابقِ العلويّ، وعلمْتُ أنَّ بوريس يلتسين/ Boris Yeltsin قد استقال، وكتبْتُ عموداً موجزاً لإحدى الصحفِ البريطانيَّة، ثم عدْتُ إلى الطابقِ السفليّ وشربْتُ من النبيذ قدحاً آخر، وعند قرابة الساعة الثالثة صباحاً، سحبَتْ إحدى الضيفات البولنديَّات الأكثر سخافة مسدساً صغيراً من حقيبة يدها، وأطلقَتْ رصاصاتٍ فارغةً في الهواء مدفوعةً بالحماس.

يستمرُّ ذلك النوعُ من الحفلات طوالَ الليل، ويمتدُّ حتى "إفطار متأخر" بعد ظهر اليوم التالي، كانَتْ هذه الحفلةُ مفعمةً بالتفاؤلِ الذي أتذكره منذ ذلك الوقت.

* "سبوتيفاي/ Spotify": شركةٌ سويديَّةٌ من منصَّات توزيع وبثّ الموسيقا الرقميَّة (تعليق المترجم).

لقد أعدنا بناءَ منزلنا المُدمَّر، وكان أصدقاؤنا يعيدون بناءَ البلد، ولديَّ ذاكرةٌ واضحةٌ بوجه خاص عن نزهة في الثلج ـ ربَّما كان ذلك في اليوم السابق للحفلة، وربَّما في اليوم التالي ـ مع مجموعة ثنائيَّة اللغة، يتحدَّثُ الجميعُ في آن واحد، تختلطُ الإنجليزيَّة والبولنديَّة ويتردَّدُ صداها عبر غابةٍ من أشجار البتولا، في تلك اللحظة، حينما كانت بولندا على أعتابِ الانضمام إلى الغرب، شعرْتُ كأنَّنا جميعاً في نفس الفريق، لقد اتفقنا على الديمقراطيَّة، والسبيل إلى الازدهار، والطريقة التي كانت تسير بها الأمور.

لقد مرَّتْ تلك اللحظةُ، بعد ما يقرب من عقدين من الزمان، والآن أعبرُ الشارع لتجنّب بعض الأشخاصِ الذين كانوا في حفلتي ليلة رأس السَّنة، وهمـ بدورهمـ لن يرفضوا دخول منزلي فحسب، بل سيشعرون بالحرج من الاعتراف بأنّهم كانوا هناك من قبل.

في الواقع، لم يعدْ نصفُ الأشخاص الذين حضروا تلك الحفلة يتحدثون إلى النصف الآخر؛ إنَّ الانقساماتِ سياسيَّةٌ وليستْ شخصيَّة، وتعدُّ بولندا الآن واحدةً من أكثر المجتمعات استقطاباً في أوروبا، ووجدنا أنفسنا على طرفي نقيض من انقسام عميق، لا يمتدُّ عبر ما كان يُعدّ يميناً بولنديَّاً فحسب، بل يمرُّ عبر اليمين المجريّ القديم، واليمين الإسبانيّ، واليمين الفرنسيّ، واليمين الإيطاليّ، ويمرُّ عبر اليمين البريطانيّ واليمين الأمريكيّ مع بعض الاختلافات.

واصلَ بعضُ ضيوفي في ليلةِ رأسِ السنةِ الجديدة ـ معي

وزوجي ـ دعمَ اليمينِ الوسطيّ المؤيّد لأوروبا وسيادةِ القانونِ والسوق، وبقينا في الأحزابِ السياسيَّةِ المتحالفة، بشكل أو بآخر، مع الديمقراطيين المسيحيين الأوروبيين، والأحزاب الليبراليَّة في فرنسا وهولندا، ومع الحزب الجمهوريّ بزعامة جون ماكين.

كان بعض من ضيوفي يرون أنفسهم يسار الوسط، لكن انتهى المطافُ بالآخرين في مكان مختلف؛ يدعمون الآن حزباً وطنياً يسمَّى "العدالة والقانون"*، وهو حزبٌ انحرفَ انحرافاً دراميا عن المواقفِ التي اتَّخذها حين قاد الحكومة مدَّة وجيزة لأوّل مرَّة من ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٧، وحين تولَّى الرئاسة (ليس الشيء نفسه في بولندا) من ٢٠٠٥ إلى ٢٠١٠.

في السنوات التي خرج فيها من السلطة، بدأ قادةُ "العدالة والقانون" والعديد من مؤيديه ومروّجيه ببطء تبني مجموعة مختلفة من الأفكار، ليست أفكاراً متشكّكة ومعادية للأجانب فحسب، بل استبداديَّة علانيةً، ولكي نكون منصفين للناخبين، لا يمكن للجميع رؤية هذا: شنَّ "العدالة والقانون" حملةً معتدلةً للغاية في عام ٢٠١٥ ضدَّ حزبِ يمين الوسط الذي كان في السلطة لمدة ثماني سنوات ـ كان زوجي عضواً في تلك الحكومة، مع أنَّه استقال قبل الانتخابات ـ وكان في العام الأخير برئاسة رئيس وزراء ضعيف وغير مؤثّر، لقد بات من المفهوم أنَّ البولنديين أرادوا التغيير.

---

* حزب "العدالة والقانون" (بالبولنديَّة: Prawo i Sprawiedliwość): حزبٌ سياسيٌّ بولنديٌّ محافظٌ وطنيّ، ديمقراطيّ مسيحيّ، شعبويّ ذو توجّه اقتصاديّ اشتراكيّ، ويشغل ٢٣٧ مقعداً في مجلس النواب، و٦٦ في مجلس الشيوخ ليكون حالياً أكبر حزب في البرلمان البولنديّ (تعليق المترجم).

اتَّضحتْ راديكاليَّة "العدالة والقانون" بعد فوزه بأغلبيَّة ضئيلة في عام ٢٠١٥ على الفور، وانتهكَتْ الحكومةُ الجديدةُ الدستور من خلال تعيينِ قضاة جدد على نحو غير لائق في المحكمة الدستوريَّة، واستخدمَتْ في وقتٍ لاحق استراتيجيَّاتٍ مخالفة للدستور بنفس القدر في محاولة لتعبئة المحكمة العليا البولنديَّة، وسنَّت قانونًا لمعاقبة القضاة الذين تتعارضُ أحكامهم مع سياسة الحكومة.

لقد استحوذَ حزبُ "العدالة والقانون" على هيئة الإذاعة العامَّة التابعة للدولة ـفي انتهاك للدستور أيضاًـ وفصل المذيعين المشهورين والمراسلين ذوي الخبرة، وبدأ بدائلهم، المعيَّنون من أقصى اليمين المتطرف في وسائل الإعلام الإلكترونيّ، في نشر أجندة (أو دعاية) صريحة للحزب الحاكم، مرشوشة بأكاذيب يسهل دحضها، على حساب دافعي الضرائب.

كانت مؤسَّساتُ الدولةِ هدفاً آخر لحزب "العدالة والقانون"، إذ فور وصوله إلى السلطة، أقالَ الآلاف من موظفي الخدمة المدنيَّة، واستبدل مختَرقين حزبياً بهم، أو أبناء عمومة وأقارب آخرين لمختَرقين حزبياً.

لقد طردوا جنرالاتِ الجيش الذين تلقوا سنوات من التدريب المكلف في الأكاديميَّاتِ الغربيَّة، وطردوا دبلوماسيين من ذوي الخبرة والمهارات اللغويَّة واحداً تلو الآخر، ودمَّروا المؤسَّسات الثقافيَّة أيضاً؛ فقدَ المتحفُ الوطنيّ مديره التمثيليّ الممتاز، وهو أمينُ متحفٍ يحظى باحترامٍ دوليّ، استبدل به أكاديميّ غير معروف

ولا يملك خبرةَ عمليَّة سابقة في متحف، وكان أوَّلُ قرارٍ رئيسٍ له تفكيكَ معرضِ المتحف للفنّ الحديثِ والمعاصر، وبعد عامٍ استقالَ تاركاً المتحفَ في حالةٍ من الفوضى، وتمّ إيقافُ مدير متحف تاريخ اليهود البولنديين ـ مؤسَّسةٌ فريدةٌ من نوعها في أوروبا، افتُتحت محاطةً بصخبٍ شديد قبل بضع سنوات فقط ـ عن وظيفته من دون تفسير، وهو أمر أرعبَ المؤيدين والممولين الدوليين للمتحف، رُدِّدَتْ هذه القصصُ من قبل آلاف آخرين لكنَّها لم تتصدَّر عناوين الأخبار، وعلى سبيل المثال: فقدَتْ صديقتنا وظيفتها في مؤسَّسة حكوميَّة أخرى بعد أن أكملَتْ الكثيرَ من المشاريع بسرعة كبيرة؛ بدا أنَّ مديرها الجديد وغير المؤهَّل ينظر إليها بوصفها تهديداً.

كان هناك القليلُ من التظاهر حيال أيّ من هذه الأحداث، ولم يكن الهدفُ من كلّ هذه التغييرات تحسين أداءِ الحكومة، بل جعل الحكومة أكثر حزبيَّة، والمحاكم أكثر طواعية، ومدينة بدرجةٍ أكبرَ للحزب، أو ربَّما يجب أن نسميها ـ كما فعلنا ذات مرَّة ـ "الحزب".

لم يكن لديهم تفويضٌ بذلك: انْتُخِبَ "العدالة والقانون" بنسبةٍ مئويَّةٍ من الأصوات سمحَتْ لهم بالحكم، ولكن ليس لتغيير الدستور، لكن لتبرير خرق القانون، توقَّفَ الحزبُ عن استخدام الحجج السياسيَّة العاديَّة، وبدأ في تحديد الأعداء الوجوديين بدلاً من ذلك؛ كان بعضهم قديماً ومعروفاً، وبعد عقدين من المصالحة والمحادثات العميقة البولنديَّة اليهوديَّة ـ بعد آلافِ الكتبِ والأفلام والمؤتمرات، بعد بناء ذلك المتحف المذهل ـ اكتسبَتْ الحكومةُ شهرةً دوليَّةً من خلال تبني قانون يحدُّ من النقاش العامّ حول

الهولوكوست، وعلى الرغم من أَنَّهم غيَّروا القانونَ تحت الضغط الأمريكيّ في نهاية المطاف، إلَّا أنَّهُ حظي بتأييدٍ واسعٍ بين القاعدةِ الأيديولوجيَّةِ للحزب من الصحفيين والكتاب والمفكرين، بما في ذلك بعض ضيوف حفلتي، الذين يقولون الآن إنَّهم يعتقدون أنَّ القوى المعادية لبولندا تتآمر لإلقاء اللوم على بولندا بدلاً من ألمانيا فيما يتعلَّق بـ "أوشفيتز"، وفي وقت لاحق، تورَّط الحزبُ في خلاف لا طائل من ورائه مع الحكومة الإسرائيليَّة، وهي حجَّةٌ بدَتْ مصمَّمةً لجذبِ كلّ من الناخبين الوطنيين والغاضبين من "العدالة والقانون" في بولندا والناخبين الوطنيين والغاضبين من بنيامين نتنياهو في إسرائيل.

كان بعضُ الأعداء جدداً، فبعد مدَّة وجيزة من مهاجمة المهاجرين المسلمين ـ أمر عويص في بلدٍ لا يُوجَد فيه مهاجرون إسلاميون البتة ـ ركَّزَ الحزبُ حنقه على المثليين جنسيّاً، لقد طبعت "غازيتا بولسكا" (مجلة أسبوعيَّة بولنديَّة) ـ اثنان من أبرز صحفييها كانا في حفلتي ليلة رأس السنة ـ ملصقات "LGBT Free Zone/ مناطق خالية من مجتمع الميم"* لقرَّائها حتى يضعوها على أبوابهم ونوافذهم، وعشيَّة انتخابات برلمانيَّة أخرى في تِشرين الأوّل ٢٠١٩، عرضَ التلفاز الحكوميُّ فيلماً وثائقياً بعنوان "اِجتياح/

* ملصقات مناطق خالية من مجتمع الميم (بالبولنديَّة: Strefy wolne od idologii LGBT): هي ملصقاتٌ استخدمتها بلديَّات ومناطق في بولندا إعلاناً منها بعدم الترحيب بأيديولوجيَّة مجتمع الميم، وكانت تشملُ ثلث البلاد تقريباً، ويشيرُ اصطلاح LGBT/ مجتمع الميم إلى مثليي الجنس ومزدوجي التوجّه الجنسيّ والمتحولين جنسيّاً، وكلّها كلمات تبدأ بحرف الميم، وLGBT أو GLBT في اللغات اللاتينيَّة لفظ لأوائل الكلمات الآتية: "Lesbian, Gay, Bisexual, Transgender"، وقد بدأ استخدام هذا المصطلح في التسعينيات، بينما استخدمت اصطلاح "LGB" قبله في النصف الثاني من الثمانينيات (تعليق المترجم).

Invasion"، يصف خطة "LGBT" السريَّة لتقويض بولندا، وبدأتْ الكنيسة الكاثوليكيَّةُ البولنديَّة، التي كانت ذات يوم مؤسَّسة محايدة ورمزاً غير سياسيّ للوحدة الوطنيَّة، في الترويج لمواضيع مماثلة؛ إذ ألقى رئيس أساقفة كراكوف الحاليّ، وهو اللقبُ الذي كان يحمله البابا يوحنا بولس الثاني سابقاً، موعظةً وصف فيها المثليين جنسياً بأنَّهم "طاعون" بلون قوس قزح حَلَّ محلَّ "الطّاعون الأحمر" للشّيوعيَّة، وقد أشادَتْ الحكومةُ البولنديَّةُ بموعظته، ثمَّ أزالها المشرفون على شبكة الإنترنت من موقع "يوتيوب"، بوصفها خطاباً يحضُّ على الكراهية.

إنَّ هذا التسلسلَ الزمنيَّ للأحداثِ يُصعّبُ عليَّ، وعلى بعضِ ضيوفي ليلة رأس السنة الجديدة التحدث عن أيّ شيءٍ إطلاقاً، فمثلاً: لم أُجرِ محادثةً واحدةً مع أنيا بيليكا/ Ania Bielecka، التي كانت سابقاً واحدةً من أقرب أصدقائي ـ وهي عرَّابة أحد أطفالي ـ منذ مكالمة هاتفيَّة هستيريَّة في نيسان ٢٠١٠، بعد يومين من تحطم طائرة تقل الرئيس آنذاك بالقرب من مدينة سمولينسك، في روسيا، وستتحدَّثُ أكثر عن ذلك في غضون لحظة، وبيليكا مهندسةٌ معماريَّةٌ كان من بين أصدقائها الآخرين، أو كانوا على الأقل، بعض أشهر الفنانين من أولاد جيلها، كما أنَّها تستمتع، أو اعتادت الاستمتاع، بالمَعارض الفنيَّة المعاصرة، بل إنَّها سافرت عدَّة مرات إلى بينالي البندقية* لمجرد التسلية، وقد أخبرتني ذات

* "بينالي البندقية" (بالإيطاليَّة: La Biennale di Venezia): معرضٌ ثقافيٌّ دوليٌّ تستضيفه مؤسَّسة بينالي كلّ عام منذ عام ١٨٩٥ في مدينة البندقية، إيطاليا، ممَّا يجعله الأقدم من نوعه، ويشملُ المسرحَ والموسيقا والرَّقص، ويُقامُ سنويّاً في أجزاء مختلفة من البندقية، ويعدّ أحدَ أكبر وأهمّ معارض الفنّ المرئيّ المعاصر في العالم (تعليق المترجم).

مرَّة أنَّها استمتعت بمشاهدة الناس في الـ "بينالي" ـ كلّ السيدات المُتطفِّلات على الفن في أزيائهن المتقنة ـ بقدر ما استمتعت بالمعارض، ولكن في السنوات الأخيرة، نَضجَت على مقربة من ياروسلاف كاتشينسكي/ Jarosław Kaczyński، زعيم "العدالة والقانون" والشقيق التوأم للرئيس الراحل، وهي الآن تستضيف كاتشينسكي بانتظام لتناول طعام الغداء في شقتها ـ إنَّها طاهية رائعة ـ وتناقش من يجب أن يعينه في حكومته، وقيل لي إنَّ وزيرة الثقافة، مُخطِّطة الهجوم على المتاحف البولنديَّة، كانت من اقتراحها، لقد حاولت رؤيتها قبل عامين في وارسو لكنَّها رفضت، راسلتني بـ "عمَّ ستتحدَّث؟" ثم سكتت.

أخيراً، انفصلَتْ ضيفةٌ أخرى من ضيوفي ـ التي أطلقت النار من المسدس في الهواء ـ عن زوجها البريطاني، وقد تحوَّلَت غرابةُ أطوارها إلى شيء آخر، يبدو أنَّها تقضي أيامها كمتصيدة على شبكة الإنترنت بدوام كامل، تروّج بتعصبٍ لمجموعة كاملة من نظريَّات المؤامرة، والعديد منها معادٍ للسامية بشدَّة، تغرد حول المسؤوليَّة اليهوديَّة عن الهولوكوست؛ نشرَتْ ذات مرَّة صورة للوحة إنجليزيَّة من العصور الوسطى تصور صبياً من المفترض أنَّ اليهود صلبوه، مع التعليق: "وتفاجأوا بنفيهم"، في إشارةٍ إلى طرد اليهود من بريطانيا عام ١٢٩٠*، وهي تتابع وتكبر الأضواء الموجَّهة على

* طردَ الملكُ إدوارد الأوَّل جميعَ السكان اليهود في إنجلترا في خريف عام ١٢٩٠، كان اليهودُ يوماً ما بارزين في التجارة المحليَّة وفي المراكز الإقليميَّة الرئيسة، مثل: يورك ولينكولن ولندن، ولكن بحلول نهاية القرن الثالث عشر، لم يعد اليهودُ قادرين على الإقامة بـ "حريَّة وكرامة" في إنجلترا ولا يتمتعون بنفس "الحريَّات" مثل أسلافهم، وقد شهد عهد الملك إدوارد الأوَّل (١٢٧٢-١٣٠٧) تصاعد التوترات بين السكان المسيحيين واليهود في إنجلترا، وزيادة الديون

"اليمين البديل" الأمريكيّ*، وتردّدُ لغته وتروّج لها.

أمضتْ ضيفةٌ ثالثة، الصحفيَّة أنيتا غارغاس/ Anita Gargas، العقدَ الماضي في التحقيق أكثر من مَرَّة في مجموعة من نظريَّاتِ المؤامرةِ التي تنطوي على وفاةِ الرئيس الراحل، ليخ كاتشينسكي/ Lech Kaczyński، في حادث تحطّم طائرة سمولينسك، وتفترضُ في كلّ مرّة تفسيراً مختلفاً.

تعملُ غارغاس في "غازيتا بولسكا"، الصحيفة الأسبوعيَّة التي وزَّعت الملصقات المعادية، وصنع ضيفٌ رابع، رافال ألكسندر زيمكيفيتش/ Rafal Ziemkiewicz، لنفسه اسماً بوصفه معارضاً صريحاً للمجتمع اليهوديّ الدوليّ، فهو يشير إلى اليهود بـ"الجُرب" و"الجشعين"، ويطلقُ على المنظَّمات اليهوديَّة عبارة "المبتزّين"، ويأسفُ على دعمه السابق لإسرائيل، يبدو أنَّ الشهرةَ التي اكتسبها زيمكيفيتش من هذه اللغة قد عزَّزت ما كانت عليه حياته المهنيَّة المتعثرة، ويظهر الآن على نحو متكرر على التلفاز الحكوميّ الذي يسيطر عليه الحزب.

المستحقة لمقرضي الأموال، وأحداث مروّعة مثل الهجوم على السكان اليهود في يورك في عام ١١٩٠، ومع ذلك، أصدر إدوارد في عام ١٢٧٥ قراره الذي يفرض على اليهود العيش في مناطق محدَّدة؛ كان على أولئك الذين تزيد أعمارهم عن سبع سنوات أن يرتدوا شارة تبين بصرياً أنّهم يهود، وعلى جميع الذين تزيد أعمارهم عن اثني عشر عاماً دفع ضريبة قدرها ٣ بنسات في كلّ عيد فصح، ومنع على اليهود بيع العقارات أو التفاوض على الديون إلّا بإذن الملك، وبحلول أواخر الثمانينيات من القرن الثاني عشر، لم يتمكن إدوارد من منح البرلمان المزيد من الضرائب لمساعدة حربه مع فرنسا، وكان طرد اليهود الثمن الذي وافق على دفعه (تعليق المترجم).

* حركةٌ قوميَّةٌ بيضاء يمينيَّة متطرفة غير مترابطة، نشأت في الولايات المتحدة خلال أوائل العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين، وهي منتشرةٌ على شبكة الإنترنت انتشاراً واسعاً، قبل تأسيسِ وجودٍ لها في بلدان أخرى، وتراجعت منذ عام ٢٠١٧ (تعليق المترجم).

علمتُ أنَّ بعضَ هؤلاء الأصدقاء السابقين منبوذون من أطفالهم بسبب آرائهم السياسيَّة، وفي الحالتين، يكون النفور عميقاً: أحد أصدقائي السابقين، على الرغم من التزامه العميق بحزب سياسيّ مع أجندة متّسمة علانيّة برهاب المثليّة/ أو الهوموفوبيا، لديه ابنٌ مثليّ الجنس، لكن هذا أمر أنموذجيّ أيضاً، فهذه الانقساماتُ تخترقُ العائلات وكذلك مجموعات من الأصدقاء، ولدينا جار بالقرب من قرية تشوبيلين يستمع والداه إلى محطة إذاعيَّة تآمريَّة كاثوليكيَّة موالية للحكومة تسمَّى "راديو ماريجا"، يرددان شعاراتها، ويتخذان من أعدائها أعداء لهم، "لقد فقدتُ والدتي"، هذا ما أخبرني به جاري، "إنَّها تعيش في عالم آخر".

للكشفِ الكامل عن كلّ اهتماماتي هنا، عليّ توضيح أنَّ بعضاً من هذا التفكير التآمريّ كان يستهدفني، فقد كان زوجي وزير الدفاع البولنديّ لمدة عام ونصف، في حكومةٍ ائتلافيَّةٍ بقيادةِ "العدالة والقانون" خلال أوَّل تَجْرِبةٍ قصيرة للحزب في السلطة، وفي وقت لاحق، انفصلَ زوجي عن هذا الحزب وكان لمدة سبع سنوات وزير الخارجيَّة في حكومة ائتلاف أخرى، بقيادة حزب يمين الوسط، حزب المنصة المدنيَّة (بالبولنديَّة: Platforma Obywatelska)، وترشَّحَ للبرلمان الأوروبيّ وفاز بمقعدٍ في عام ٢٠١٩، مع أنَّه ليس جزءاً من قيادة المعارضة السياسيَّة حالياً.

لقد عشتُ في بولندا على نحو متقطّع منذ عام ١٩٨٨، حيث أمضيتُ الكثير من الوقت في لندن وواشنطن في كتابة كتبِ التاريخ والعمل صحفيَّة في الصحف البريطانيَّة والأمريكيَّة، وذلك يعني

أنّني زوجة سياسيَّة دخيلة وفقاً للمعايير البولنديَّة، على الرغم من أنَّ معظمَ الناس حتى عام ٢٠١٥ كانوا يشعرون بالفضول تجاهي أكثر من كونهم غاضبين.

لم أختبرْ أيَّ معاداةٍ للساميةِ مباشرة، ولم أشعرْ بأيّ عداء أبداً، وحين نشرتُ كتاب طبخ بولنديّ ـ يهدفُ، من بين أمور أخرى، إلى إلغاء الصور النمطيَّة السلبيَّة عن بولندا خارج البلاد ـ كان ردّ الفعلِ داخل بولندا، حتى بين الطهاة البولنديين، إيجابياً إلى حدّ كبير، وإن كان محيراً بعض الشيء، وحاولتُ جاهدةً البقاء خارج السياسة، وتجنب التلفاز البولنديّ في معظم الحالات، باستثناء التحدث حول كتبي.

بدأت المقالات السلبيَّة عن الحكومة في الظهور خارج البلاد بعد فوز "العدالة والقانون"، وألقي اللوم عليّ؛ ظهرت على أغلفة مجلتين مواليتين للنظام، "wSieci" و"Do Rzecz" (يعمل أصدقاؤنا السابقون في كلتيهما)، وذلك بوصفي المنسقة اليهوديَّة السريَّة للصّحافة الدوليَّة والمديرة السريَّة لتغطيتها السلبيَّة لبولندا، ولفّق أحدهم تفاصيل عن عائلتي لكي يبدو الأمر أكثر شرّاً.

ظهرتْ قصصٌ مماثلةٌ في البثّ الإخباريّ المسائيّ للتلفاز الحكوميّ، إلى جانب قصَّة أخرى ملفَّقة بالكامل حول كيفيَّة طرد حزب "العدالة والقانون" لي من وظيفة لم أشغلها، وفي النهاية توقفوا عن الكتابة عني: التغطيةُ الصحفيَّةُ الدوليَّةُ السلبيَّةُ لبولندا انتشرت أخيراً على نطاقٍ واسعٍ للغاية بحيث لم يعد بإمكان شخص واحد، حتى ولو كان يهوديّاً واحداً، التنسيق مع نفسه، مع أنَّ الموضوع

يتكرَّرُ بصورة معتادة على وسائلِ التواصلِ الاجتماعيّ من وقتٍ لآخر، وخلال الحملة الانتخابيَّة الأوروبيَّة لزوجي، طُرح على بعضِ أعضاء فريقه المزيد من الأسئلة عني وعن "نشاطي المناهض لبولندا" أكثر من السؤال عنه، سواء أحببت ذلك أم لا، فأنا جزءٌ من هذه القصة.

حينما بدأ كلّ ذلك، شعرتُ بنوعٍ من "الديجافو"، فقد تذكرت أنّني قرأتُ مجلةً شهيرةً احتفظَ بها الكاتبُ الرومانيّ ميخائيل سيباستيان/ Mihail Sebastian من عام ١٩٣٥ إلى عام ١٩٤٤، وفيها أرّخَ تحولاً أكثر تطرفاً في بلده، كان سيباستيان مثليًّاً يهودياً، وإن لم يكن متديناً، وكان معظم أصدقائه كأصدقائي من اليمين السياسيّ، أمّا في المجلة، فقد وصف كيف انجذبوا، واحداً تلو الآخر، إلى الأيديولوجية الفاشية، مثل سرب من العثّ إلى لهبٍ لا مفرَّ منه، وروى عن الغطرسة والثقة التي اكتسبها أصدقاؤه حينما ابتعدوا عن تعريف أنفسهم أنّهم أوروبيون ـ معجبون ببروست*، ومسافرون إلى باريس ـ وبدلاً من ذلك بدأوا يطلقون على أنفسهم اسم الرومانيين بالدم والأرض، كان يستمع وهم ينحرفون إلى التفكير التآمري أو يصبحون قاسيين عن غير قصد.

شتمه أشخاصٌ عرفهم منذ سنوات وجهاً لوجه، ثم تصرفوا كأنَّ

* فالنتين لويس جورج يوجين مارسيل بروست (١٠ تموز ١٨٧١ - ١٨ تشرين الثاني ١٩٢٢) روائيٌّ وناقدٌ وكاتب فرنسيّ، مؤلف كتاب: "À la recherche du temps perdu"، الذي نُشِر في الأصل باللغة الفرنسيَّة في سبعة مجلدات بين عامي ١٩١٣ و ١٩٢٧، ينظر النقاد والكتاب إلى بروست بوصفه من أكثر مؤلفي القرن العشرين تأثيراً، ومن المعروف أنَّ بروست كان مثلياً، وناقش كتاب سيرته حياته الجنسيَّة وعلاقاته مع الرجال غالباً، على الرغم من أنَّ مدبرة منزله، سيليست ألباريت، تنفي هذا الجانب من الحياة الجنسيَّة لبروست في مذكراتها (تعليق المترجم).

شيئاً لم يحدث، إذ تساءل في عام ١٩٣٧: "هل الصداقةُ ممكنة، مع أشخاص يشتركون في سلسلةٍ كاملةٍ من الأفكار والمشاعر الغريبة؛ غريبة جداً لدرجة أنَّ كلَّ ما عليَّ فعله هو الدخول من الباب وفجأة يصمتون في خجل وإحراج؟" يعرضُ الراوي الصداقةَ على أحد معارفه القدامى الذي تفرق عنه الآن بسبب السياسة في رواية عن سيرة ذاتيَّة كتبها في نفس الوقت، ليأتي الردّ: "لا، أنت مخطئ": "لا يمكن أن نكون أصدقاء، لا الآن ولا أبداً، ألا تشم رائحة البلد مني؟"

لسنا اليوم في عام ١٩٣٧، إلَّا أنّه يوجد تحوّل موازٍ يحدثُ في زماننا، سواء بين المفكرين والكتاب والصحفيين والناشطين السياسيين في بولندا، البلد الذي عشت فيه لمدة ثلاثة عقود، وكذلك في المجتمعات الأخرى التي نسميها الغرب، يحدث هذا التحول في كلّ مكان من دون ذريعة أزمة اقتصاديَّة من النوع الذي عانت منه أوروبا وأمريكا الشماليَّة في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي.

كان الركودُ في الفترة ٢٠٠٨_٢٠٠٩ عميقاً، ولكن عاد النمو، على الأقلّ حتى تفشي جائحة فيروس كورونا، وكانت أزمة اللاجئين في عام ٢٠١٥_٢٠١٦ بمنزلة صدمة، لكن خفَّت حدَّتها، وبحلول عام ٢٠١٨، توقف اللاجئون من شمال إفريقيا والشرق الأوسط في الغالب عن القدوم إلى أوروبا، وذلك بفضل الصفقات التي أبرمها الاتحاد الأوروبيّ وساسة التيار الرئيس فيه مع تركيا.

لم يتأثّرْ الأشخاصُ الذين أكتبُ عنهم في هذا الكتاب بأيّ من هاتين الأزمتين، ربَّما لم يكونوا جميعاً ناجحين كما يودون،

لكنَّهم ليسوا فقراء وريفيين، لم يفقدوا وظائفهم لصالح العمال المهاجرين، وليسوا من ضحايا التحوّل السياسيّ في أوروبا الشرقيَّة بعد عام ١٩٨٩، أو ضحايا السياسة بأيّ شكل من الأشكال إطلاقاً، وهم ليسوا في أوروبا الغربيَّة جزءاً من الطبقة الدنيا الفقيرة، ولا يعيشون في قرى منسية ولا يعيشون في الولايات المتحدة في مجتمعات دمرتها المواد الأفيونيَّة، ولا يقضون الكثيرَ من الوقت في تناول العشاء في الغرب الأوسط، ولا يتطابقون في الواقع مع أيّ من الصور النمطيَّة الكسولة المستخدمة لوصف ناخبي ترامب تماماً ـ بما في ذلك بعض الصور النمطيَّة الكسولة التي اخترعوها بأنفسهم، بل تلقوا تعليمهم في أفضل الجامعات، ويتحدثون لغات أجنبيَّة غالباً، ويعيشون في مدن كبيرة ـ لندن وواشنطن ووارسو ومدريد ـ ويسافرون إلى الخارج، مثل أصدقاء سيباستيان في ثلاثينيات القرن الماضي.

إذن، ما الذي تسبَّب في هذا التحول؟ هل كان بعضُ أصدقائنا سلطويين مخفيين دوماً، أم إنَّ الأشخاصَ الذين قرعنا معهم الكؤوس في الدقائق الأولى من الألفيَّة الجديدة تغيَّروا بطريقة ما خلال العقدين التاليين؟

لا يُوجَدُ أيّ تفسير، ولن أقدّمَ نظريَّةً كبرى أو حلاً شاملاً، لكن هناك فكرةٌ رئيسة: إذا توفَّرَت الظروف المناسبة، يمكن لأيّ مجتمع أن ينقلبَ على الديمقراطيَّة، وإذا كان التاريخُ أمراً يمكن القياس عليه، فإنَّ كلَّ مجتمعاتنا ستفعلُ ذلك في النهاية.

***

لطالما كان لدى الفلاسفة القدماء شكوكاً حول الديمقراطيَّة، فقد خشي أفلاطون من "الكلمات الكاذبة والمتفاخرة" للديماغوجيين، واشتبه في أنَّ الديمقراطيَّة قد لا تكون أكثر من نقطةِ انطلاقٍ على طريق الطغيان (أو الحكم الاستبدادي)، كما أدركَ المؤيدون الأمريكيون الأوائل للحكم الجمهوريّ التحدي الذي يمكن أن يشكّلَه الزعيمُ الفاسدُ على الديمقراطيَّة، وفكروا مليّاً في إنشاء المؤسَّساتِ التي من شأنها مقاومته؛ أنشأ المؤتمرُ الدستوريُّ لعام ١٧٨٧ الهيئةَ الانتخابيَّةَ بوصفها وسيلةً لضمان أنَّ الرجل الذي يتمتع بما أسماه ألكسندر هاملتون/ Alexander Hamilton "مواهب في تدبير المؤامرات الرخيصة والقليل من فنون الشهرة" لا يمكن أن يصبحَ رئيساً للولايات المتحدة، مع أنَّ الهيئة الانتخابيَّة أصبحَتْ في النهايةِ هيئةً للموافقةِ الشكليَّةِ بلا سلطة ـ ومؤخراً، آليَّة تمنحُ نفوذاً هائلاً لمجموعاتٍ صغيرةٍ من الناخبين في عددٍ قليل من الولايات ـ إلا أنَّه كان من المفترض أصلاً أن تكونَ شيئاً مختلفاً تماماً: فقد صمِّمت كنوع من مجلس المراجعة، ومجموعة من نخبة المشرعين والأثرياء الذين سينتخبون الرئيس، رافضين اختيار الشعب إذا لزم الأمر، لتجنب "تجاوزات الديمقراطيَّة".

كان هاملتون واحداً من بين العديد في المستعمرات الأمريكيَّة الذين قرأوا مراراً وتكراراً تاريخَ اليونان وروما، محاولين تعلّم كيفيَّة منع ديمقراطيَّة جديدة من أن تصبح طغياناً، وكان جون آدامز*

* شغل جون آدامز منصبَ الرئيس الثاني للولايات المتحدة من ١٧٩٧ إلى ١٨٠١ (تعليق المترجم).

في أيامه الأخيرة يقرأ مرَّة أخرى شيشرون، رجل الدولة الرومانيّ الذي سعى إلى وقف تدهور الجمهوريَّة الرومانيَّة، حتى أنَّهُ اقتبس منه في رسائل إلى توماس جيفرسون*.

لقد أرادوا بناءَ الديمقراطيَّة في أمريكا على أساس المناقشة العقلانيَّة والمنطق والمساومة، لكن لم تكن لديهم أوهام بشأن الطبيعة البشريَّة: لقد عرفوا أنَّ الرجال يمكن أن يخضعوا أحياناً لـ "العواطف"؛ باستخدام كلمتهم التقليديَّة القديمة، وكانوا يعلمون أنَّ أيَّ نظام سياسيّ مبني على المنطق والعقلانيَّة مهدَّدٌ دوماً بانفجار اللاعقلانيَّة.

في العصر الحديث، سعى خلفاؤهم لتعريف تلك اللاعقلانيَّة وتلك "العواطف" أكثر، وفهم من قد ينجذب إلى الديماغوجيَّة، ولماذا؟

حدَّدت حنة آرنت/ Hannah Arendt، فيلسوفة أصول للشموليَّة، "الشخصيَّة الاستبداديَّة" بوصفها فرداً راديكاليَّاً وحيداً "بدون أيّ روابط اجتماعيَّة أخرى بالعائلة أو الأصدقاء أو الرفاق أو حتى مجرد المعارف، لا يستمدّ إحساسه بأنَّ له مكاناً في العالم إلَّا من خلال انتمائه إلى حركة وعضويته في الحزب"، أمَّا ثيودور أدورنو/ Theodor Adorno، أحد جيل المثقفين الذين فروا من ألمانيا النازيَّة إلى أمريكا، فقد حقَّق في هذه الفكرة أكثر، وسعى متأثراً بفرويد

* توماس جيفرسون (١٣ نيسان ١٧٤٣ - ٤ تموز ١٨٢٦) رجل دولةٍ أمريكيّ ودبلوماسيّ ومحامٍ ومهندس معماريّ وفيلسوف، شغلَ منصبَ الرئيسَ الثالث للولايات المتحدة من ١٨٠١ إلى ١٨٠٩، وكان سابقاً النائب الثاني لرئيس الولايات المتحدة في عهد جون آدامز وأوَّل وزير خارجيَّة للولايات المتحدة في عهد جورج واشنطن (تعليق المترجم).

لإيجاد مصدر الشخصيَّة الاستبداديَّة في الطفولة المبكرة، وربَّما حتى في المثليَّة الجنسيَّة المكبوتة.

في الآونة الأخيرة، جادلت كارين ستينر / Karen Stenner، خبيرة الاقتصاد السلوكيّ التي بدأت في البحثِ عن سمات الشخصيَّة منذ عقدين من الزمن، بأنَّ حوالي ثلث السكان في أيّ بلد لديهم ما تسميه النزعة السلطويَّة، وهي كلمةٌ أكثر إفادة من الشخصيَّة، لأنَّها أقلُّ صرامة، ويمكن أن تكون النزعة الاستبداديَّة، التي تفضل التجانس والنظام، حاضرة من دون إظهار ذاتها بالضرورة، ويمكن لنقيضها الميل "الليبرتاري"، الذي يفضل التنوع والاختلاف، أن يكونَ حاضراً بصمت أيضاً.

إنَّ تعريفَ ستينر للسلطويَّة ليس سياسيَّاً، وهو ليس الشيء نفسه مثل السياسة المحافظة؛ إذ تستهوي السلطويَّة ـببساطةـ الأشخاص الذين لا يستطيعون تحمل التعقيد: لا يوجد شيء بطبيعته "يساريّ" أو "يمينيّ" حول هذه الغريزة إطلاقاً؛ إنَّها مناهضة للتعدديَّة، وتشكك في الأشخاص الذين لديهم أفكار مختلفة، وشديدة الحساسيَّة تجاه المناقشات الحادة، ولا يهمّ ما إذا كان أولئك الذين يمتلكونها يستمدون سياساتهم في نهاية المطاف من الماركسيَّة أو القوميَّة، فهي حالةٌ ذهنيَّة، وليستْ مجموعةَ أفكار.

لكن في كثير من الأحيان يتجاهلُ المُنظّرون عنصراً حاسماً آخر في تراجع الديمقراطيَّة وبناء الحكم المطلق/ الأوتوقراطيَّة، وإنَّ مجردَ وجودِ أشخاصٍ معجبين بالديماغوجيين أو يشعرون براحة أكبر في الديكتاتوريات لا يفسر سبب انتصار الديماغوجيين تماماً.

يريدُ الديكتاتور أن يحكم، لكن كيف يصل إلى ذلك الجزء من الجمهور الذي يشعر بنفس الشعور؟ إنَّ السياسيَّ غير الليبراليّ يريدُ تقويضَ المحاكمِ لمنحِ نفسه المزيد من السلطة، لكن كيف يقنع الناخبين بقبولِ هذه التغييرات؟

في روما القديمة، كان لدى قيصر نحّاتون يصنعون نسخاً متعددة من تمثاله، ولا يمكن لأيّ سلطويّ معاصر أن ينجحَ بدون المكافئ الحديث: الكتّاب والمفكرون ومؤلفو الكُتيِّبات والمدونون والمستشارون السياسيون (خبراء التدوير)* ومنتجو البرامج المتلفزة ومبدعو الميمات** الذين يمكنهم بيع صورته للجمهور.

يحتاجُ السلطويون إلى الأشخاص الذين سيروجون لأعمال الشغب أو يشنّون الانقلاب، لكنَّهم يحتاجون إلى أشخاصٍ يمكنهم استخدام لغة قانونيَّة مُحنَّكة أيضاً؛ أشخاص يمكنهم القول إنَّ خرقَ الدستور أو تعديلَ القانون هو الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله؛ إنَّهم بحاجة إلى أشخاص للتعبير عن المظالم، والتلاعب بالسخط، وتوجيه الغضب والخوف، وتصوّر مستقبل مختلف، إنَّهم بحاجة

* "خبراء التدوير / Spin doctor": مصطلح يصفُ الأشخاصَ الذين يعملون على تقديم تفسير متحيز لحدث ما للتأثير على الرأي العام لصالح منظمة أو شخصيَّة عامَّة باستخدام تكتيكات مخادعة ومضللة، ويتمتعون بمرونة ولباقة تجذب الجماهير لإعادة تركيز انتباه الجمهور بعيداً عن الجوانب السلبيَّة، ويستخدم المصطلح للإشارة إلى مستشاري العلاقات العامَّة ومنظمي استطلاعات الرأي ومستشاري وسائل الإعلام الذين يطورون رسائل تساعد في إقناع الجمهور (تعليق المترجم).

** "الميمات/ memes": مصطلح مستخدم في الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، وقد يشتمل على العبارات التهكميَّة البسيطة، أو الإيماءات اللغوية المختلفة، على شكل فيديو، أو صورة، أو رابط تشعبي، أو موقع، أو مجرد كلمة أو عبارة (تعليق المترجم).

إلى أعضاء من النخبة المثقفة والمتعلمة؛ أي الذين سيساعدونهم في شنّ حرب على بقيَّة النخبة المثقفة والمتعلمة، حتى لو كان ذلك يشملُ رفاقَهم في الجامعة وزملاءهم وأصدقاءهم.

في كتابه لعام ١٩٢٧ "خيانة المثقفين/ La trahison des clercs" ـ الذي تُرجم ترجمة غير دقيقة إلى "The Treason of the Intellectuals" أو أحياناً "The Betrayal of the Intellectuals" ـ لحظ كاتبُ المقالاتِ الفرنسيّ جوليان بيندا/ Julien Benda ووصفَ النخبَ السلطويَّة في عصره قبل مدَّة طويلة من فهم أيّ شخص آخر لمدى أهميتهم، واستباقاً لأرنت، لم يكن اهتمام بيندا بـ "الشخصيَّاتِ الاستبداديَّة" في حدّ ذاتها، بل بالأحرى الأشخاص المعينين الذين دعموا الاستبداد الذي رآه يتخذُ أشكالاً يساريَّة ويمينيَّة في جميع أنحاء أوروبا، وقد وصف كلاً من أيديولوجي اليمين المتطرف واليسار المتطرف الذين سعوا إلى تعزيز "العاطفة الطبقيَّة" في شكل الماركسيَّة السوفيتيَّة، أو "العاطفة الوطنيَّة" في شكل الفاشية، واتَّهم كلا الجانبين بخيانة المهمَّة المركزيَّة للمفكر؛ أي البحث عن الحقيقة، لصالح قضايا سياسيَّة معيَّنة.

أشار بيندا بسخرية إلى هؤلاء المفكرين الساقطين بـ "الكهنة/ clercs" أو "الكتبة/ clerks"، وهي كلمة تربطها أقدم معانيها بـ "الأكليروس/ clergy"، وقبل عشر سنوات من رعب ستالين الكبير وست سنوات قبل وصول هتلر إلى السلطة، كان بيندا يخشى من أنَّ الكتاب والصحفيين وكُتّاب المقالات الذين تحوَّلوا إلى روَّاد

أعمال سياسيين ومروجي أجندات سيدفعون حضارات بأكملها إلى أعمال عنف، وبذلك كان ترتيب الأحداث.

إن حدث ذلك، فلن يبدو سقوط الديمقراطيَّة الليبراليَّة في عصرنا مثل ما كان في عشرينيات أو ثلاثينيات القرن الماضي، لكنَّها ستظلُّ تتطلَّب نخبةً جديدة؛ جيل جديد من الكتبة لتحقيق ذلك، وسيحتاجُ انهيار فكرة الغرب، أو ما يسمَّى أحياناً "النظام الليبراليَّ الغربيّ"، إلى مفكرين ومثقفين وصحفيين ومدونين وكتّاب وفنانين لتقويض قيمنا الحاليَّة، ومن ثمَّ تخيل النظام الجديد الذي سيأتي، وقد يأتون من أماكن مختلفة: في التعريف الأصليّ لـ "بيندا"، تضمن "الكتبة" كلاً من الأيديولوجيين من اليمين واليسار، كلاهما ما يزال معنا.

إنَّ الحساسيَّةَ الاستبداديَّةَ موجودةٌ بلا شك في جيل من المحرضين اليساريين المتطرفين في الحرم الجامعيّ الذين يسعون إلى إملاء كيف يمكن للأساتذة التدريس وما يمكن للطلاب قوله، وموجودة في المحرضين الغوغائيين على "تويتر" الذين يسعون إلى إسقاط الشخصيَّات العامَّة وكذلك الأشخاص العاديين لانتهاك قوانين التعبير غير المكتوبة، وكانت حاضرة بين المثقفين الذين تحولوا إلى خبراء تدوير لحزب العمال البريطانيّ الذي منع أيّ تحد لقيادة جيريمي كوربين/ Jeremy Corbyn، حتى حينما أصبح واضحاً أنَّ أجندة كوربين اليساريَّة المتطرفة سترفض من قبل البلاد، وكانت حاضرةً بين نشطاء الحركة العماليَّة الذين أنكروا بدايةً ثم قلَّلوا من معاداة الساميَّة التي انتشرت داخل الحزب أيضاً.

إنَّ "الكتبة" المعاصرين هم الوحيدون الذين حققوا سلطة سياسيَّة حقيقيَّة في الديمقراطيَّات الغربيَّة، رغم تنامي القوَّةِ الثقافيَّةِ لليسار الاستبداديّ، وهم الوحيدون الذين يعملون داخل الحكومات، ويشاركون في الائتلافات الحاكمة، ويوجّهون الأحزاب السياسيَّة المهمَّة، وهم أعضاء في حركات اعتدنا على تسميتها بـ "اليمين"؛ إنَّها نوعٌ معيَّنٌ من اليمين حقّاً، ليس لديها الكثير من القواسم المشتركة مع معظم الحركاتِ السياسيَّةِ التي وصفت على هذا النحو منذُ الحربِ العالميَّة الثانية، إذ ينتمي المحافظون البريطانيون، والجمهوريون الأمريكيون، والمناهضون للشيوعيَّةِ في أوروبا الشرقيَّة، والديمقراطيون المسيحيون الألمان، والديغوليون* الفرنسيون، إلى تقاليد مختلفة، لكنَّهم كانوا كمجموعة، على الأقلّ حتى وقت قريب، مكرسين ليس للديمقراطيَّة التمثيليَّة فحسب، ولكن للتسامح الدينيّ أيضاً، والقضاء المستقل، وحريَّة التعبير والصّحافة، والتكامل الاقتصاديّ، والمؤسَّسات الدوليَّة، والتحالف العابر للأطلسي، وفكرة سياسيَّة عن "الغرب".

على النقيض ممَّا سبق، لا يريدُ اليمين الجديد أن يحفظ أو يتمسّك بما هو موجود أصلاً، ففي أوروبا القاريَّة** يحتقرُ اليمينُ الجديدُ الديمقراطيَّةَ المسيحيَّة، التي استخدمت قاعدتها السياسيَّة

* "الديغولية/ Gaullisme" تعبر عن موقف سياسيٍّ فرنسيٍّ يقومُ على فكرٍ وعملِ زعيم المقاومةِ الفرنسيَّة في الحرب العالميَّة الثانية شارل ديغول والذي أصبح فيما بعد الرئيس المؤسِّس للجمهوريَّة الفرنسيَّة الخامسة (تعليق المترجم).

** يمكن الإشارة إليها أيضاً بـ "القارة الأوروبيَّة" أو البر الرئيس لأوروبا، والتعريف الأكثر شيوعاً لـ "أوروبا القاريَّة" يستثني قبرص وأيسلندا وأيرلندا ومالطا والمملكة المتحدة وتوابعها (تعليق المترجم).

في الكنيسة لتأسيس وإنشاء الاتّحادِ الأوروبيّ بعد كابوس الحرب العالميَّة الثانية، وفي الولايات المتحدة والمملكة المتحدة كسر اليمين الجديد* للتيار المحافظ المقاوم للتغير البوركانيّ** القديم الذي يشك في حدوث تغير سريع في جميع أشكاله، ورغم أنَّهم يكرهون العبارة، فإنَّ اليمين الجديد هو بلشفيّ أكثر من كونه بوركانيّاً: هؤلاء رجال ونساء يريدون تقويض المؤسَّسات القائمة أو تجاوزها أو إطاحتها لتدمير ما هو موجود.

يدورُ هذا الكتابُ حول هذا الجيل الجديد من الكتبة والواقع الجديد الذي يقومون بإنشائه، بدءاً من القليل ممَّن أعرفهم في أوروبا الشرقيَّة ثم الانتقال إلى قصَّة مختلفة ولكن موازية لبريطانيا، وهي دولة أخرى تربطني بها علاقات عميقة، وانتهاءً بالولايات المتحدة، حيث ولدت، مع توقفات قليلة في أماكن أخرى.

إنَّ الأشخاصَ الموصوفين يتراوحون من الأيديولوجيين الأصليين إلى الكتَّاب السياسيين رفيعي المستوى: بعضهم يكتبَ كتباً رفيعة المستوى، والبعض الآخر يطلقُ نظريَّات مؤامرة

* مصطلح يشير إلى مجموعات سياسيَّة أو سياسات يمينيَّة متنوعة في بلدان مختلفة، يُستخدَمُ لوصفِ ظهورِ أحزابِ أوروبا الشرقيَّة بعد انهيار الاتّحاد السوفيتي، ويختلف اليمنُ الجديد الأوّل (١٩٥٥-١٩٦٤) عن اليمين الجديد الثاني (١٩٦٤-٢٠١٤) في قضايا تتعلّق بالسياسة الخارجيَّة؛ إذ تبنَّي اليمينُ الجديدُ الأوَّلُ الليبراليَّةَ الكلاسيكيَّة، والقيمَ الاجتماعيَّةَ التقليديَّة، ومناهضةَ الشيوعيَّة، في حين يميلُ اليمينُ الجديدُ الثاني إلى التركيز على المسائلِ الحسَّاسة والمثيرة للجدل، مثل: الإجهاض، سياسة عدم تدخليَّة الولايات المتحدة، ويشير أحياناً إلى حركةٍ سياسيَّة تعارضُ النزعةَ الإنسانيَّةَ العلمانيَّة، وتهتمُّ بقضايا تتعلَّقُ بالكنيسةِ، والدولة، والوطنيَّة (تعليق المترجم).

** مصطلحٌ يتعلَّقُ بـإدموند بورك/ Edmund Burke، مفكر سياسيٌّ إيرلنديّ، مؤلف وخطيب ومنظّر سياسيّ وفيلسوف، دعمَ قضيَّة الثوار الأمريكيين، ومعارضة الثورة الفرنسيَّة لاحقاً، ويعدّ من رواد الفكر المحافظ الحديث (تعليق المترجم).

فيروسيَّة، بعض منهم مَدفوع بدافع حقيقيّ من نفس المخاوف، ونفس الغضب، ونفس الرغبة العميقة للوحدة التي تحفز قراءهم وأتباعهم، وأصبح البعض متطرفاً بسبب المواجهات الغاضبة مع اليسار الثقافيّ*، أو صدمهم ضعف الوسط الليبراليّ، وبعضهم متشائم وذرائعيّ، يتبنّى لغةً راديكاليَّةً أو سلطويَّةً لأنَّها ستجلبُ لهم القوَّة أو الشهرة، وبعضهم رؤيوي، مقتنع أنَّ مجتمعاتهم قد فشلت وتحتاج إلى إعادة بناء، مهما كانت النتيجة، وبعضهم متدينون بتعمق، ويستمتع البعض بالفوضى، أو يسعون إلى نشر الفوضى، مثل مقدمة لفرض نوع جديد من النظام.

يسعى الجميع إلى إعادة تعريف دولهم، وإعادة كتابة العقود الاجتماعيَّة (العقد الاجتماعيّ ليس عقداً حقيقيّاً، ولا أحد يوقّع عليه، وفي أغلب الأحيان لا أحد يوافق عليه، وفكرة العقد الاجتماعيّ هي فكرة حديثة جداً، لا يزيدُ عمرها عن مائتي عام، تتلخص في موافقة مجموعة من الناس على التنازل عن حقوق معيَّنة وقبول سلطة مركزيَّة من أجل حماية حقوقهم الأخرى، وهو ما يسمح لأيّ حكومة بالعمل.) وأحياناً تغيير قواعد الديمقراطيَّة حتى لا يفقدوا السلطة أبداً، وحذَّر ألكسندر هاملتون منهم، وحارب شيشرون ضدهم، واعتادَ بعضهم أن يكونوا أصدقائي.

* "اليسار الثقافيّ" ليس حركة أو أيديولوجيا أو فلسفة، بل مجموعةً من المواقف والمعتقدات القائمة على تحيزات النخبة الفكريَّة الحديثة، مدعومة بتفسيرات ضحلة ومبسطة للفلسفة الحديثة (كارل ماركس غالباً) وعلم النفس الشعبي (تعليق المترجم).

الفصلُ الثاني
كيفَ ينتصرُ الديماغوجيُّون؟

كانت الملكيَّةُ والاستبدادُ والأوليغارشيَّةُ* والديمقراطيَّة، كلّ هذه الأساليب لتنظيم المجتمعات، مألوفةً لدى أفلاطون وأرسطو منذ أكثر من ألفي عام، لكن دولة الحزب الواحد غير الليبراليَّة، والتي توجد الآن في جميع أنحاء العالم ـ فكر في الصين وفنزويلا وزيمبابوي ـ طُوِّرت لأوَّل مرة من قِبل لينين، في روسيا، بدءاً من عام ١٩١٧، ولا بدّ أن يذكر مؤسّس الاتحاد السوفيتي في كتب العلوم السياسيَّة في المستقبل، ليس لمعتقداته الماركسيَّة فحسب، بل بوصفه مبتكر هذا الشكل الدائم من التنظيم السياسي؛ الأنموذج الذي يستخدمه العديد من الحكام المستبدين في العالم اليوم.

تتميزُ دولة الحزب الواحد غير الليبراليَّة ـ على عكس الماركسيَّة ـ بأنَّها ليست فلسفة، وهي آليَّة للاحتفاظ بالسلطة، وتؤدي مهامها ـ لحسن الحظ ـ إلى جانب العديد من الأيديولوجيَّات، تعمل لأنَّها تحدّد بوضوح من الذي من سيصبح النخبة: النخبةُ السياسيَّة، والنخبةُ الثقافيَّة، والنخبةُ الماليَّة.

* "الأوليغارشيَّة" (حكم الأقلية): أحد أنواع الحكم السياسي الذي يسود فيه حكم الأقلية، حيث تتركز السلطة بيد عدد من الأشخاص الذين ينتمون إلى نفس الطبقة أو الأسر الثرية (تعليق المترجم).

لقد مُنح حقّ الحكم للأرستقراطيَّة في الأنظمة الملكيَّة في فرنسا وروسيا قبل الثورة، التي عرّفت نفسها بقواعد صارمة للتناسل وآداب السلوك، ويُمنح الحقَّ في الحكم في الديمقراطيَّات الغربيَّة الحديثة، على الأقلّ من الناحية النظريَّة، من خلال أشكال مختلفة من المنافسة: الحملاتُ الانتخابيَّةُ والتصويت، واختباراتُ مبدأ الجدارةِ* التي تحدّدُ الحصولَ على التعليمِ العالي والخدمة المدنيَّة والأسواق الحرة، وتكون التسلسلات الهرميَّة الاجتماعيَّة القديمة جزءاً من هذا المزيج عادة، لكن في بريطانيا الحديثة وأمريكا وفرنسا، وحتى وقت قريب في بولندا، افترض معظمهم أنَّ المنافسةَ الديمقراطيَّةَ هي الطريقةُ الأكثر عدلاً وفعالية لتوزيع السلطة.

يجب أن يحكمَ السياسيون الأكثر جاذبيَّة وكفاءة، وعلى مؤسّسات الدولة ـ القضاء، الخدمة المدنيَّة ـ أن يشغلها أشخاص مؤهلون، وأن تُتيح المنافسات فُرَصاً مُتَساوِية، لضمانِ نتيجة عادلة.

استندتْ دولةُ لينين ذات الحزب الواحد إلى قيم مختلفة، أطاحت بالنظام الأرستقراطي، لكنَّها لم تضع أنموذجاً تنافسياً في مكانه، ولم تكن دولة الحزب الواحد البلشفيَّة غير ديمقراطيَّة فحسب، بل كانت مناهضة لحكم الجدارة أو الميرتقراطيَّة أيضاً، ولم تذهب الأماكن في الجامعات، ووظائف الحقوق المدنيَّة، والمناصب في الحكومة والصناعة إلى الأكثر كدحاً أو قدرةً، بل

* "الميرتقراطيَّة" (حكم الجدارة): نظامٌ يصلُ فيه الأشخاص إلى مناصب السلطة بسبب قدراتهم على أساسِ الكفاءة والجهد المبذول، وليس بسبب أموالهم أو وضعهم الاجتماعي (تعليق المترجم).

إلى الأكثر ولاءً، ولم يكن تقدم الأفراد بسبب الموهبة أو الصناعة، ولكن لأنَّهم كانوا على استعداد للامتثال لقواعد الحزب، ورغم اختلاف هذه القواعد في أوقات مختلفة، إلا أنَّها كانت متسقةً في نواحٍ معينة، وعادة ما يستبعدون النخبة الحاكمة السابقة وأطفالهم، وكذلك الجماعات العرقيَّة المشبوهة؛ لقد فضلوا أبناء الطبقة العاملة، وقبل كلّ شيء، فضلوا الأشخاص الذين أعلنوا بصوت عالٍ الإيمان بالحزب، وحضروا اجتماعات الحزب، وشاركوا في إظهار الحماس بين العامَّة.

تسمحُ دولةُ الحزبِ الواحد بالانتقال إلى الأعلى على عكس الأوليغارشيَّة العادية: يمكن للمؤمنين الحقيقيين التقدم، وهو احتمالٌ يروق بوجهٍ خاص للأشخاص الذين لم يروّج لهم النظام السابق أو المجتمع، ولاحظت أرنت انجذاب الاستبداد إلى الأشخاص الذين يشعرون بالاستياء أو الفشل في أربعينيات القرن الماضي، حينما كتبت أنَّ أسوأ نوع من دولة الحزب الواحد "يستبدل بطريقة ثابتة جميع المواهب من الدرجة الأولى، بصرف النظر عن تعاطُفهم، بأولئك المجرمين والأغبياء الذين ما يزال أفضل ضمان لولائهم هو الافتقار إلى الذكاء والإبداع".

كان ازدراءُ لينين لفكرة الدولة المحايدة وموظفي الخدمة المدنيَّة غير السياسيين وأيّ فكرة عن وسائل الإعلام الموضوعيَّة جزءاً مهمَّاً من نظام الحزب الواحد أيضاً، كتب أنَّ حريَّة الصّحافة "خدعة"، وسخرَ من حريَّة التجمع ووصفها بـ "عبارة جوفاء"، أمَّا بالنسبة للديمقراطيَّة البرلمانيَّة نفسها، فلم تكن أكثر من "آلة لقمع

الطبقة العاملة"، ويمكن للصّحافة أن تكونَ حرَّةً في المخيلة البلشفيَّة، وأن تكونَ المؤسَّساتُ العامَّةُ عادلة، بمجرد أن تسيطر عليها الطبقة العاملة عن طريق الحزب فقط.

إنَّ استهزاءَ اليسارِ المتطرفِ بالمؤسَّساتِ التنافسيَّة لـ "الديمقراطيَّة البرجوازيَّة" والرأسماليَّة، وتهكمه بإمكانيَّة وجود أيّ موضوعيَّة في وسائل الإعلام، أو الخدمة المدنيَّة، أو القضاء، كان له نسخة يمينيَّة قديمة أيضاً، وألمانيا هتلر هي المثالُ الذي يُعطَى عادة، لكن هناك العديد من الأمثلة الأخرى، من أسبانيا فرانكو إلى تشيلي بينوشيه، وكان الفصلُ العنصريُّ في جنوب إفريقيا بحكم الواقع دولة الحزب الواحد التي أفسدت صحافتها وقضاءها لاستبعاد السود من الحياة السياسيَّة وتعزيز مصالح الأفريقانيين؛ البيض في جنوب إفريقيا، الذين ينحدرون أساساً من المستوطنين الهولنديين، ولم ينجحوا في الاقتصاد الرأسمالي الذي أنشأته الإمبراطوريَّة البريطانيَّة.

صحيح أنَّه كانت هناك أحزابٌ أخرى في جنوب إفريقيا التي تمارس الفصل العنصري، لكن دولة حزب واحد ليست بالضرورة دولة بلا أحزاب معارضة البتة، ومع أنَّ حزب لينين الشيوعي وحزب هتلر النازي اعتقلوا وقتلوا خصومهم، إلا أنَّ هناك الكثير من الأمثلة على دول الحزب الواحد، وحتى الدول الوحشيَّة جداً المكوَّنة من حزب واحد، سمحت ببعض المعارضة المحدودة، ولو للعرض فقط.

أتاحتْ العديدُ من الأحزاب الشيوعيَّة، بين عامي ١٩٤٥

و١٩٨٩، في أوروبا الشرقيَّة للمعارضين ـ أحزاب الفلاحين، والديمقراطيين المسيحيين الزائفين، أو في حالة بولندا، حزب كاثوليكي صغير ـ أداء أدوار في الدولة، في "البرلمانات الزائفة"، أو في الحياة العامَّة.

كان هناك العديدُ من الأمثلة في العقود الأخيرة، من تونس بن علي إلى فنزويلا هوغو شافيز، عن دول الحزب الواحد بحكم الأمر الواقع، والتي تسيطرُ على مؤسَّساتِ الدولة وتحدُّ من حريَّةِ التعبير وتكوين الجمعيَّات، لكنَّها سمحتْ بوجود معارضة رمزيَّة، طالما أنَّ تلك المعارضة لم تهدد فعلاً الحزب الحاكم.

هذا الشكلُ من الديكتاتوريَّة الناعمة لا يتطلَّبُ عنفاً جماعيَّاً للبقاء في السلطة، بل يستندُ إلى كادر من النخب لإدارة البيروقراطيَّة، ووسائل الإعلام الحكوميَّة، والمحاكم، والشركات الحكوميَّة في بعض الأماكن.

يتفهم الكتبة المعاصرون دورهم، وهو الدفاع عن القادة، مهما كانت تصريحاتهم غير نزيهة، ومهما كان فسادهم كبيراً، ومهما كان تأثيرهم كارثياً على الأشخاص العادين والمؤسَّسات، ويعرفون في المقابل أنَّهم سيكافؤون ويتقدمون، إذ يمكن أن يصبحَ المقربون من زعيم الحزب أثرياء للغاية، حيث يحصلون على عقود أو مقاعد مربحة في مجالس إدارة الشركات الحكوميَّة دون الحاجة إلى التنافس لنيلها، ويمكن للآخرين الاعتماد على رواتب الحكومة، وكذلك الحماية من اتهامات الفساد أو عدم الكفاءة، ومهما كان أداؤهم سيئاً، فلن يفقدوا وظائفهم.

يوجدُ العديدُ من النسخ لدولة الحزب الواحد غير الليبراليَّة في جميع أنحاء العالم، من روسيا بوتين إلى الفلبين دوتيرتي، ويوجدُ العديد من الأحزاب في أوروبا التي يمكن أن تكون أحزاباً غير ليبراليَّة، بعضها كان جزءاً من الائتلافات الحاكمة، على سبيل المثال في إيطاليا والنمسا، لكن بينما أكتب هذا، لم يحتكر السلطة سوى حزبين غير ليبراليين: "العدالة والقانون" في بولندا، وحزب فيكتور أوربان/ Viktor Orbán فيدسز (تحالف الديموقراطيين الشباب/ Fidesz) في المجَر، اتخذ كلاهما خطوات كبيرة نحو تدمير المؤسَّسات المستقلة، و نتيجة لذلك استفادا من أعضائهما.

لم يغير "العدالة والقانون" قانون الخدمة المدنيَّة فقط، ممَّا سهَّلَ فصل المختصين وتوظيف المختَرقين حزبياً، بل عمل على فصل رؤساء الشركات الحكوميَّة البولنديَّة أيضاً، واستبدلَ الأشخاص ذوي الخبرة في إدارة الشركات الكبيرة بأعضاء الحزب، وأصدقائهم وأقاربهم، وتعدّ جانينا جوس أحد الأمثلة الأنموذجيَّة لذلك، وهي صانعة مولعة بالمربى والأطعمة المحفوظة وصديقة قديمة لـ "كاتشينسكي" التي اقترض منها رئيس الوزراء ذات مرة مبلغاً كبيراً من المال لدفع تكاليف علاج طبيّ لوالدته، وشغلَتْ جانينا جوس بعضَ الوظائف الحزبيَّة منخفضة المستوى من قبل، ولكن الآن عُيِّنَتْ في مجلس إدارة مجموعة الطاقة البولنديَّة/ Polska Grupa Energetyczna، أكبر شركة للطاقة في بولندا، والتي يعمل فيها أربعون ألف شخص.

أمَّا في المجر، فيعدّ صهر فيكتور أوربان في المجر شخصيَّة

ثريَّة وذات امتيازات بالمثل، اتهم بالاحتيال على الاتحاد الأوروبيّ، لكن لم يكتمل أيّ تحقيق أبداً؛ أسقطتْ الدولةُ المجريَّةُ القضيَّة المرفوعةَ ضدّه.

يمكنك تَسْمِيَة مثل هذه الأمور بمُسَمَّيات عديدة: المحسوبيَّة، والاستيلاء على الدولة، والفساد، ولكن يمكنك وصفها بعبارات إيجابيَّة إن شئت: إنَّها تمثلُ نهاية المفاهيم البغيضة لحكم الجدارة، والمنافسة السياسيَّة، والسوق الحرة، وهي المبادئ التي، بحسب تعريفها، لم يستفد منها من هم أقلّ نجاحاً أبداً، ويبدو النظام المزيف وغير التنافسي سيئاً إذا كنت تريد أن تعيشَ في مجتمع يديره الموهوبون، ولكن إذا لم تكن هذه هي اهتماماتك الأساسيَّة، فما الخطأ في ذلك؟

إذا كنتَ تعتقد، كما العديد من أصدقائي القدامى الآن، أنَّ بولندا ستكون أحسن حالاً إذا حكمها أشخاص يعلنون بصوت عالٍ نوعاً معيناً من الوطنيَّة؛ أناس مخلصون لقائد الحزب، أناس يرددون كلمات كاتشينسكي نفسه "نوع أفضل من البولنديين"، وقتذاك تكون دولة الحزب الواحد أكثر إنصافاً من ديمقراطيَّة تنافسيَّة.

لماذا يجبُ السماح للأحزاب المختلفة بالتنافس وفق فُرَص مُتَساوِية في حين يستحق أحدهم الحكم فقط؟ لماذا يجبُ السماح للشركات بالمنافسة في السوق الحرَّة إذا كان بعضها موالٍ للحزب فقط، وبذلك تستحقُّ الثروة حقاً؟

يتعزَّزُ هذا الدَّافع، في بولندا وكذلك في المجر والعديد من البلدان الشيوعيَّة السابقة الأخرى، من خلال الشعور السائد بأنَّ

قواعدَ المنافسةِ معيبةٌ لأنَّ إصلاحات التسعينيات ـ حينما أدَّت الخصخصة الجماعيَّة* وفرض قواعد السوق الحرَّة إلى تحول في الاقتصادات ـ سمحت للكثير من الشيوعيين السابقين بإعادة تدوير سلطتهم السياسيَّة إلى قوة اقتصاديَّة، ويصف كلّ من أوربان وكاتشينسكي خصومهم أنَّهم "شيوعيون" بدرجة كبيرة، بل إنَّهم يكسبون المعجبين الأجانب لفعلهم ذلك.

في حالة أوربان، كان خصومه الأساسيون، على الأقلّ في الجزء الأوَّل من حياته المهنيَّة، شيوعيين سابقين حقاً، أعيدت تسميتهم بـــ "الاشتراكيين"، لذلك كان للوصف السابق بعض القوَّة، لكن في كلا البلدين، يبدو هذا النداء إلى "معاداة الشيوعيَّة"، والذي كان يبدو أكثر أهميَّة قبل ربع قرن، ضعيفاً وسطحياً الآن.

لقد اقتصرتْ قيادة بولندا، منذ عام ٢٠٠٥ على الأقلّ، على رؤساء ورؤساء وزراء بدأت سيرهم السياسيَّة في حركة التضامن المناهضة للشيوعيَّة، وكان المنافسون الرئيسون لكاتشينسكي في يمين الوسط الليبراليّ، وليس في اليسار، لا يوجد احتكارٌ قويٌّ للأعمال الشيوعيَّة السابقة في بولندا أيضاً، على الأقل ليس على المستوى الوطنيّ، حيث جنى الكثير من الناس الأموال من دون

* نجد الخصخصة الجماعيَّة في بيع ممتلكات الدولة في ألمانيا النازية بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٧ التي تحوَّلت ملكيتها إلى العديد من المنظمات داخل الحزب النازي، وتمَّ تبني هذه الخصخصة في حوالي نصف الدول الشيوعيَّة السابقة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وتُعرف أحياناً بـ "خصخصة القسيمة/ coupon privatization"، وهي تنطوي على توزيع قسائم على المواطنين العاديين يمكن استبدالها بعد ذلك كأسهم في الشركات الوطنيَّة، لكن ـ من الناحية العمليَّة ـ فهم القليل من الناس السياسة، وكان معظمهم في فقر مدقع؛ لذلك باعوا قسائمهم في أسرع وقت ممكن، وفي بلدان مثل روسيا، مكّن بيع القسائم شراء المستغلين لتلك الأسهم والاستيلاء على أجزاء كبيرة من القطاع الخاص الجديد (تعليق المترجم).

صلات سياسيَّة خاصة، وأبرز شيوعي سابق في السياسة البولنديَّة الآن هو ستانيسلاف بيوترويتش/ Stanisław Piotrowicz، مدعي عام وشيوعي سابق في حقبة الأحكام العرفيَّة، وهو الآن مرشح "العدالة والقانون" للمحكمة الدستوريَّة، ولا غرابة أنَّه عدوٌّ كبير لاستقلال القضاء، ويُوظّفُ أوربان بانتظام شيوعيين سابقين في مناصب عليا أيضاً؛ إنَّ "معاداةَ الشيوعيَّة" من كلا الحكومتين شكل آخر من أشكال النفاق.

بَيْدَ أنّ التحذيراتِ القاتمةَ بشأن تأثير "الشيوعيَّة" تحظى بجاذبيَّة أنصار أيديولوجيَّة الجناح الأيمن من جيلي، ويبدو بالنسبة للبعض منهم أنَّه يفسر إخفاقاتهم الشخصيَّة، أو مجرد سوء حظهم، ولم يكن على كلّ شخص كان معارضاً في السبعينيات من القرن الماضي أن يصبح رئيساً للوزراء، أو كاتباً حقق أعلى المبيعات، أو مفكراً جماهيريّاً محترماً بعد عام ١٩٨٩، ويعدّ ذلك مصدرَ استياءٍ شديد بالنسبة للكثيرين.

إذا كنتَ تعتقد أنَّك تستحقُّ الحكم، فإنَّ دافعك لمهاجمة النخبة، تعبئة المحاكم، وتشويه الصّحافة لتحقيق طموحاتك هو دافع قويّ، وإنَّ الاستياء والحسد، وقبل كلّ شيء الاعتقاد بأنَّ "النظام" غير عادل ـ ليس فقط للبلد، ولكن بالنسبة لك ـ مشاعر مهمَّة بين الأيديولوجيين الأصليين لليمين البولندي، لدرجة أنَّه ليس من السهل الاختيار بصرف النظر عن دوافعهم الشخصيَّة والسياسيَّة.

ومن المؤكَّدِ أنَّ هذا ما تعلمته من قصة جاسيك كورسكي/ Jacek Kurski، مدير التلفاز البولنديّ الحكومي وكبير الأيديولوجيين لدولة الحزب الواحد المحتملة، الذي بدأ عمله في نفس المكان، وفي نفس الوقت مع شقيقه، ياروسلاف كورسكي/ Jarosław Kurski، الذي يحرّر أكبر صحيفة ليبراليَّة بولنديَّة وأكثرها نفوذاً، ولدوا في نفس العائلة، وهم يؤمنون بفكرتين مختلفتين تماماً عن بولندا؛ إنَّهما وجهان لعملة واحدة بولنديَّة.

***

لفهم الأخوين كورسكي، من المهم أن نفهمَ من أين أتوا: مدينة غدانسك الساحليَّة، على بحر البلطيق، حيث تلوح رافعات أحواض بناء السفن مثل طيور اللقلق العملاقة فوق واجهات الشوارع الهانزية القديمة، ونشأتْ عائلة كورسكي هناك في أوائل الثمانينيات، حينما كانت غدانسك مركزاً للنشاط المناهض للشيوعيَّة في بولندا ومياه راكدة سيئة، وهي مكان تم فيه قياس التآمر والضجر بجرعات متساوية.

في تلك اللحظة بالذات، في ذلك المكان بالذات، برزت عائلة كورسكي، وكانت آنا كورسكا/ Anna Kurska محامية وقاضية، ناشطة في "حركة التضامن"*، المنظمة المعارضة الرئيسة في ذلك

* "حركة التضامن/ Solidarność": الاتحاد النقابيّ المستقل للحكم الذَّاتيّ "تضامن"، وهو اسم نقابة عماليَّة بولنديَّة انبثقت عن حركة إضراب في عام ١٩٨٠ ولعبتْ دوراً حاسماً في ثورة وإصلاح عام ١٩٨٩، وتعدّ "حركة تضامن" أنجح نقابة عماليَّة حرَّة مستقلة في الكتلة الشرقيَّة السابقة، وهي عضو في الاتحاد الدوليّ لنقابات العمال (ITUC) والاتحاد الأوروبيّ لنقابات العمال (ETUC)، لكن أسباب فقدان أهميَّة النقابات العماليَّة في بولندا تكمن في التقييم

الوقت، وكان باب منزلهم مفتوحاً دوماً، يأتي الناس طوال اليوم على أمل مناقشة بعض الأمور القانونيَّة العاجلة، وربما الحصول على بعض النصائح، ثم يبقون ويتحدثون ويشربون الشاي ويدخنون، يشربون الشاي مرة أخرى ويتحدثون أكثر، لم يتصل أحد هاتفياً قبل المجيء؛ إذ لم يكن يملك الناس هواتفاً في ثمانينات القرن الماضي في غدانسك، وإن امتلكوها لا يثقون في عدم وجود أجهزة للتنصت عليها.

أصبح أبناء آنا نشطاء أيضاً، أخبرني السناتور بوغدان بوروسفيتش/ Bogdan Borusewicz، أحد أهم نشطاء نقابة العمال السريين في ذلك الوقت، أنَّ مدرستهم كانت معروفة على نطاق واسع بأنَّها مدرسة المتمردين/ zrewoltowane في التمرد ضدّ النظام الشيوعيّ، ومثّل ياروسلاف صَفّهُ في "برلمان" المدرسة، وهي مبادرة معارضة، وكان جزءاً من مجموعة تقرأ الأدب والفلسفة المحافظة البولنديَّة.

كان جاسيك/ *Jacek، الأصغر قليلاً، أقلّ اهتماماً بالمعركة الفكريَّة ضدّ الشيوعيَّة، ورأى نفسه أكثر بوصفه ناشطاً وراديكاليّاً، وبعد إعلان الأحكام العرفيَّة في عام ١٩٨١، وإنهاء المدَّة القصيرة من الوجود القانونيّ لـ"حركة تضامن"، ذهب الشقيقان إلى مسيرات ورددا الشعارات ولوحا باللافتات، عمل كلاهما في البداية في

السلبيّ لمشاركة "حركة تضامن" في الحكومة في أوائل تسعينيات القرن الماضي، وفي تفكك الحركة النقابيَّة، وخصخصة الشركات المملوكة للدولة وظهور مفاهيم نمط حياة جديدة (تعليق المترجم).

* سياسيٌّ وصحفيٌّ بولنديّ، والرئيس الحاليّ للإذاعة العامَّة البولنديَّة (تعليق المترجم).

صحيفة المدرسة غير القانونيَّة ثم في "حركة التضامن"؛ الصحيفة المعارضة غير القانونيَّة لحركة التضامن.

في تِشرين الأوّل ١٩٨٩، ذهب ياروسلاف للعمل سكرتيراً صحفيّاً لدى ليخ فاونسا/ Lech Wałęsa، زعيم "حركة تضامن"، الذي شعر بعد انتخاب أول حكومة غير شيوعيَّة في بولندا بالضيق والتجاهل، لم يكن هناك دور واضح له في الفوضى التي خلقتها الإصلاحات الاقتصاديَّة الثوريَّة والتغيير السياسيّ السريع.

في نهاية المطاف، ترشَّحَ ليخ فاونسا للرئاسة وفاز في نهاية عام ١٩٩٠؛ جزئياً من خلال حشد الناس الذين استاؤوا بالفعل من التسويات التي رافقت الانهيار التفاوضيّ للشيوعيَّة في بولندا، وعلى الأخصّ قرار عدم سجن الشيوعيين السابقين.

أدرك ياروسلاف من هذه التجربة أنَّه لا يحبُّ السياسة، لا سيّما سياسة الاستياء*: "لقد رأيت ما الذي تعنيه ممارسة السياسة حقاً... المكائد الفظيعة، والبحث عن القذارة، وحملات التشهير".

كان هذا أوَّل لقاء له مع كاتشينسكي أيضاً، مؤسّس "العدالة والقانون" فيما بعد، والذي أخبرني عنه ياروسلاف أنَّه: "سيّد كلّ ذلك، وفي تفكيره السياسيّ لا يوجد شيء اسمه مصادفة.... إذا حدث شيء ما، فهو مكيدة من شخص خارجيّ، وكانت المؤامرة كلمته المفضلة". (على عكس ياروسلاف، لم يكن يتحدث جاسيك

* "سياسة الاستياء/ The Politics of Resentment": تسمّى أحياناً سياسة التظلم، هي شكل من أشكال السياسة التي تقوم على استياء مجموعة أخرى من الناس، مثل عدم ثقة الناخبين الريفيين بأنَّ السياسيين سيحترمون القيم المميزة لمجتمعاتهم ويخصصون لهم حصصاً عادلة من الموارد (تعليق المترجم).

معي، وأعطاني صديق مشترك ـ لدينا العديد ـ رقم هاتفه المحمول الخاص؛ قمت بإرسال رسالة نصيَّة، ثم اتصلت عدة مرَّات وتركت رسائل، اتصلت مرة أخرى وثرثر أحدهم حينما ذكرت اسمي، ردده بصوت عالٍ وقال: "طبعاً، طبعاً"، كان من المتوقع أن يردَّ رئيس التلفاز البولنديّ على مكالمتي، لكنَّه لم يفعل).

في النهاية، استقال ياروسلاف وانضمَّ إلى جريدة "غازيتا ويبورتشا/ Gazeta Wyborcza"، التي تأسَّست في زمن أوَّل انتخابات حرَّة ـجزئيَّاًـ في بولندا في عام ١٩٨٩، وأخبرني ياروسلاف أنَّه في بولندا الجديدة يمكنه المساعدة في بناء شيء ما، وإنشاء صحافة حرَّة، وكان ذلك كافياً بالنسبة له.

ذهب جاسيك في الاتجاه المعاكس تماماً، وقال لأخيه حينما علم أنَّ ياروسلاف قد استقال من العمل مع فاونسا: "أنت أحمق"، مع أنَّه كان ما يزال في المدرسة الثانوية، كان جاسيك مهتماً في ذلك الحين بمهنة سياسيَّة، واقترح حتى أنَّ يتولى وظيفة شقيقه، من دون أن يلحظ أحدٌ: "كان هناك جاريك، والآن يوجد جاسيك، مَن الذي سيعرف الفرق؟" كان جاسيك ـ حسب وصف أخيه ـ "مفتوناً" دوماً بالأخوة كاتشينسكي، اللذين كانا متآمرين ومخططين ومبتكرين للمؤامرات منذ البداية، في الوقت نفسه، لم يكن مهتماً بوجهٍ خاص بأفخاخ التيار المحافظ البولنديّ، في الكتب أو المناقشات التي فتنت شقيقه.

أخبرتني صديقة لكليهما أنَّها لا تعتقدُ أنَّ جاسيك لديه أيّ فلسفة سياسيَّة حقيقيَّة أبداً، "هل هو محافظ؟ لا أعتقدُ ذلك، على

الأقلّ ليس في التعريف الضيق لتيار المحافظين؛ إنَّه شخصٌ يريدُ أن يكون في القمة"؛ المكان الذي سعى إليه جاهداً منذ أواخر الثمانينيات.

إنَّ هذا النوع من المشاعر التي لا تحظى عادة باهتمام كبير من المنظرين السياسيين الكبار لعبت دوراً كبيراً فيما حدث بعد ذلك، وجاسيك كورسكي ليس ملتزماً راديكاليّاً وحيداً من النوع الذي وصفته حنة أرنت، ولا يجسد تفاهة الشر، أو بيروقراطياً يتبع الأوامر، لم يقل قط أيّ شيء مدروس أو مثير للاهتمام حول موضوع الديمقراطيَّة، وهو نظام سياسيّ لا يدعمه ولا يشجبه، ليس صاحب أيديولوجيَّة أو مؤمناً حقيقياً؛ إنَّه رجل يريد القوَّة والشهرة التي يشعر أنَّه حُرِم منها ظلماً، ولفهم جاسيك، عليك النظر إلى ما وراء كتب العلوم السياسيَّة ودراسة "الأبطال المخالفين للعرف" في الأدب، يمكنك إلقاء نظرة على "أياغو / Iago" لشكسبير، الذي استغل "عُطيل / Othello" من خلال اللعب على شعوره بانعدام الثقة والغيرة، ويمكنك دراسة "جوليان سوريل" لستندال*، الذي قتل عشيقته حينما وقفت في طريق تقدمه الشخصيّ.

يشكّلُ الاستياءُ والانتقامُ والحسد، وليس العزلة الراديكاليَّة، الستارةَ الخلفيَّة لما حدث بعد ذلك، فقد انقلب جاسيك في النهاية ضد فاونسا، ربما لأنَّ فاونسا لم يمنحه الوظيفة التي اعتقد أنَّه

* ستندال (بالفرنسية: Stendhal): الاسم المستعار لـ ماري هنري بيل Marie Henri Beyle (١٧٨٣-١٨٤٢)، روائيّ فرنسيّ من أبرز وجوه الأدب الفرنسيّ في القرن التاسع عشر، اشتهر ستندال بتحليله النقديّ لوعي الشخصيات، وهو أيضاً أحد رواد "الواقعيَّة"، وتتضمن بعض أعماله الواقعيَّة الأكثر شهرة "The Red and the Black" و"The Charterhouse of Parma"، وكلاهما كُتب في الأصل باللغة الفرنسيَّة وتُرجم إلى الإنكليزيَّة في وقت لاحق (تعليق المترجم).

يستحقها، ثم تزوج وطلق، ورفع دعوى قضائيَّة ضدّ صحيفة شقيقه عدَّة مرات، وعاودته الصحيفة برفع دعوى قضائيَّة ضده، شارك في تأليف كتاب ناري وصنع فيلماً تآمرياً حول القوات السريَّة التي اصطفت ضدّ اليمين البولنديّ، أعطاه كلا المشروعين طابعاً معيناً بين المجموعة التي شعرت مثله أنَّها مستبعدة بطريقة غير عادلة من السلطة في أوَّل خمسة وعشرين عاماً في بولندا ما بعد الشيوعيَّة.

كان جاسيك، في أوقات مختلفة، عضواً في أحزاب أو فصائل مختلفة أيضاً، وهامشيَّاً جداً أحياناً، وفي أحيان أخرى أكثر وسطيَّة، وعضواً في البرلمان لدورة واحدة، ولم يكن له أيّ أثر، وعضواً في البرلمان الأوروبيّ لدورة واحدة، ولم يترك أيّ أثر هناك أيضاً، تخصَّص جاسيك فيما يُسمَّى بالعلاقات العامَّة "السوداء"*، ومن المعروف أنَّه ساعد في نسف الحملة الرئاسيَّة لدونالد تاسك/ Donald Tusk (الذي أصبح ـ في نهاية المطاف ـ رئيس وزراء بولندا، ثم رئيساً للمجلس الأوروبيّ)، وذلك ـ جزئياً ـ من خلال نشر إشاعة أنَّ تاسك كان له جد انضمَّ طواعية إلى الجيش النازيّ، الفرماخت، وعند سؤال جاسيك عن هذا التلفيق أفيد أنَّه أبلغ مجموعةً صغيرةً من الصحفيين أنَّه لم يكن صحيحاً طبعاً، لكن "ciemny lud to kupi"، التي تعني، بترجمتها التقريبيَّة، "سيصدقها الفلاحون الجاهلون"، لقد وصفه بوغدان بوروسيفيتش/ Bogdan

* "العلاقات العامَّة السوداء" (BPR) أو العلاقات العامَّة السلبيَّة هي عمليَّة تدمير سمعة شخص ما وهويته المؤسَّسيَّة؛ أي تشويه سمعة شخص آخر (عادةً منافسيك في العمل) بدلاً من تركيز جهودك في إنشاء سمعة/ صورة إيجابيَّة لعملائك، هدفهم الرئيس هو العثور على كلّ الأسرار القذرة وتطوير صناعات مثل أمن تكنولوجيا المعلومات والتجسس الصناعيّ والذكاء التنافسيّ (تعليق المترجم).

Borusewicz، القائد الأسطوريّ لـ "حركة التضامن"، بـ "عديم الضمير".

لكن مع السنوات التي قضاها في الحياة العامَّة، لم يفز جاسيك بالإشادة الشعبيَّة التي كان يعتقد أنَّه يستحقها، بصفته ناشطاً سابقاً في سن المراهقة في "حركة التضامن، كانت ـ كما يعتقد شقيقه ـ خيبة أمل كبيرة: "طوال حياته، كان يعتقد أنَّه يستحق مهنة عظيمة... أنَّه سيكون رئيساً للوزراء، وأنَّه مقدر له أن يفعل شيئاً عظيماً، لكن القدر كان يملي عليه الفشل مراراً وتكراراً... وخلص إلى أنَّ ذلك كان ظلماً كبيراً"، على النقيض من ذلك، كان ياروسلاف ناجحاً، وعضواً في المؤسَّسة، ومحرراً لما يمكن القول إنَّها أكثر صحيفة ذات أهميَّة في البلاد.

في عام ٢٠١٥، أخرج ياروسلاف كاتشينسكي جاسيك من الغموض النسبيّ للسياسات الهامشيَّة وجعله مديراً للتلفاز الحكوميّ، ويبدو أنَّ هذه كانت فرصة جاسيك للتخلص من إحباطاته.

حاول أن تتخيل ما يمكن أن يحدث لـ "بي بي سي" إذا تم الاستيلاء عليها من قبل موقع المؤامرة "*InfoWars": سيعطيك ذلك فكرة تقريبيَّة عمَّا حدث للتلفاز البولندي/ Telewizja Polska، الإذاعة العامَّة في بولندا، مشغل العديد من القنوات الإذاعيَّة والمتلفزة وما زالت مصدر الأخبار الرئيس لجزء كبير من السكان،

* موقع "حرب المعلومات/ InfoWars": موقع إخباريّ مزيف يقدّمُ نظريَّة مؤامرة أمريكيَّة يمينيَّة متطرفة، تأسَّس هذا الموقع في عام ١٩٩٩ وهو مملوك لأليكس جونز (تعليق المترجم).

وكان تدمير جاسيك لوسائل الإعلام الحكوميَّة غير دستوري، فبعد عام ١٩٨٩، كان من المفترض أن يصبح التلفاز الحكوميّ تلفازاً عامًاً، محايداً سياسيّاً مثل الـ "بي بي سي"، لكنَّه كان مع ذلك عملاً شاملاً للغاية، كان عمل الرجل مدفوعاً بالحاجة إلى الانتقام.

طُرِد أشهر الصحفيين واستبدلوا أشخاصاً سبق لهم العمل في الصحافة اليمينيَّة المتطرفة بهم، على هامش الحياة العامَّة، وبسرعة كبيرة، توقَّفَ البثُّ الإخباريُّ عن التظاهر بالموضوعيَّة أو الحياد، وأنتجوا بدلاً من ذلك تقارير إخباريَّة ملتوية ونفذوا انتقادات واسعة النطاق ضدّ الأشخاص والمنظمات التي لا يحبّها الحزب الحاكم، كما اتضح أنَّ عمليَّات الثأر تلك لم تكن قبيحةً فحسب، بل كانت مميتة، ولشهور متتالية شنوا حملة شرسة ومتكررة ضدّ عمدة غدانسك الشعبي، بافل أداموفيتش / Paweł Adamowicz، واتهموه بكلّ شيء من الفساد إلى الخيانة، وكان أحدهم يستمع: في ١٣ كانون الثاني ٢٠١٩، قفز مجرم أُطلق سراحه مؤخراً، كان يشاهد التلفاز الحكومي في السجن، على خشبة المسرح في ذروة حفل خيريّ وغرز سكيناً في صدر أداموفيتش؛ توفي العمدة في اليوم التالي.

لم يعترف أيّ من كورسكي ولا كاتشينسكي بالدور الذي لعبته القناة في تطرف القاتل، بل على العكس من ذلك: بدلاً من الاعتذار، وجَّهَتْ شبكةُ التلفاز البولنديّ سمَّها على الآخرين، وكان من بينهم عمدة غدانسك الجديد، ألكسندرا دولكيفيتش / Alexandra Dulkiewicz، الذي يحتاج الآن إلى حارس شخصيّ، كما تلقى

عمدة بوزنان، إلى جانب العديد من رؤساء البلديَّات الآخرين، تهديدات بالقتل أيضاً، لقد كسرت المحرمات ضدّ العنف السياسيّ في بولندا، ولا أحد متأكد من قد يكون الضحية التالية.

مع ذلك لا يوجد عودة إلى الوراء، ولا اعتراف بأنَّ قرعَ طبولِ الكراهية المستمر قد يؤدي إلى اغتيال آخر، وإنَّ القناة لا تتشدق بالعدالة، ولا توظف أيّ معلقين محايدين، بل على العكس من ذلك، فهي تحتفلُ بقدرتها على التلاعب بالحقيقة.

في وقت ما في عام ٢٠١٨، عرضت المحطة مقطعاً من مؤتمر صحفي، سُئل زعيمُ الحزبِ المعارض آنذاك، جرزيغورز شيتينا/ Grzegorz Schetyna عمَّا حقَّقه حزبه خلال ثماني سنوات قضاها في الحكومة، من ٢٠٠٧ إلى ٢٠١٥، يُظهر المقطع شيتينا متجهّم الوجه وبحالة توقف مؤقت، يتباطأ الفيديو ثم ينتهي، فيبدو كأنَّه ليس لديه ما يقوله.

أمّا في الواقع، فتحدث شيتينا لعدة دقائق حول تشييد الطرق على نطاق واسع، والاستثمارات في الريف، وما أحرز من تقدم في السياسة الخارجيَّة، لكن ينظر إلى هذا المقطع الذي تم التلاعب به ـ أحد الأمثلة العديدة ـ بوصفه نجاحاً كبيراً، حيث ظلَّ لعدة أيام مثبتاً في الجزء العلوي من موجز حساب التلفاز البولندي على "تويتر"، وفي ظل حكم "العدالة والقانون"، لا ينتج التلفاز الحكومي بروباجندا النظام فقط؛ إذ يلفت الانتباه إلى حقيقة أنَّه يفعل ذلك حقاً، لا يحرف المعلومات ويشوهها فحسب، بل يتفاخر بالاحتيال أيضاً.

جاسيك ـ الذي جُرد من التقدير والاحترام لسنوات عديدة ـ انتقم أخيراً، فحتى بعد أن تنحى رسمياً عن منصب مدير التلفاز ـ بدأ يتجاوز الحدود بالنسبة للبعض داخل حزبه ـ ما يزال في المكان الذي يعتقد أنَّه يجب أن يكون فيه: في مركز الاهتمام، إلقاء الراديكاليين قنابل المولوتوف على الحشد.

لقد تغلب الآن على إحباطه الناجم عن عدم قدرته على التقدم في نظام سياسيّ يفضل العقلانيَّة والكفاءة، دولة الحزب الواحد غير الليبراليَّة تناسبه تماماً، وكلما أصبح الأمر قبيحاً زاد الخوف الذي يلهمه، وزادت قوته، لم تعد الشيوعيَّةُ متاحةً بعد الآن بوصفها عدواً للقتال، لكن يمكن العثور على أعداء جدد، وانتصاره عليهم سيجعله أعظم.

***

من أورويل إلى كويستلر، كان الكتّاب الأوروبيون في القرن العشرين مهووسين بفكرة الكذبة الكبرى* وهي التراكيب الأيديولوجيَّة الواسعة التي كانت شيوعيَّة وفاشية.

إنَّ الملصقات التي تطالب بالولاء للحزب أو القائد، والقمصان البنية والسوداء** التي تسير في تشكيل، والمسيرات التي أضاءت

---

* "الكذبة الكبرى/ big lie": تشويه شديد للحقيقة، وتستخدم لغرض نشر الدعاية، حيث يمكن أن يصدق الناس بسهولة كذبة كبيرة أكثر من الكذبة الصغيرة؛ لأنَّ معظم الناس يفترضون أنَّ هناك دليلاً يدعم أيّ بيان كبير الحجم، صاغ هذا المصطلح أدولف هتلر في سيرته الذاتيَّة، "كفاحي"، حيث كتب هتلر أنَّ: "جماهير الشعب الغفيرة... ستقع ضحية لكذبة كبيرة بسهولة أكبر من كذبة صغيرة" (تعليق المترجم).

** كانت القمصان السوداء لقباً لمجموعات موسوليني شبه العسكريَّة، وكذلك لأوزوالد

الشعلة، وشرطة مكافحة الإرهاب، كانت المظاهرات القسريَّة لدعم الأكاذيب الكبيرة سخيفة وغير إنسانيَّة لدرجة أنَّها تطلبت عنفاً طويل الأمد لفرضها والتهديد بالعنف للحفاظ عليها، وتطلعوا إلى تعليم إلزاميّ والسيطرة الكاملة على كلّ الثقافة وتسييس الصّحافة والرياضة والأدب والفنون.

على النقيض من ذلك، فإنَّ الحركاتِ السياسيَّة المستقطبة في أوروبا القرن الحادي والعشرين تطلب القليل من أتباعها؛ إنَّهم لا يتبنون أيديولوجية كاملة، وبذلك لا يحتاجون إلى شرطة مكافحة الإرهاب أو العنف، يريدون من كتبتهم أن يدافعوا عنهم، لكنَّهم لا يجبرونهم على القول إنَّ الأسود هو الأبيض، وإنَّ الحرب هي سلام، وإنَّ مزارع الدولة قد حقَّقت ١٠٠٠ بالمائة من الإنتاج المخطط لها، ولا ينشر معظمهم بروباجندا تتعارضُ مع الواقع اليوميّ، مع ذلك، يستندون جميعهم إذن ـ إن لم يكن على كذبة كبيرة ـ إلى ما قال لي المؤرخ تيموثي سنايدر/ Timothy Snyder ذات مرة إنَّه ينبغي أن يطلقَ عليه "الكذبة متوسطة الحجم"؛ بعبارة أخرى، يشجع كل منهم أتباعه على الانخراط ـ لبعض من الوقت على الأقل ـ في واقع بديل، ويكون هذا الواقع البديل ـ أحياناً ـ قد تطور تطوراً عضوياً، وفي معظم الأحيان، يصاغ بعناية بمساعدة تقنيات التسويق الحديثة وتقسيم الجمهور وحملات الوسائط

موزلي، كما استخدم المصطلح بوجه عام كلقب للفاشيين، وكانت القمصان البنية عبارة عن مجموعات شبه عسكريَّة تابعة لهتلر، وقد برزت في المسيرات والتجمعات المنظمة، حيث أدَّى ترهيبهم العنيف للخصوم السياسيين واليهود دوراً رئيساً في صعود هتلر إلى السلطة (تعليق المترجم).

الاجتماعيَّة.

إنَّ الأميركيين على دراية طبعاً بالطرق التي يمكن أن تؤدي بها الكذبة إلى زيادة الاستقطاب وتأجيج كراهية الأجانب، فقبل مدَّة طويلة من ترشحه لمنصب الرئيس، دخل دونالد ترامب السياسة الأمريكيَّة للترويج لحركة "بلد الولادة"*، وهي فرضيَّة خاطئة مفادها أنَّ الرئيس باراك أوباما لم يولد في أمريكا؛ نظريَّة مؤامرة تمَّ التقليل من قوتها بجدّيَّة في ذلك الوقت، لكن لدينا الآن في دولتين أوروبيتين على الأقل، بولندا والمجر، أمثلة على ما يحدث حينما تنشر كذبة متوسطة الحجم ـ نظريَّة مؤامرة ـ أولاً من قبل حزب سياسيّ على أنَّها الدعامة المركزيَّة لحملته الانتخابيَّة، ثم من قبل حزب حاكم بكامل قوة جهاز دولة مركزيّ حديث وراءه.

في المجر، الكذبة غير أصليَّة: إنَّها التصديق والاعتقاد، الذي تروّجُ له الآن الحكومةُ الروسيَّةُ والعديد من الآخرين في القوى الخارقة لجورج سوروس/ George Soros، الملياردير اليهودي المجري الذي يُزعم أنَّه يخططُ لتدمير المجر من خلال الاستقدام المتعمد للمهاجرين.

إنَّ هذه النظريَّة، مثل العديد من نظريَّات المؤامرة الناجحة، مستندة إلى مثقال ذرة من الحقيقة: اقترح سوروس ذات مرة أنَّ أوروبا الثريَّة قد تقدّم لفتة إنسانيَّة وتقبل المزيد من السوريين؛ من

* "بلد الولادة/ Birtherism": حركة في الولايات المتحدة الأمريكيَّة تشكك أو تنكر أنَّ الرئيس الرابع والأربعين، باراك أوباما، هو مواطن أمريكيّ بالمولد، ممَّا يعني أنَّه غير مؤهل ليكون رئيساً (تعليق المترجم).

أجل مساعدة الدول الأفقر في الشرق الأوسط على التعامل مع أزمة اللاجئين، لكن البروباجندا في المجر، وعلى عدد لا يحصى من مواقع الويب الأوروبيَّة والأمريكيَّة اليمينيَّة المتطرفة، والقائلة بتفوق أو سيادة البيض، والمواقع "الهوياتية"*، تتجاوز ذلك بكثير، وتشير إلى أنَّ سوروس هو المحرّض الرئيس على مؤامرة يهوديَّة متعمدة لاستبدال مسلمين ذوي بشرة سمراء بالأوروبيين المسيحيين والبيض، والمجَريين على وجه الخصوص.

إنَّ هذه الحركات لا تنظر إلى المهاجرين على أنَّهم عبء اقتصاديّ أو حتى تهديد إرهابيّ، بل يمثلون تحدياً وجودياً للأمَّة نفسها، ووضعت الحكومة المجريَّة في أوقات مختلفة وجه سوروس على الملصقات، وعلى أرضيَّات قطارات الأنفاق، وعلى المنشورات، على أمل أن يخيف ذلك المجريين لدعم الحكومة.

في بولندا، تعدّ الكذبة ـعلى الأقل ـ أمراً فريداً من نوعه؛ هي نظريَّة مؤامرة سمولينسك، التي استحوذت على صديقتنا القديمة أنيتا غارغاس والعديد من الآخرين: الاعتقاد بأنَّ مؤامرة شنيعة أسقطت طائرة الرئيس في نيسان ٢٠١٠، وللقصة قوَّة خاصة في بولندا لأنَّ تحطم الطائرة كان له أصداء تاريخيَّة مخيفة.

كان الرئيس الذي توفي، ليخ كاتشينسكي، في طريقه لحضور

---

* "الهوياتية/ Identitarian": هي حركة يمينيَّة متطرفة تدعم المصالح السياسيَّة لمجموعة عرقيَّة أو إثنيَّة أو قوميَّة معينة، وتتكون من الأوروبيين أو البيض عادة، وتؤكّدُ حق الجماعات العرقيَّة الأوروبيَّة والشعوب البيضاء في الثقافة الغربيَّة والأراضي التي يُزعم أنَّها تنتمي إليها حصريّاً، ويتبنى بعضهم صراحة أفكار كراهية الأجانب والعنصريَّة، لكن معظمهم يختصر التصريحات العامَّة على لغة أكثر طواعية، ويعارضون بشدة الاختلاط الثقافيّ، فهم يروجون للحفاظ على الكيانات العرقيَّة والثقافيَّة المتجانسة (تعليق المترجم).

مناسبة إحياء ذكرى "مذابح كاتيو"، وهي سلسلة من جرائم القتل الجماعيّ التي وقعت في عام ١٩٤٠، عندما ذبح ستالين أكثر من واحد وعشرين ألف ضابط بولندي؛ اعتداء متعمد على ما كان يعدّ النخبة في البلاد آنذاك، وكان العشرات من كبار الشخصيَّات العسكريَّة والسياسيين على متن السفينة، والعديد منهم من أصدقائي، وكان زوجي يعرف كلَّ شخص على متن الطائرة تقريباً، بما في ذلك المضيفات.

أعقبت تلك الحادثة موجة كبيرة من العاطفة؛ نوع من الهستيريا، شيء مثل الجنون الذي ساد في الولايات المتحدة بعد أحداث ١١ أيلول؛ اجتاح الأمَّة، كان مذيعو التلفاز يرتدون ربطات الحداد السَّوداء، واجتمع الأصدقاء في شقتنا في وارسو للتحدث عن التاريخ الذي يعيد نفسه في تلك الغابة الروسيَّة المظلمة والرطبة، كانت ذكرياتي عن الأيام التي تلت ذلك مختلطة وفوضويَّة، أتذكر أنَّني ذاهبة لشراء بدلة سوداء لأرتديها في مراسم التأبين، وأتذكر إحدى الأرامل، التي كانت ضعيفة لدرجة أنَّها بدت بالكاد قادرة على الوقوف، تبكي في جنازة زوجها، أمَّا زوجي، الذي رفض دعوة للسفر مع الرئيس في تلك الرحلة، فكان يخرج إلى المطار كل مساء لإلقاء التحية أثناء إحضار التوابيت إلى الوطن.

بدت المأساةُ في البداية كأنَّها توحّد الناس، ولكن في نهاية الأمر كان على متن الطائرة سياسيون من كلّ حزب رئيس، وأقيمت الجنازات في جميع أنحاء البلاد، حتى فلاديمير بوتين، رئيس الوزراء الروسي آنذاك، بدا متأثراً، إذ ذهب إلى سمولينسك للقاء

تاسك، رئيس الوزراء البولندي وقتذاك، مساء تحطم الطائرة، وفي اليوم التالي، قامت إحدى قنوات التلفزة الروسيَّة الأكثر مشاهدة ببث فيلم "كاتيو"، وهو فيلم بولندي عاطفي ومعادي للسُّوفيات، من إخراج أندريه فايدا/ Andrzej Wajda، أعظم مخرج في بولندا، لم يُعرض شيء مثل ذلك على نطاق واسع في روسيا، لا من قبله ولا من بعده.

لكن لم تقرب حادثة التحطم الناس من بعضهم البعض، ولا التحقيق في أسبابها.

كانت فرق الخبراء البولنديين على الأرض في نفس اليوم، لقد بذلوا قصارى جهدهم للتعرف على الجثث، قاموا بفحص الحطام، وبمجرد العثور على الصندوق الأسود، بدأوا في نسخ شريط قمرة القيادة؛ إنَّ الحقيقة، كما بدأت بالظهور، لم تكن تضفي شعوراً من الراحة لـ "العدالة والقانون" أو زعيمه، الشقيق التوأم للرئيس المتوفى، وكانت الطائرة قد أقلعت في وقت متأخر، ومن المحتمل أن يكون الرئيس في عجلة من أمره للهبوط؛ لأنَّه أراد استخدام الرحلة لإطلاق حملة إعادة انتخابه، ربما كان متأخراً وشرب في الليلة السابقة، حينما اقترب الطيارون من سمولينسك، التي لم يكن بها مطار حقيقيّ، مجرد مدرج هبوط في الغابة، علموا أنَّ هناك ضباباً كثيفاً، وفكروا في تحويل مسار الطائرة، الأمر الذي كان سيعني القيادة لعدة ساعات إلى الحفل المراسمي، بعد أن أجرى الرئيس مكالمة هاتفيَّة قصيرة مع شقيقه، ضغط مستشاروه على ما يبدو على الطيارين للهبوط، ودخل بعض المستشارين ـ خلافاً للبروتوكول ـ

وخرجوا من قمرة القيادة أثناء الرحلة، وخلافاً للبروتوكول أيضاً جاء قائد سلاح الجو وجلس بجانب الطيارين، قال: "ستفعلها، كن جريئاً/ Zmieścisz się śmiało"، بعد ثوان، اصطدمت الطائرة بأعلى بعض أشجار البتولا، وتدحرجت، ثم اصطدمت بالأرض.

أسَاساً، يبدو أنَّ ياروسلاف كاتشينسكي اعتقد أنَّ تحطّم الطّائرة كان حادثاً، قال لزوجي، الذي كان لديه مهمَّة مروعة لإبلاغه بالحادثة: "هذا خطؤك وخطأ الصحف"، قصد بذلك أنّه كان خطأ الحكومة لرفضها شراء طائرات جديدة بعد أن أرهبتها الصّحافة الشعبيَّة، لكن مع فتح التحقيق، لم تكن نتائجه ترضيه؛ إذ لم يكن هناك من عيب في الطائرة.

ربما، مثل الكثير من الأشخاص الذين يعتمدون على نظريَّات المؤامرة لفهم المآسي العشوائيَّة، لم يستطع كاتشينسكي ببساطة قبول وفاة شقيقه الحبيب هباء؛ ربما لم يستطع قبول الحقيقة الأكثر صعوبة، وهي أنَّ الأدلة تشير إلى أنَّ الرئيس وفريقه، وربما ذلك حتى مستوحى من تلك المكالمة الهاتفيَّة، قد ضغطوا على الطيارين للهبوط، وبالتالي بدء سلسلة الأحداث التي أدَّت إلى تحطّم الطّائرة، لعلَّه شعر بالذنب ـ كانت الرحلة فكرته ـ أو الندم، أو ربّما رأى، مثل: دونالد ترامب، كيف يمكن لنظريَّة المؤامرة أن تساعده في بلوغ السلطة؟

بقدر ما استخدم ترامب "بلد الولادة" لإثارة الشكوك حول "المؤسَّسة" حتى قبل أن يصبحَ مرشحاً، استخدم كاتشينسكي مأساة

سمولينسك لحشد أتباعه؛ للوصول إلى مؤيدين جدد في اليمين المتطرف، لإقناعهم بعدم الثقة بالحكومة أو وسائل الإعلام، وكان يلمح في بعض الأحيان إلى أنَّ الحكومة الروسيَّة أسقطت الطائرة، وفي أحيان أخرى ألقى باللوم في وفاة شقيقه على الحزب الحاكم السابق، هو الآن أكبر حزب معارض، إذ صرخ ذات مرة في البرلمان: "لقد دمرتموه، قتلتموه، أنتم حثالة".

لم يكن أيّ من اتهاماته صحيحاً، ويبدو أنَّه يعرف ذلك إلى حدّ ما، ربَّما لكي ينأى بعض الشيء عن الأكاذيب التي يجب روايتها، فقد أعطى مهمَّة الترويج لنظريَّة المؤامرة لواحد من أقدم رفاقه وأقلّهم شهرة؛ أنتوني ماشيريفيتش/ Antoni Macierewicz، الذي ينتمي إلى جيل كاتشينسكي، وهو مناهضٌ للشيوعيَّةِ منذ مدَّة طويلة، مع أنَّه يتمتع ببعض الصلات الروسيَّة الغريبة والعادات الغريبة، حتى أنَّ سلوكه السريّ وهواجسه الشخصيَّة ـ قال: إنَّه يرى أنَّ "بروتوكولات حكماء صهيون" وثيقة معقولة ـ دفعت حزب "العدالة والقانون" إلى تقديم وعد انتخابي في عام ٢٠١٥: لن يكون ماشيريفيتش وزير الدفاع قطعاً.

لكن بمجرد فوز الحزب، حنث كاتشينسكي بوعده، وعيَّن أنتوني ماشيريفيتش لذلك المنصب تحديداً، وبدأ ماشيريفيتش في إضفاء الطابع المؤسَّسي على كذبة سمولينسك مباشرةً؛ أنشأ لجنة تحقيق جديدة مؤلفة من مهووسين، من بينهم متخصص في علم الموسيقا العرقيَّة، وطيار متقاعد، وطبيب نفسيّ، وخبير اقتصاديّ روسيّ، وأشخاص آخرون ليس لديهم خبرة في حوادث الطيران.

تمت إزالة التقرير الرسميّ السابق من موقع إلكترونيّ حكوميّ، ودخلت الشرطة منازل خبراء الطيران الذين شهدوا خلال التحقيق الأصلي، واستجوبتهم وصادرت أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم، وعندما ذهب ماشيريفيتش إلى العاصمة واشنطن للقاء نظرائه الأمريكيين في البنتاغون، كان أوّل شيء فعله هو السؤال عمّا إذا كان لدى المخابرات الأمريكيَّة أيّ معلومات سريَّة عن سمولينسك، وكان رد الفعل انتشار قلق واسع إزاء الحالة العقليَّة للوزير.

حينما بدأت المؤسَّسات الأوروبيَّة وجماعات حقوق الإنسان، بعد بضعة أسابيع من الانتخابات، في الاستجابة لإجراءات حكومة "العدالة والقانون"، ركزت على تقويض المحاكم ووسائل الإعلام العامَّة، لم يركزوا على إضفاء الطابع المؤسَّسي على نظريَّة مؤامرة سمولينسك، والتي كانت ـبصراحةـ غريبة جداً بحيث يتعذر على الغرباء فهمها، مع ذلك، فإنَّ قرار وضع نوع من الخيال في قلب سياسة الحكومة قد ألهم كثيراً ممن تبعها.

على الرغم من أنَّ لجنة ماشيريفيتش لم تقدم أبداً تفسيراً بديلاً موثوقاً للانهيار، إلا أنَّ كذبة سمولينسك أرست الأساسَ الأخلاقيَّ لأكاذيب أخرى، ويمكن لأولئك الذين بمقدورهم قبول هذه النظريَّة المعقدة قبول أيّ شيء، يمكنهم قبول الوعد المنكوث بعدم وضع ماشيريفيتش في الحكومة، وأن يقبلوا ـ مع أنَّ "العدالة والقانون" يفترض أنَّه حزب "وطنيّ" ومعاد لروسيا ـ قرارات ماشيريفيتش بإقالة العديد من كبار القادة العسكريين في البلاد؛ لإلغاء عقود الأسلحة وترقية الأشخاص الذين لديهم روابط

روسيَّة، ومداهمة منشأة تابعة لحلف شمال الأطلسي في وارسو في منتصف الليل، كما أعطت الكذبة لجنود اليمين المتطرف أساساً أيديولوجياً للتسامح مع المخالفات الأخرى، مهما كانت الأخطاء التي قد يرتكبها الحزب، ومهما كانت القوانين التي قد يخرقها، فسيتم إخبار "حقيقة" حول سمولينسك على الأقل في النهاية.

كان لنظريَّة مؤامرة سمولينسك غرضاً آخر أيضاً: بالنسبة لجيل الشباب الذي لم يعد يتذكر الشيوعيَّة، وبالنسبة لمجتمع اختفى فيه الشيوعيون السابقون إلى حدّ كبير من السياسة، فقد قدَّمت سبباً جديداً لعدم الثقة بالسياسيين ورجال الأعمال والمفكرين الذين خرجوا من نضالات التسعينيات ويقودون البلاد الآن، والأكثر أهميَّة من ذلك أنَّها قدَّمت وسيلة لتحديد نخبة أفضل وجديدة، لم تكن هناك حاجة للمنافسة أو للاختبارات أو لسيرة ذاتية مليئة بالإنجازات، أيّ شخص يصرح بالاعتقاد بكذبة سمولينسك هو بحكم التعريف وطنيّ حقيقيّ، وبذلك فهو مؤهل لوظيفة حكوميَّة، وبولندا ـطبعاًـ ليست البلد الوحيد الذي تعمل فيه هذه الآليَّة البسيطة.

***

تكمنُ الجاذبيَّةُ العاطفيَّةُ لنظريَّة المؤامرة في بساطتها، فهي تشرح الظواهر المعقدة، وتأخذ في الحسبان الصدفة والحوادث، وتمنح للمؤمن إحساساً مُرضياً بوجود وصول خاص ومميز إلى الحقيقة، وبالنسبة لأولئك الذين يصبحون حراس بوابات لدولة

الحزب الواحد، فإنَّ تكرار نظريَّات المؤامرة يجلب مكافأة أخرى أيضاً: القوَّة.

لم تكن ماريا شميت/ Mária Schmidt في حفلتي لليلة رأس السنة، لكنَّني أعرفها منذ ذلك الوقت تقريباً، هي مؤرّخةٌ، ومؤلفة بعض الأعمال القيمة عن الستالينيَّة المجريَّة، وقدَّمت لي قدراً كبيراً من المساعدة عندما كنت أكتب بنفسي عن الستالينيَّة المجريَّة، التقينا لأوَّل مرة في عام ٢٠٠٢، عندما دعتني إلى افتتاح "تيرور هازا/ Terror Háza" ـ متحف بيت الرعب ـ في بودابست، والذي منحني ذات مرة جائزة، يستكشف المتحف، الذي ما تزال تديره، تاريخ السلطويَّة في المجر، وكان أحد أكثر المتاحف ابتكاراً في النصف الشرقيّ من أوروبا عند افتتاحه.

منذ يومه الأوَّل، تعرَّضَ المتحفُ أيضاً لنقاد لاذعين؛ إذ لم تعجب الغرفة الأولى الكثير من الزوار، التي تحتوي على لوحة متلفزة على أحد الجدران تبث البروباجندا النازيَّة، ولوحة متلفزة على الحائط المقابل تبث البروباجندا الشيوعيَّة، وكانت المقارنة بين النظامين ما تزال تشكل صدمة في عام ٢٠٠٢، على الرغم من أنَّها ربَّما تكون أقلّ من ذلك الآن.

شعر آخرون أنَّ المتحف لم يمنح وزناً ومساحة كافية لجرائم الفاشية، على الرغم من أنَّ الشيوعيين أداروا المجر لمدّ أطول بكثير ممَّا فعل الفاشيون، لذلك يوجد المزيد لإظهاره، أعجبتني حقيقة أنَّ المتحف كان يسعى للوصول إلى الشباب من خلال معروضاته المرئيَّة والمسموعة، واستخدامه الذكي للتحف، ولقد

أحببتُ حقيقة أنَّ المتحف أظهر أنَّ المجريين العاديين يتعاونون مع كلا النظامين، وهو ما اعتقدت أنَّه قد يساعد أحفادهم على فهم أنَّ بلدهم ـ مثل كل بلد ـ يجبُ أن يتحملَ المسؤوليَّة عن سياساته الخاصَّة وتاريخه الخاص، وتجنب الفخ القوميّ الضيق المتمثل في إلقاء اللوم على الدخلاء، لكن ذلك بالضبط الفخ القوميّ الضيق الذي سقطت فيه المجر الآن.

إنَّ تصفيةَ حسابِ المجر المتأخر لماضيها الشيوعيّ ـ إنشاء المتاحف، وإقامة الشعائر التذكاريَّة، وتحديد أسماء الجناة ـ لم يساعد، كما اعتقدت، على ترسيخ احترام سيادة القانون، بل على العكس من ذلك، فبعد ستة عشر عاماً من افتتاح "تيرور هازا"، لا يحترم الحزب الحاكم في المجر أيّ قيود من أيّ نوع، لقد ذهب إلى أبعد من "العدالة والقانون" في تسييس وسائل الإعلام الحكوميَّة وتدمير وسائل الإعلام الخاصَّة، وتحقيق ذلك من خلال توجيه التهديدات، ومنع الوصول إلى الإعلانات، ثم تشجيع رجال الأعمال المؤيدين على شراء العقارات الإعلاميَّة التي أضعفتها المضايقات وفقدان الإيرادات، وقد أنشأت الحكومة المجريَّة، مثل الحكومة الروسيَّة، أيضاً نخبة تجاريَّة جديدة موالية لفيكتور أوربان، بالإضافة إلى مجموعة من الأيديولوجيين، والتي تستفيد منها وفقاً لذلك.

أخبرني أحدُ رجال الأعمال المجريين الذي فضل عدم ذكر اسمه أنَّه بعد فترة وجيزة من تولي أوربان الحكومة لأوَّل مرة، طالب رجالُ النظامِ رجلَ الأعمالِ ببيعهم شركتَهُ بسعرٍ منخفض،

وعندما رفض، رتبوا لإجراء "فحص ضريبي" وأشكال أخرى من المضايقات، فضلاً عن حملة ترهيب أجبرته على توظيف حراس شخصيين، لكن في نهاية المطاف، مثل كثيرين آخرين في الوضع ذاته، باع ممتلكاته المجريَّة وغادر البلاد.

تروج الدولة المجريَّة، مثل الحكومة البولنديَّة، لكذبة متوسطة الحجم: إنَّها تضخ بروباجندا تلقي باللوم على مشاكل المجز ـ بما في ذلك فيروس كورونا، الذي لم تكن مستشفيات البلاد مجهزة لمكافحته ـ على المهاجرين المسلمين غير الموجودين، والاتحاد الأوروبيّ، ومرة أخرى، جورج سوروس.

كانت شميت ـ مؤرخة وباحثة وأمينة متحف ـ واحدة من المؤلفين الأساسيين لهذه الكذبة، على الرغم من إنجازاتها الفكريَّة ومؤهلاتها في المعارضة، وهي تنشر دورياً تدوينات طويلة وشاجبة تنتقد سوروس، وضد الجامعة الأوروبيَّة المركزيَّة (CEU)، التي تأسَّست في الأصل بأمواله؛ وضدّ "المثقفين اليساريين"، ويبدو أنَّها تعني في الغالب الديمقراطيين الليبراليين، من يسار الوسط إلى يمين الوسط.

إنَّ المفارقاتِ والتناقضاتِ في قصة حياتها كثيرة، فقد كانت شميت نفسها عضواً في المعارضة المناهضة للشيوعيَّة، وإن لم تكن بارزة، لقد أخبرتني ذات مرة قصة كيف كان جميع معارضي الشيوعيَّة، في سنوات دراستها الجامعيَّة، يعملون في نفس مكتبة بودابست، وقد يعطي شخص ما عند نقطة معينة إشارة ويقومون جميعاً ويلتقون لتناول القهوة.

بعد عام ١٩٨٩، أصبحت المستفيد الرئيس من المرحلة الانتقاليَّة السياسيَّة في المجر، فقد جمع زوجها الراحل ثروة في سوق العقارات ما بعد الشيوعيَّة، بفضل ذلك تعيش في منزل رائع في تلال بودا، ومع أنَّها قادت حملةً دعائيَّةً تهدفُ إلى تقويض الجامعة الأوروبيَّة المركزيَّة التي أسَّسها سوروس، إلا أنَّ ابنها هو أحد خريجيها، ومع أنَّها تعرف جيداً ما حدث في بلدها في الأربعينيات من القرن الماضي، فقد اتبعت، خطوة بخطوة، استراتيجيَّات الحزب الشيوعيّ عندما استحوذت على "مجلة فيجيلو / Figyelő"، وهي مجلة مجريَّة كانت تحظى باحترام كبير: لقد غيرت المحررين، وطردت المراسلين المستقلين، واستبدلت كتاباً مؤيدين وموالين للحكومة على نحوٍ موثوق بهم.

ظلت فيجيلو "ملكيَّة خاصة"، وبذلك أصبحت مستقلة تقنيّاً، لكن لم يكن من الصعب منذ البداية معرفة من يدعم المجلة، فقد تضمن إصدار يظهر هجوماً على المنظمات غير الحكوميَّة المجريَّة ـ كان غلاف المجلة يربطها بصرياً مع الدولة الإسلاميَّة ـ اثنتي عشرة صفحة من الإعلانات المدفوعة من الحكومة أيضاً، للبنك الوطني المجري، والخزانة، والحملة الرسميَّة المعادية لسوروس التي تمولها الحكومة؛ إنَّها إعادةُ ابتكار حديثة للصّحافة الموالية للحكومة، ودولة الحزب الواحد، مع استكمال نفس اللهجة الساخرة التي استخدمتها المطبوعات الشيوعيَّة ذات يوم، وهي نسخة مجريَّة من التلفاز الحكوميّ البولندي لجاسيك كورسكي: ساخِرة، مبتذلة، مُعيبة.

في نيسان ٢٠١٨، قامت بطباعة قائمة بمن يسمون بـ "مرتزقة سوروس"، "الخونة" الذين عملوا في المنظمات التي تلقت تبرعات سوروس، ممَّا جعلهم عرضة للازدراء والهجوم، وفي كانون الأول (ديسمبر) من نفس العام، وضعت المجلة أندراس هايسلر/ András Heisler، زعيم الجالية اليهوديَّة المجريَّة، على الغلاف مع أوراق نقديَّة ـ أوراق نقديَّة مجريَّة فئة عشرين ألف فورنت ـ تطفو حول صورته وفوقها.

وافقت شميت على التحدث معي ـ بعد أن وصفتني بـ "المتغطرسة والجاهلة" ـ بشرط أن أستمع إلى اعتراضاتها على مقال كتبته عن المجر وأمور أخرى لصحيفة واشنطن بوست، وسافرت إلى بودابست مع أنَّ هذه الدعوة غير واعدة، حيث تبين استحالة المحادثة الصادقة التي كنتُ آملها، تتحدث شميت الإنجليزيَّة بطلاقة، لكنَّها أخبرتني أنَّها تريد الاستعانة بمترجم، فبحثت عن شاب مذعور المظهر، فاته بعض ما قالته بالحكم بناء على السِّجل المدوّن، ومع أنَّها تعرفني منذ ما يقرب من عقدين من الزمن، إلا أنَّها وضعت جهاز تسجيل على المنضدة؛ أعتقد أنَّه علامة على عدم الثقة، ثم شرعت شميت في تكرار نفس الحجج التي ظهرت في مقالات مدونتها، واستشهدت بحلقة من برنامج "ساترداي نايت لايف/ Saturday Night Live" بوصفها دليلاً رئيساً على أنَّ جورج سوروس "يمتلك" الحزب الديمقراطيّ في الولايات المتحدة، واستشهدت بخطاب ألقاه باراك أوباما انتقد فيه مؤسَّسة مجريَّة لاقتراحها بناء تمثال على شرف بالينت هومان/

Bálint Hóman، الرجل، الذي كتب قوانين المجر المعادية لليهود في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، كدليل على أنَّ الولايات المتحدة "قوَّة استعماريَّة أيديولوجيَّة متشدّدة".

لقد كررت ادعاءها بأنَّ الهجرة تشكل تهديداً خطيراً على المجر، وانزعجت عندما سألت عدة مرات عن مكان وجود جميع المهاجرين، حتى فقدت أعصابها أخيراً: "إنَّهم في ألمانيا"، نعم بلا شك: هؤلاء القلة من المهاجرين الشرق أوسطيين الذين تمكنوا من دخول المجر في عام ٢٠١٦ لم يكن لديهم رغبة في البقاء؛ إنَّ الهجرة مشكلة خياليَّة في المجر، وليست مشكلة حقيقيَّة.

شميت حساسة وغاضبة: تقول إنَّها تشعر بالاستهانة بها، ولم يقتصر ذلك عليّ فقط، حيث وصف الكاتب إيفان كراستيف/ Ivan Krastev مؤخراً ذلك المزاج، والذي قارنه بعقليَّة "ما بعد الاستعمار".

يجد بعض الناس، غير متأثرين (أو غير مهتمين) بالقيم العالميَّة التي تقوم عليها الديمقراطيَّة، لاسيّما المثقفين البارعين مثل: شميت، أنَّه من المهين الآن أن يكونوا مقلدين للمشروع الديمقراطيّ الغربي بدلاً من كونهم مبتكرين لشيء أصليّ.

في حديثها معي، استخدمت شميت هذه اللغة تحديداً، قالت لي: إنَّ وسائلَ الإعلامِ الغربيَّة والدبلوماسيين الغربيين "يتحدثون من أعلى إلى من هم في الأسفل مثلما كان الحال مع المستعمرات"، وعندما تسمع شميت حديثاً عن معاداة السامية والفساد والسلطويَّة، فإنَّها تتفاعل غريزياً بنسخة من "هذا ليس من شأنك".

مع ذلك فإنَّ شميت، التي تقضي الكثير من الوقت في انتقاد الديمقراطيَّة الغربيَّة، لا تقدم شيئاً أفضل أو مختلفاً مكانها، وعلى الرغم من تكريسها لتفرد المجر وقيمة "أن تكون مجرياً"، إلا أنَّها جذبت الكثير من أيديولوجيتها غير الأصليَّة بعمق من أخبار "شبكة برايتبارت/ Breitbart"، وصولاً إلى الوصف الكاريكاتوريّ للجامعات الأمريكيَّة والنكات الساخرة عن "حمامات المتحولين جنسياً"، مع ذلك لا توجد ثقافة متبقية في المجر يمكن الحديث عنها، وعلى أيّ حال، فإنّ أوربان، الذي وضع أكاديميَّة العلوم المجريَّة تحت سيطرة الحكومة المباشرة، أرعب الأكاديميين لدرجةِ الصمت، وأجبر جامعة أوروبا الوسطى على الخروج من البلاد، يمثل تهديداً أكبر بكثير للحرية الأكاديميَّة من أيّ شخص يساري في بلاده، وأعرفُ مجموعة واحدة على الأقلّ من الأكاديميين المجريين الذين قرروا عدم نشر تحليل انتخابي ـ أظهر أنَّ فيدس غش ـ خوفاً من فقدان التمويل أو فقدان وظائفهم، لكن ماريا تواصل الكفاح ضد "اليسار" غير الموجود على أيّ حال، حتى أنَّها دعت ستيف بانون/ Steve Bannon وميلو يانوبولوس/ Milo Yiannopoulos إلى بودابست، بعد مدَّة طويلة من توقف هذين الشخصين الحزينين عن التأثير بشكل كبير في الولايات المتحدة، حتى قوميتها اليمينيَّة البديلة هي ـ في آخر المطاف ـ تقليد آخر.

المفارقةُ الأخرى هي أنَّها، أكثر بكثير من أوربان، تجسد روح البلاشفة التي تكرهها حقّاً؛ إنَّ استخفافها عميق، لا يمكن أن يكونَ

دعمُ سوروس للاجئين السوريين عملاً خيريّاً أو صدقة، بل يجب أن يأتي من رغبة عميقة لتدمير المجر، ولم تكن تصريحات أوباما حول التمثال صادقة، لا بدَّ أنَّها عكستْ علاقة مالية مع سوروس، ولم يكن من الممكن أن تأتي سياسة اللاجئين التي انتهجتها أنجيلا ميركل من الرغبة في مساعدة الناس، فقد كان لديها أجندة أخرى شائنة.

قالت شميت: "أعتقدُ أنَّ ذلك مجرد هراء"، "أودُّ أن أقولَ إنَّها أرادت إثبات أنَّ الألمان، هذه المرة، هم الناس الطيبون، ويمكنهم إلقاء محاضرات على الجميع حول الإنسانيَّة والأخلاق، ولا يهم الألمان ما يمكنهم أن يحاضروا فيه بقيَّة العالم، عليهم فقط إلقاء محاضرة على شخص ما".

يذكرنا كلّ ذلك بازدراء لينين لمؤسّسات "الديمقراطيَّة البرجوازيَّة"، والصّحافة الحرَّة التي عدّها مخادعة، والمثاليَّة الليبراليَّة التي رأى أنَّها زائفة، لكن الكذبة متوسطة الحجم تعمل لصالح أوربان ـ كما فعلت مع دونالد ترامب وكاتشينسكي تماماً ـ لأنَّها تركز انتباه العالم على خطاباته بدلاً من أفعاله.

قضيتُ وشميت معظم محادثتنا غير السارة التي استمرَّت ساعتين في مناقشة أسئلة لا معنى لها: هل يمتلك جورج سوروس الحزب الديمقراطيّ؟ هل المهاجرون الذين حاولوا عبور المجر للوصول إلى ألمانيا في عام ٢٠١٦ ـ وتوقفوا الآن عن القدوم تماماً ـ ما زالوا يشكلون تهديداً للأمَّة، كما تصرّ بروباجندا الحكومة؟ لم نقضِ وقتاً في مناقشة نفوذ روسيا في المجر، الذي أصبح الآن

قوياً للغاية، أو حقيقة أنَّ المعارض الخاصَّة في متحفها بدأت ببطء تعكسُ شكلاً جديداً من أشكال الصواب السياسي المعادي لألمانيا والمناهض لأوروبا في البلاد: في ذكرى عام ١٩١٧، على سبيل المثال، أقامت معرضاً صوَّرَ الثورة الروسيَّة على أنَّها ليست أكثر من عمليَّة استخبارات ألمانيَّة.

لم نتحدث عن الفساد، أو الطرق التي لا تعد ولا تحصى ـ وثقتها "رويترز"، و"فايننشيال تايمز"، وغيرهما ـ واستفاد أصدقاء أوربان شخصياً من الإعانات الأوروبيَّة والحيل التشريعيَّة، وتعمل طريقة أوربان على النحو الآتي: تحدث عن القضايا العاطفيَّة، وضع نفسك كمدافع عن الحضارة الغربيَّة، ولاسيّما في الخارج، وبهذه الطريقة لا يلحظ أحد المحسوبيَّة والكسب غير المشروع في الوطن.

في النتيجة، لم أتعلم الكثير عن دوافع شميت، وأنا متأكدة من أنَّ كبرياءَها القوميّ صادق، لكن هل تعتقد حقاً أنَّ المجر تواجه تهديداً وجودياً خطيراً في صورة جورج سوروس وبعض السوريين غير المرئيين؟

ربَّما تكون واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين يمكنهم إقناع أنفسهم على نحو نافع بتصديق ما هو مفيد لتصديقه، أو ربَّما تكون ساخرة من جانبها بقدر ما هي تجاه خصومها، وكلّها لعبة متقنة.

هناك مزايا لمنصبها، فبفضل أوربان حصلت شميت في ما يقرب من عقدين من الزمن على التمويل والدعم السياسيّ

اللازمين للإشراف ليس على متحفها فحسب، ولكن على اثنين من المعاهد التاريخيَّة أيضاً، ممَّا يمنحها قوة فريدة لتشكيل كيفيَّة تذكر المجريين تاريخهم، وهي قوة تستمتع بها.

من هذا المنطلق، تتذكر الكاتب الفرنسي موريس باريس/ Maurice Barrès، أحد كتبة جوليان بيندا، وعلى الرغم من أنَّ باريس، كما كتب بيندا، "بدأ كمتشكك فكري"، إلا أنَّ "نجمه الماديّ زاد بمقدار مائة ضعف، على الأقلّ في بلده، حين جعل نفسه رسول ،التحيزات الضروريَّة" وتبنى باريس سياسات يمينيَّة ومتطرفة، وأصبح ثرياً ومشهوراً في هذه العمليَّة؛ إنَّ معاداة شميت الغاضبة للاستعمار قد ساعدتها أيضاً.

ربَّما لهذا السبب تلعب اللعبة بحذر شديد، وتحافظ دوماً على الجانب الأيمن من الحزب الحاكم، بعد أن التقينا، نشرت على مدونتها، من دون إذني، نسخة مكتوبة منقحة على نحو كبير من محادثتنا، والتي قدمتها بطريقة مضللة لتصبح كأنَّها أجرتها معي، ويبدو أنَّها تهدف إلى إثبات "فوزها" في جدالنا، وظهرت النسخة المكتوبة على الموقع الرسميّ للحكومة المجريَّة باللغة الإنجليزيَّة أيضاً.

حاول أن تتخيلَ قيام البيت الأبيض بنشر نص محادثة، قُل مثلاً: رئيس مؤسَّسة "سميثسونيان" وناقد أجنبي لترامب وستفهم مدى غرابة ذلك، لكن عندما رأيت ذلك، أدركت سبب موافقتها على المقابلة: لقد كان عرضاً مصمماً ليثبت للمجريين الآخرين أنَّ شميت موالية للنظام ومستعدة للدفاع عنه، وهي كذلك.

الفصلُ الثالث
مستقبلُ النوستالجيا

قد يميلُ القارئُ الذي بلغ هذا المدى ـ الذي يخوضُ في تفاصيلِ السياسةِ البولنديَّةِ والمجريَّةِ بعمق، ويلتقي بطائفةٍ متنوعةٍ من أشخاص ذوي أسماء يصعب نطقها ـ إلى رفض هذه القصص بعدِّها مجرد قصص محليَّة، وقد يتصور الكثيرون أنَّ أزمة الديمقراطيَّة الأوروبيَّة هي نوع من المشاكل "الشرقيَّة" تنفرد بها "البلدان الشيوعيَّة السابقة" التي ما زالت تعاني من مخلفات عام ١٩٨٩، كما يعزو البعض أيضاً السلطويَّة الجديدة في أوروبا الشرقيَّة إلى فشل إقليميّ واسع في التعامل مع إرث الماضي.

هذا التفسير غير كافٍ، فهذه الحركات جديدة؛ إذ لا توجد موجة قوميَّة استبداديَّة معادية للديمقراطيَّة بعد عام ١٩٨٩ في أوروبا الوسطى، خارج حدود يوغوسلافيا السابقة، لقد نشأت هذه الموجة مؤخراً في العقد الماضي، لكنَّها لم تنشأ بسبب "أطياف الماضي" الغامضة، بل نتيجةً لأعمال محدَّدة لأشخاص يكرهون ديمقراطيَّاتهم الحالية، لقد كرهوهم لأنَّهم كانوا ضعفاء جداً أو مقلِّدين جداً، مترددين جداً أو فرديين جداً، أو لأنَّهم شخصيّاً لم يتقدَّموا بالسرعة الكافية داخلهم، فما من شيء "شرقي" حول استياء

جاسيك كورسكي من نجاح أخيه واعتقاده أنَّه يستحق المزيد، ولا يوجد شيء من "ما بعد الشيوعيَّة" حول تحوّل ماريا شميت من منشقة إلى متملقة: إنَّها قصصٌ قديمة جداً، تنتمي إلى الغرب بقدر ما تنتمي إلى الشرق، وبذلك لا يوجد ما هو مميز في الأراضي الواقعة بين موسكو وبرلين.

وصفت حفلتي ليلة رأس السنة عام ١٩٩٩ لعالم سياسيّ يونانيّ، في مطعم للأسماك ذات ليلة جميلة في ساحة قبيحة في أثينا، لقد سخر مني بهدوء، أو بالأحرى ضحك معي، إذ لم يقصد أن يكون فظاً، لكن لم يكن هذا الشيء الذي كنت أسميه الاستقطاب بشيءٍ جديدٍ، إذ قال ستاثيس كاليفاس/ Stathis Kalyvas: "إنَّ الليبراليَّة ما بعد عام ١٩٨٩ هي الاستثناء"، فالوحدة هي الحالة الشاذة، والاستقطابُ أمرٌ طبيعيٌّ، كما أنَّ الشك في الديمقراطيَّة الليبراليَّة أمر طبيعيٌّ أيضاً، وإغواءُ السلطويَّةِ أبديٌّ.

كان كاليفاس مؤلفاً للعديد من الكتب المعروفة عن الحروب الأهليَّة، إلى جانب أمور أخرى، بما في ذلك الحرب الأهليَّة في اليونان في أربعينيات القرن الماضي، التي كانت واحدة من بين العديد من اللحظات في أوروبا حين حملت الجماعات السياسيَّة المتعارضة جوهريَّاً السلاح وبدأت في قتل بعضها البعض، لكن الحرب الأهليَّة والسلم الأهليّ هي في أفضل الأحوال مصطلحات نسبيَّة في اليونان، إذ حكم البلاد مجلس عسكريّ فاسد بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٤، وحدثت أعمال شغب عنيفة في أثينا عام ٢٠٠٨، وبعد بضع سنوات، تولّى حزبٌ يساريٌّ متطرف السلطة بالتحالف مع حزب يميني متطرف، لقد كانت اليونان تمرُّ بلحظة

وسطيَّة بينما نتحدث، وأخبرني الكثير من الناس في أثينا أنَّه أصبح شائعاً على نحو مفاجئٍ أن تكون "ليبرالياً"، ولم يقصدوا بذلك شيوعياً أو سلطوياً، فقد أطلق الشباب المتطورون على أنفسهم اسم "الليبراليين الجدد"، معتمدين مصطلحاً كان لعنة قبل سنوات قليلة فقط، تبين أنَّ هذا الأسلوب ذو أهميَّة: بعد مرور عام على زيارتي، فاز الليبرالي الوسطي، كيرياكوس ميتسوتاكيس / Kyriakos Mitsotakis، بالانتخابات اليونانيَّة وأصبح رئيساً للوزراء.

مع ذلك، لم يقتنع أكثر الوسطيين تفاؤلاً أنَّ هذا التغيير سيستمر، فقد فكر أشخاص كثر بتشاؤم: "لقد نجونا من المتطرفين اليساريين، والآن نستعد للمتطرفين اليمينيين"، كانت توجد حجة قذرة تتحضر منذ مدة طويلة حول وضع مقدونيا الشماليَّة، الجمهوريَّة اليوغوسلافيَّة السابقة المجاورة لليونان، إذ طردت الحكومة اليونانيَّة، بعد فترة وجيزة من مغادرتي، بعض الدبلوماسيين الروس لمحاولتهم إثارة هستيريا معادية لمقدونيا في الجزء الشمالي من البلاد، أيَّاً كان التوازن الذي تصل إليه أمتك، يوجد دائماً شخص ما، في الداخل أو في الخارج، لديه أسباب لزعزعته.

يعيدُ التاريخُ نفسه في اليونان؛ فالآن يوجد ديمقراطيَّة ليبراليَّة، لكن بعد ذلك، قد يوجد حكم الأقليَّة "الأوليغارشيَّة"، ثم ستأتي ديمقراطيَّة ليبراليَّة مرة أخرى، وقد يوجد تخريب أجنبي، محاولة انقلاب، حرب أهليَّة، ديكتاتوريَّة، أو ربَّما حكم أقليَّة مرة أخرى، هذا ما سيكون عليه الحال لأنَّه هكذا تجري الأمور على الدوام؛ كلُّ الطرق تؤدي إلى جمهوريَّة أثينا الأصليَّة.

فجأةً، يعيدُ التاريخ نفسه في أجزاء أخرى من أوروبا أيضاً، فالانقسامُ الذي مزَّق بولندا يشبه الانقسام الذي قسم ألمانيا في فايمار، كما تشبه اللغة التي يستخدمها اليمين الأوروبيّ الراديكاليّ ـ المطالبة بـ "الثورة" ضد "النخب"، وأحلام "التطهير" من العنف والصراع الثقافيّ الكارثيّ ـ إلى حدّ كبير اللغة التي سبق أن استخدمها اليسار الأوروبيّ الراديكاليّ.

لم يكن وجود المثقفين غير الراضين والساخطين ـ الأشخاص الذين يشعرون أنَّ القواعد ليست عادلة وأنَّ الأشخاص الخطأ لهم تأثير ـ أوروبيّاً على نحوٍ فريد، لقد زار مويسيس نايم/ Moisés Naím، الكاتب الفنزويلي، وارسو بعد أشهر قليلة من وصول حزب "العدالة والقانون" إلى السلطة، طلب مني أن أصفَ القادة البولنديين الجدد: أخبريني عنهم، كأشخاص؟ أعطيته بعض الصفات: غاضبون، حاقدون، مستاؤون، قال لي: "إنَّهم يشبهون التشافيستاس"، لقد زرت فنزويلا في مطلع عام ٢٠٢٠ وأذهلتني السبل العديدة التي لا تشبه فيها الدول الماركسيَّة اللينينيَّة القديمة فحسب، بل الأنظمة القوميَّة الجديدة أيضاً؛ كارثة اقتصاديَّة ومجاعة مخفيَّة مُتكتَّمٌ عليها من جهة، وهجمات على سيادة القانون، الصّحافة، الأوساط الأكاديميَّة، و"النخب" الزائفة من جهة أخرى، يبثُّ التلفازُ الحكوميُّ دعايةً متكررةً وأكاذيب صارخة، كان الاستقطابُ عميقاً لدرجة أنَّه كان ظاهراً في جغرافيا كاراكاس ذاتها، لم تذكرني المدينة، في هذا الصدد، بأوروبا الشرقيَّة في الماضي فحسب، بل ذكرتني ببعض أجزاء العالم الغربيّ في الوقت

الحاضر أيضاً.

حين يرفض الناس الأرستقراطيَّة، يكفون عن الاعتقاد بأنَّ القيادة تُورَّث بالولادة، وأنَّ الطبقةَ الحاكمةَ معتمدة من الله، فإنَّ الجدل حول من سيحكم ـ من النخبة ـ لا ينتهي أبداً، ومنذ زمن بعيد، اتفق بعض الناس في أوروبا وأمريكا الشماليَّة على فكرة أنَّ شتى أشكال المنافسة الديمقراطيَّة، والميريتوقراطيَّة، والاقتصاديَّة هي البديل الأكثر إنصافاً للسلطة الموروثة أو المفروضة، لكن حتى في البلدان التي لم يحتلها الجيش الأحمر مطلقاً ولم يحكمها الشعبويون في أمريكا اللاتينيَّة، يمكن للديمقراطيَّة والأسواق الحرة أن تسفر عن نتائج غير مرضية، ولا سيَّما حين تُنظم على نحو سيّئ، أو حين لا يثق أحد بالمنظمين، أو حين يدخل الناسُ المنافسةَ من مداخل مختلفة، وعاجلاً أم آجلاً، سيطعن الخاسرون في هذه المنافسات دائماً بقيمة المنافسة نفسها.

بدقة أكثر، إنَّ مبادئ المنافسة، حتى حين تشجع المواهب وتنشئ حركة تصاعديَّة، لا تجيب عن أسئلة أعمق حول الهويَّة الوطنيَّة أو الشخصيَّة، فهي لا تُشبع الرغبة في الوحدة والانسجام، وإضافةً إلى كلّ شيء، لا ترضي رغبة البعض في الانتماء إلى مجتمع خاص، أو مجتمع فريد، أو مجتمع متفوق، هذه ليست مشكلة بولندا أو هنغاريا أو فنزويلا أو اليونان فحسب، إذ يمكن أن تحدث في بعض أقدم الديمقراطيَّات وأكثرها أماناً في العالم.

***

التقيتُ بوريس جونسون لأوّل مرّة في أمسية منذ زمنٍ بعيدٍ في بروكسل، بصحبة زوجي، صديق جونسون من أكسفورد، على الرغم من أنَّ مصطلح صديق غامض هنا، لنكون أكثر دقة، كان كلاهما عضواً في نادي "بولينغتون"، وهو مؤسَّسة فريدة من نوعها في أكسفورد ازدهرت في حقبة إحياء رواية "زيارة أخرى لعقل عروس/ Brideshead Revisited" في ثمانينيات القرن الماضي، حين كان ميرتشانت/ Merchant وأيفوري/ Ivory ينتجان فيلم "الحرارة والغبار/ Heat and Dust"، وتزوجت الأميرة ديانا في كاتدرائيَّة القديس بولس، لست متأكدةً من أنَّ أعضاء بولينغتون كانوا "أصدقاء" بالضرورة: كانوا منافسين، وشركاء في الشرب، لكنَّني لا أعتقد أنَّ الكثير منهم يبكون على أكتاف بعضهم البعض حين يمرون بأوقات عصيبة.

لو لم ينتج عنه رئيسا وزراء ـ جونسون وديفيد كاميرون ـ بالإضافة إلى مستشار الخزانة، لكان بولينغتون قد تلاشى في غموض مبرر بعد انتهاء حقبة ميرتشانت أيفوري وطلاق أمير وأميرة ويلز، حتى في ثمانينيات القرن الماضي، كان قد تحوَّل بالفعل إلى محاكاة ساخرة، إذ سُخر منه قبل نصف قرن في رواية إيفلين ووه/ Evelyn Waugh عام ١٩٢٨ بعنوان "انهيار وسقوط/ Decline and Fall"، إذ يبدأ هذا الكتاب بوصف معروف للاجتماع السنوي لـ "نادي بولينغتون":

"يمكن الآن سماع صوت صاخب يتصاعد من غرف السير أليستير، وكلّ من سمع هذا الصوت سينكمش عند تذكره؛ إنَّه

صوت عائلات المقاطعة الإنجليزيَّة، وهم ينبحون من أجل قدح مكسور...".

أعرفُ حقيقة أنَّ بعضَ زملاء جونسون الأعضاء يشعرون الآن بإحراج شديد من بولينغتون، بزيّه الرسميّ من ريجنسي داندي ـ معطف مذيَّل، مع صدرية من الحرير الأصفر، وربطة عنق زرقاء ـ اجتماعاته الماجنة التي تملؤها الشمبانيا، سُمعَته في تحطيم الأثاث إضافة إلى النوافذ، وروابطه المشهورة، أو بالأحرى روابطه المزعومة، بالأرستقراطيَّة القديمة، لكن يتذكره آخرون على أنَّه نوع من المزاح المطول، أعتقد أنَّ زوجي وجونسون يندرجون ضمن هذه الفئة، ومع بعض الاستثناءات لم يكن معظم الأعضاء في الواقع من الأرستقراطيين، أو إن كانوا كذلك فليسوا عظماء جداً؛ إذ إنَّ جونسون نفسه هو ابن بيروقراطي في الاتحاد الأوروبيّ وترعرع في بروكسل جزئياً، وكان راديك لاجئاً من بولندا الشيوعيَّة، لكنَّه يتميز بروح دعابة بريطانيَّة، كلاهما كانا يعبثان بصيغ المجتمع الطبقيّ الإنجليزيّ القديمة، فيمثلان بعض الأدوار لأنَّ ذلك يسليهما، واستمتعوا بنادي بولينغتون، ليس مع تجنب محاكاة "إيفلين ووه" الساخرة الخبيثة، ولكن بسببها.

حين تناولنا العشاء مع جونسون، كان يعمل في بروكسل بوصفه مراسلاً لصحيفة "الديلي تلغراف"، جرائد البيت لحزب المحافظين البريطاني، وبعد سنوات عدة في العمل، بنى لنفسه اسماً بالفعل، كان مجال تخصصه عبارة عن قصص مسلية نصف حقيقيَّة بُنيت حول ذرة (أو أقلّ من ذرة في بعض الأحيان) من الحقيقة التي

تسخر من الاتحاد الأوروبيّ وتصوره دائماً على أنَّه منبع الجنون التنظيميّ، حملت مقالاته عناوين مثل "خطر يتهدد النقانق البريطانيَّة الورديَّة"، لقد كرروا شائعات (كاذبة) مفادها أنَّ البيروقراطيين في بروكسل سيحظرون الحافلات ذات الطابقين أو رقائق البطاطا بنكهة الروبيان، وعلى الرغم من سخرية من هم على دراية بهم، إلا أنَّه كان لهذه الحكايات الطويلة تأثير، إذ طالب محررون آخرون مراسليهم في بروكسل بإيجاد النوع نفسه من القصص وتقديمها، وتسابقت الصحف الشعبيَّة لمواكبة ذلك، ساعدت هذه الأنواع من القصص عاماً تلو آخر على بناء حالة انعدام الثقة في الاتحاد الأوروبيّ التي مهدَّت الطريق، بعد سنوات عديدة، لخروج بريطانيا منه، لقد أدرك جونسون التأثير إدراكاً تاماً واستمتع به، إذ قال لـ "بي بي سي" بعد ذلك بسنوات، في مقابلة صريحة على نحو غير عادي: "رميت هذه الصخور على جدار الحديقة واستمعت إلى هذا الانهيار المذهل من البيت الزجاجي المجاور في إنجلترا، كان لكلّ ما كتبته من بروكسل هذا التأثير المدهش والمتفجر على حزب المحافظين، وقد أعطاني هذا حقاً، على ما أعتقد، شعوراً غريباً بالقوَّة إلى حدّ ما".

كما باع "التحطم المدهش" في لندن الصحف، وهذا جزء من سبب التسامح مع جونسون لمدة طويلة، لكن يوجد سبب أعمق أيضاً: أثارت القصص غير الدقيقة تماماً الغرائز العميقة لسلالة معينة من المحافظين النوستالجيين، وقراء ومحرري صحيفة "ديلي تلغراف"، و"صنداي تلغراف"، ومجلة "سبيكتاتور"، المنشورات الشقيقة لهم، كانت ثلاثتها مملوكة لرجل الأعمال الكندي نفسه، كونراد بلاك/

Conrad Black، لقد عرفتُ هذا العالم حق المعرفة، إذ كتبت، في أوقات مختلفة، عموداً في "تلغراف" و"صنداي تلغراف"، وعملت في "سبيكتاتور"، بوصفي نائب رئيس تحرير في نهاية المطاف من عام ١٩٩٢ حتى عام ١٩٩٦، في مرحلة كان فيها دومينيك لوسون يدير المجلة، إنَّه محرر لامع، وما يزال أحد أفضل المحررين الذين قابلتهم على الإطلاق، في ذلك الوقت، كان لدى "سبيكتاتور" مكاتب رثة في "شارع دوتي/ Doughty Street"، لم تُجدّد منذ عقود، لكن مع ذلك جذبت حفلاتنا الصيفيَّة ووجبات الغداء التي استغرقت فترة ما بعد الظهيرة مجموعة غريبة من الضيوف الكبار، من أليك غينيس وكلايف جيمس إلى أوبيرون ووه ـ نجل إيفلين ـ ودوقة ديفونشاير.

في تلك المرحلة، كانت لهجة كلّ حديث، وكلّ اجتماع تحريري، متقنة، وكلّ محادثة مهنية ممتعة، فلم تمر لحظة خلت من النكتة أو توقُّف التهكم، حتى أكثر المقالات صراحة كانت لها عناوين ذكية جداً، لقد ابتكر لوسون مقالاً أتذكره جيداً، لأنَّه قُصِد به من دون شك أن يكونَ مقالاً بمنتهى الجديَّة عن بولندا: "Gdansking on Thin Ice"، كانت هذه لحظة تاريخيَّة غير عادية، حلَّ فيها إينوك باول/ Enoch Powell، وهو سياسيٌّ مثيرٌ للجدل مناهض للهجرة من جيل سابق، ضيفاً عرضيّاً على الغداء ومسؤول محترم، وشخصيَّة مرحة أيضاً بطريقة أو بأخرى، لقد حضر صحفيون من حزب المحافظين ونواب حزب المحافظين الذين قد يتنافسون مع بعضهم البعض حول مائدة العشاء عمن يمكنه القيام بأفضل تقليد لـ"إينوك"، ولعلهم ما زالوا يفعلون.

سيكون أمراً بعيداً عن الدقة بشكل كبير أن نقولَ إنَّ دائرة الأشخاص الذين انجذبوا حول "سبيكتاتور" ـ إن أمكن القول إنَّهم فعلوا شيئاً حماسياً إلى حدّ "الانجذاب" ـ يحنون إلى ماضي بريطانيا الاستبداديّ الإمبراطوريّ، إذ لم يرغب أحد، في تسعينيات القرن، في عودة الهند، ولا أحد يرغب في ذلك الآن، لكن يوجد حنين لشيء آخر: عالم وضعت فيه إنجلترا القوانين، أو لعلَّ عبارة "الحنين إلى الماضي" غير صحيحة؛ لأنَّ أصدقائي داخل "سبيكتاتور" وخارجها لم يعتقدوا أنَّهم كانوا ينظرون إلى الوراء، لقد اعتقدوا أنَّه ما يزال باستطاعة إنجلترا أن تضع القوانين ـ سواء أكانت قواعد التجارة، أو الاقتصاد، أو السياسة الخارجيَّة ـ فقط لو أمسك قادتهم بزمام الأمور، وانطلقوا للعمل بحماس كبير، كم وددت لو أنَّهم فعلوا ذلك!

أظن الآن أنَّ ذلك ما أحبّوه في مارغريت تاتشر في الأساس: إنَّها ستخرج إلى العالم وتحقق الأهداف المنشودة، لقد أُعجبوا بالأمر حين أرجحت حقيبة يدها في وجه الأوروبيين، مطالبة بتخفيض ميزانيَّة الاتحاد الأوروبيّ، وأرسلت "فرقة عمل" لاستعادة جزر فوكلاند، تبين أنَّ بعضَ ما حققته كان إمَّا رمزيّاً بحتاً وإمَّا غير ذي فائدة كبيرة ـ إذ كانت جزر فوكلاند عبارة عن جزء من الأراضي المتنازع عليها التي لم يزرها أحد أو يفكر فيها كثيراً منذ انتهاء الحرب ـ ولكن كان فعل التحدي، والتصميم على أن تكون صاحبة القرار وليس المفاوض فحسب، هو ما حظي بإعجابهم حقاً.

ظننتُ آنذاك أنَّ أصدقائي يؤمنون أيضاً بنشر الديمقراطيَّة

والتجارة الحرَّة عبر أوروبا، وربَّما آمنوا بذلك، لكن بالتأكيد فعلت تاتشر، كان النضال ضد الشيوعيَّة معركة حقيقيَّة ساعدت على الفوز بها، سواء من الناحية النظريَّة أو الجيوستراتيجيَّة، إنَّ السوق الأوروبيَّة الموحدة؛ المنطقة التجاريَّة الأوروبيَّة الشاسعة حيث تُنسق اللوائح بهدف تصنيع السلع وتبادلها عبر القارة بسلاسة، هي فكرة تاتشريَّة، ونتاج دبلوماسيَّة المملكة المتحدة إلى حد كبير، وما تزال أعمق وأكبر اتفاقيَّة للتجارة الحرة جرى عقدها إطلاقاً، لهذا السبب بالتحديد كرهها الحزب اليساريّ الحمائي* من الطيف السياسيّ الأوروبيّ.

أصبحتُ أشكُّ في الآونة الأخيرة أنَّ "الديمقراطيَّة"، بوصفها قضيَّةً دوليَّةً على الأقل، كانت أقلَّ أهميَّة بكثير بالنسبة لنوع معين من المحافظين النوستالجيين من الحفاظ على عالم واصلت فيه إنجلترا ممارسة دور متميز: عالم لا تكون فيه إنجلترا مجرد قوة عادية متوسطة على غرار فرنسا وألمانيا، عالم تكون فيه إنجلترا استثنائيَّة، بل وربَّما متفوقة، كان هذا جزءاً من السبب الذي جعل بعض المحافظين النوستالجيين يشككون دائماً في السوق الموحَّدة التي بذلت بريطانيا الكثير لإنشائها، فكرة أنَّ إنجلترا، الدولة الأوروبيَّة الوحيدة التي لديها ـ كما اعتقدوا ـ ادعاء حقيقيّ في النصر في الحرب العالميَّة الثانية ـ الدولة التي لم تُغز، ولم تستسلم مطلقاً، الدولة التي اختارت الجانب الصحيح من البداية ـ

* "الحمائيَّة/ Protectionism": هي سياسةٌ اقتصاديَّةٌ لتقييد الواردات من البلدان الأخرى، من خلال أساليب مثل: التعريفات الجمركيَّة على البضائع المستوردة، وحصص الاستيراد (تعليق المترجم).

لا يمكنها، في القرن الحادي والعشرين، وضع لوائحها إلا بمشاركة دول أوروبيَّة أخرى، هي فكرة غير مقبولة ببساطة.

أعني إنجلترا وليس بريطانيا، فعلى الرغم من أنَّ البريطانيين في التسعينيات ما زالوا يقاتلون الجيش الجمهوريّ الأيرلنديّ في بلفاست، وما زال أصدقائي من حزب المحافظين يطلقون على أنفسهم "الاتحاديين"، إلا أنَّ القوميَّة الإنجليزيَّة كانت تنمو جنباً إلى جنب مع القوميَّة الإسكتلنديَّة التي أدَّت في نهاية المطاف إلى التفويض الإسكتلندي والدعوات لاستقلال أسكتلندا بعد ذلك بسنوات.

يتضح بإلقاء نظرة على الماضي أنَّ الكثيرَ ممَّا قاله وكتبه أصدقائي في ذلك الوقت عن السوق الموحدة كان وهمياً، مثل الأعمدة التي كتبها جونسون في "التلغراف"، إذ لم يفرض أحد في الاتحاد الأوروبي قواعد على بريطانيا: يجري الاتفاق على التوجيهات الأوروبيَّة عن طريق التفاوض، ويقبَل كلٌّ منها مندوباً أو دبلوماسيّاً بريطانيّاً، ورغم أنَّ المملكة المتحدة لم تكسب كلَّ نقاش ـ ما من دولة كسبتها كلّها ـ لم تكن هناك "مافيا بروكسل" تجبر بريطانيا على القيام بأشياء لا تريد القيام بها، وبرغم ندرة ذكر ذلك، إلا أنَّ السوق الموحدة تمتعت بالعديد من المزايا، حتى حين يخسر البريطانيون النقاشات في بعض الأحيان، لقد جعلت بريطانيا أحد أقوى العناصر الفاعلة في أقوى كتلة اقتصاديَّة في العالم، وأعطتها صوتاً هائلاً في مسائل التجارة الدوليَّة، وكانت مفيدة لرجال الأعمال البريطانيين على نحو خاص، وأثبت نجاحها في النهاية أنَّه

عامل جذب للديمقراطيَّات الجديدة في الشرق، ممَّا ساعد على استقطاب العالم الشيوعي السابق نحو أوروبا المتكاملة أيضاً، لكن أيّاً من هذه المزايا ـفي النهايةـ لم تفق الإحراج والانزعاج من الاضطرار إلى التفاوض بشأن اللوائح مع أوروبيين آخرين؛ عمليَّة الأخذ والعطاء التي أجبرت البريطانيين في بعض الأحيان على تقديم تنازلات.

ومن عجيب المفارقات أنَّ هذه المجموعة ذاتها من الناس كانت سعيدة جداً للعمل في إطار شراكة، حتى إن كانت شريكاً صغيراً جداً، مع الولايات المتحدة، يعود ذلك جزئيّاً إلى أنَّ الولايات المتحدة تتحدث الإنجليزيَّة ولها جذورها التاريخيَّة في بريطانيا العظمى، كما يرجع جانب منه إلى أنَّ الولايات المتحدة، خلافاً لألمانيا أو فرنسا، كانت قوة عظمى حقيقيَّة، وقد انتقل بعض من هذا المجد البراق إلى المملكة المتحدة وأغرى قادتها، قال هارولد ماكميلان/ Harold Macmillan، رئيس وزراء سابق من حزب المحافظين البريطانيين، بعجرفة إلى حد ما، في ستينيات القرن الماضي: "نحن يونانيون في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة"، ويقضي البريطانيون حتى يومنا هذا الكثير من الوقت في التفكير والكتابة حول ما يسمى بـ"العلاقة الخاصة" بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، و"العلاقة الخاصَّة" هي عبارة تُستخدم كثيراً في لندن ولا تُذكر في واشنطن العاصمة.

قد يكون النبلاء المحافظون رافضين للسياسة الأمريكيَّة، ومقلدين صراحةً للثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة، كما كانوا متشككين

ضمنياً في السياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة، لعلَّ رواية غراهام غرين/ Graham Greene "الأمريكي الهادئ/ The Quiet American"، بصورتها، المُحبّة والقاسية في آن واحد، التي تتحدث عن مثالي أمريكي مفرط في الحماسة في فيتنام، أفضل تعبير عن هذا التناقض المعقد، ومع ذلك، كانت أمريكا شريكاً كبيراً، وشريكاً عالمياً، وشريكاً مناسباً للإنجليز الاستثنائيين؛ إن كان الأمريكيون حريصين على نشر الديمقراطيَّة، فإنَّ الإنجليز سعداء بالانضمام إليهم.

حين وصلتُ إلى لندن في أوائل التسعينيات، مُنِحْتُ عضويَّةً فخريَّةً في عالم المحافظين النوستالجيين، ربَّما يُعزى ذلك جزئيّاً إلى أنّني مثَّلتُ التحالف الأمريكي الذي كان رائجاً في ذلك الوقت، لقد عشتُ بضع سنوات في بولندا، وكتبتُ عن سقوط الشيوعيَّة وسياسات عالم ما بعد الشيوعيَّة، كنتُ أداةً مفيدة أيضاً، وأجنبيَّة جادةً، والشخص الذي يحاول على الدوام إقناع زملائي الإنجليز بالتوقف عن إلقاء النكات والكتابة عن الأماكن الأجنبيَّة الصعبة مثل روسيا أو الصين ("نحتاج إلى شيء جاد في هذه المسألة: فلنحضر آن لتكتبها")، لقد بقيتُ بعيدة عن النقاشات بين المملكة المتحدة والاتحاد الأوروبيّ عموماً؛ لأنَّ الآخرين كانوا أكثر شغفاً بها.

ذهبتُ ذات مرة إلى بروكسل للكتابة عن أعضاء حزب المحافظين في البرلمان الأوروبي، واكتشفتُ أنَّ معظمهم كانوا مشرعين ممتازين، وواسعي الاطلاع وذوي ضمير حي، لكن

كلَّما كانوا أكثر نجاحاً ـ كلما كانوا أكثر فاعلية في إصلاح أوروبا وتحسينها، وإنجاح مؤسساتها الديمقراطيَّة ـ زاد كره حزبهم لهم، لقد اختتمت: "عَذِّب المحافظ، اجعله عضواً في البرلمان الأوروبيّ"، حتى في ذلك الوقت، لقد بدأ المحافظون في الانقسام إلى أولئك الذين يرغبون بأن يكونَ الاتحادُ الأوروبيُّ أكثر نجاحاً وتمثيلاً، وأولئك الذين يرغبون في الخروج منه فحسب.

نجح جونسون ـ المولود في الولايات المتحدة مثلي، ومنسجم جداً مع الأفكار الأمريكيَّة ـ في هذا العالم الغريب الخامل إلى حدّ ما أيضاً، في الواقع، لقد كان أحد نجومها الحقيقيين، وقد استطاع إيجاد شيء ممتع ليقوله عن قمة أوروبيَّة مملة ذات يوم، وتسلية الجمهور في برنامج مسابقات متلفزة في اليوم التالي، لكن بدأ كلانا في مرحلة ما بالبحث عن أشياء أخرى للقيام بها، فعدت إلى بولندا عام ١٩٩٧ وبدأت في كتابة كتب التاريخ، وترشح هو للبرلمان، أصبح فيما بعد عمدة لندن، غير أنَّه شعر بالملل هناك أيضاً، إذ أخبر أحد المحاورين عام ٢٠١٣ أنَّ مكتبَ العمدة يشعر بأنَّه بعيد جداً عن مجلس العموم، المكان الذي تحدث فيه أشياء حقيقيَّة، قائلاً، قبل أن يؤكّدَ بعجلة للمحاور أنَّ هذا هو الشيء الوحيد الذي يشترك فيه مع البطل السيكوباتي في فيلم "القيامة الآن/ Apocalypse Now": "أنا معزولٌ جداً، مثل العقيد كرتز، لقد ذهبت عكس التيار"، وكرَّر في المقابلة ذاتها استعارة من "لعبة الركبي" كان قد استخدمها من قبل، كعادته؛ إذ قال إنَّه لم يحاول جاهداً الاستحواذ على قيادة حزبه، لكن "إن أفلتت الكرة في السكروم* فلن يمانع التقاطها".

* "السكروم/ Scrum": موقف في لعبة الركبي يشتبك فيه لاعبو الهجوم كتفا إلى كتف من خلال وضعيَّات الوقوف المتراصّة المتناسقة من الأكتاف وحتى الركب لسد نقاط الضعف، مع الضغط الشديد والتحرك ككتلة واحدة (تعليق المترجم).

لقد لاحظ كثيرٌ من الناس منذ ذلك الحين نرجسيَّة جونسون الكبيرة، التي تستهلكه في الواقع، بالإضافة إلى كسله اللافت للنظر على حدّ سواء، يُشهد له ولعه بالتلفيق؛ إذ فُصِل من "صحيفة التايمز" (لندن) في بداية حياته المهنيَّة لاختلاق اقتباسات، وطُرِد من حكومة الظلّ في عام ٢٠٠٤ بسبب الكذب، كما تخفي هالة العجز المدروسة بعناية سلسلة من القسوة: دمَّر جونسون الزواج الأوَّل ثم الثاني ـ استمرَّ زواجه الثاني ربع قرن ـ وحياة عدد من النساء الأخريات بسلسلة من العلاقات العامَّة الفاضحة بشكل غير عادي.

لكن لا جدوى من إنكار أنَّ لديه نوعاً غريباً من الكاريزما أيضاً، وطبيعة مميزة تجذبُ الناس وتمنحهم شعوراً بالراحة، فضلاً عن سرعة بديهته في فهم مزاج الجمهور، صادفته ذات مرة، بعد عدم رؤيته لعدة سنوات، في "المدينة"، المنطقة التجاريَّة في لندن، يركب دراجته، كان آنذاك عمدة، لوَّحتُ له، فتوقف، وصاح متعجباً من الصدفة المذهلة، ثم اقترح أن نذهبَ إلى حانة لتناول مشروب سريع، حين فتحنا الباب، تمتم بشيء مثل "أوه لا، لقد نسيت أنَّ هذا سيحدث"، إذ احتشد جمع غفير من الناس في كلّ مكان مرة أخرى.

يوجد لقاءان آخران مع جونسون عالقان في رأسي، حين كان عمدة أيضاً؛ سمعته يلقي خطاباً عن أثينا القديمة عام ٢٠١٤، وعلى عكس العديد من تصريحاته العامَّة الارتجاليَّة، كان لهذه المحاضرة اتساقاً حقيقيّاً، ربّما لأنَّه كتبها مسبقاً، لقد امتدح أثينا بشيء من التفصيل ملوحاً بكأس من النبيذ الأحمر في يده، متحدثاً عن "ثقافة

الحريَّة والانفتاح والتسامح والتجريب الفكريّ والديمقراطيّة"، مشبهاً إيَّاها على نحوٍ واضحٍ بلندن الحديثة، ثم تحدث عن أسبرطة في المقابل، مشيراً إلى أنَّ، مثل ما تنبأ بريكليس، هذا المجتمع القاسي، الملتزم، العسكريّ لم يترك أيَّة آثار راقية في أعقابه، لقد حذَّر من الإسبرطيين الجدد وتحدَّث عن "التحدي، العالميّ في مدى شموله، للحريَّات الديمقراطيَّة" الذي يطرحه السلطويون الجدد، فصفق الناس، إذ تأثروا بصدق.

خرجتُ لتناول العشاء بصحبة جونسون وبضعة أشخاص آخرين في الوقت ذاته تقريباً، وانتهى بنا المطاف بالحديث عن استفتاء شعبيّ محتمل على العضويَّة البريطانيَّة في الاتحاد الأوروبيّ، الذي لاح آنذاك في الأفق، قال: "لا أحد جاد يريد مغادرة الاتحاد الأوروبيّ، لا تريد التجارة ذلك، ولا تريد المدينة [المنطقة التجاريَّة في لندن] ذلك، لن يحدث هذا"، بذلك تحدث حين كان العمدة الليبراليّ لمدينة بريطانيَّة عظيمة حديثة متعددة الثقافات، المدينة التي ازدهرت بفضل صِلاتها العميقة بالعالم الخارجيّ.

لقد اختار، مع ذلك، خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ في حملة الاستفتاء، ودعم خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ باللامبالاة المرحة ذاتها، وتجاهُل العواقب ذاتِه الذي أظهره منذ مدة طويلة في عمله الصحفيّ وحياته الشخصيَّة، إذ استمرَّ في إلقاء النكات والقصص، حَسَب أنَّ خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ سيخسر، فأرسلَ رسالة نصيَّة إلى ديفيد كاميرون، رئيس الوزراء: "ستُسحق (البريكست) مثل علجوم تحت المسلفة"، لكنَّه اعتقد أنَّ

دعمه سيجعله بطلاً بين الشكوكيين الأوروبيين المحافظين الذين ساهمت كتاباتهم كثيراً في صقلهم، لقد جاء حسابه صحيحاً إلى حدّ ما، وإن لم يكن بالطريقة التي توقعها.

ما كان ليصبح بوريس جونسون رئيساً للوزراء أبداً في التقدم "الطبيعيّ" للأحداث ـ في عالم بدون خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، كان الحزبُ الذي انتخب ديفيد كاميرون ـ حزب وسطيّ معتدل، مكرَّس لـ"إزالة السموم" من حزب المحافظين بعد سلسلة من القادة الغاضبين ـ سيواجه صعوبةً في اختيار شخص محفوف بالمخاطر مثل جونسون، نظراً إلى تاريخه من الهفوات، والإقالات، والفضائح الجنسيَّة، أصبح جونسون زعيم الحزب لأنَّ الحزبَ لم يعرف ماذا يفعل غير ذلك، فقد حدثت مزاحمة الركبي، وقد أسقط أحدهم الكرة بالفعل.

بدأ اليأسُ بعد الاستفتاء عام ٢٠١٦، الذي لم تفاجئني نتيجته، إذ كنت قبل التصويت ببضع ليالٍ في حفل عشاء حيث دوَّن الجميع توقعاتهم، ووُعد الفائز بصندوق نبيذ، توقعت أنَّ "المغادرة" ـ كما في "مغادرة الاتحاد الأوروبيّ" ـ ستفوز بنسبة ٥٢ـ٤٨، لقد فعلت، لكن لم يطاوعني قلبي لأخذ النبيذ لأنَّ مضيف حفل العشاء عمل بجد في حملة "البقاء" وقد دمرته النتيجة، إلا أنَّ حزبَ المحافظين فوجئ بالتأكيد، لم تكن قيادة حزب المحافظين ـ اللوردات ورؤساء الأحزاب والممثلين البرلمانيين والمكتب المركزي وأولئك الذين أرادوا خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، والذين لم يرغبوا بذلك ـ مستعدة تماماً للتفكير في مغادرة الاتحاد الأوروبيّ، المنظمة التي

كوَّنت وشكَّلت الاقتصاد البريطانيّ والدبلوماسيَّة البريطانيَّة، ودور بريطانيا في العالم منذ السبعينيات، كذلك كان جونسون.

ساءَ الوضعُ كثيراً بحلول عام ٢٠١٩: لقد عانى حزبُ المحافظين من ثلاث سنوات من القيادة الكارثيَّة تحت قيادة تيريزا ماي، إذ إنَّها شخص آخر ربما، في السياق العادي للأمور، ما كانت لتصبح رئيسةً للوزراء مطلقاً، وسرعان ما حققت أسوأ توقعات للجميع، وارتكبتْ سلسلةً كاملةً من الأخطاء التي لا تُغتفر، لقد فَعّلت المادة ٥٠، الآليَّة القانونيَّة للخروج من الاتحاد الأوروبيّ ـ القرار الذي حدّد موعداً نهائياً مدته عامين ـ قبل فهم ما ينطوي عليه خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، ودعتْ إلى انتخابات برلمانيَّة غير ضروريَّة عام ٢٠١٧ وخسرت أغلبيتها، أمَّا الأسوأ من ذلك كله، فهو تحديدها شروط المناقشات المدمرة بشأن خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، في بادئ الأمر، كان بإمكان ماي ملاحظة أنَّ الاستفتاء أصبح قريباً جداً، وأنَّ الروابط التجاريَّة والسياسيَّة لبريطانيا مع أوروبا هي روابط متينة، وأنَّه سيكون من المنطقي أن تنفذ المملكة المتحدة خروجاً "ذكياً" من الاتحاد الأوروبيّ، وليس خروجاً "غبياً/ foolish": يمكن للمملكة المتحدة البقاء داخل السوق الموحدة، وهي فكرة بريطانيَّة، أو على الأقل داخل اتحاد جمركي.

عوضاً عن ذلك، مستخدمة لغة الاستقطاب لخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ "الصعب" و"اللين"، فضلت الأوَّل واختارت ترك كلا المؤسستين، لقي قرارها على الفور استحسان جميع

أولئك الذين أرادوا أن تصرخ بريطانيا بصوت أعلى في العالم، كما أثار ذلك، في الوقت الذي فقد فيه كثيرٌ من المحافظين الإنجليز الاهتمام بـ"بلفاست"، مشكلة الحدود غير القابلة للحل بين شمال إيرلندا وجمهوريَّة إيرلندا، نظراً إلى أنَّ كلّاً من شمال وجنوب جزيرة إيرلندا كانا في الاتحاد الأوروبيّ، لم تعد توجد حدود في الواقع، ورفضت الحكومة الإيرلنديَّة، بدعم من الاتحاد الأوروبيّ، السماح بإنشاء حدود الآن، لكن هذا يعني أنّه يتعين على المملكة المتحدة بأكملها البقاء ضمن شكل من أشكال الاتحاد الجمركيّ مع الاتحاد الأوروبيّ، وإلا سيتعيَّن على إيرلندا الشماليَّة اتباع قواعد مختلفة عن بقيَّة المملكة المتحدة.

كان كلُّ حل من هذه الحلول غير مقبول بالنسبة إلى شخص ما، لقد استمرَّتْ المشاحناتُ لشهور، بعد عدم التشاور مع أحد وعدم بذل أيّ جهد لسد الفجوة مع الأحزاب السياسيَّة الأخرى، وبعد إظهار عدم وجود ما يشبه المهارة السياسيَّة، فشلت ماي في الحصول على موافقة البرلمان على اتفاق الانسحاب في ثلاثة أصوات منفصلة، مؤجلةً خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ مرتين، ثم استقالت.

شرع حزب المحافظين بخسارة الدعم، وكاد أن يُشطبَ في الانتخابات البرلمانيَّة الأوروبيَّة في أيار عام ٢٠١٩، إذ لم يبقَ سوى أربعة من أعضاء حزب المحافظين البائسين الذين ما زالوا يعانون، لقد احتاجَ الحزب إلى زعيم جديد، زعيم يمكنه الجمع بين مختلف أجنحة الحزب، ويُنقذ بريكست، ويستعيد الدعم،

كما احتاجوا أيضاً إلى شخص يمكنه سرد القصص، وإضحاكهم، وإعادة الشعور بالتفوق الإنجليزيّ، فذهبوا للمهرج.

***

النوستالجيون، كتبتْ الفنانة وكاتبة المقالات الروسية "سفيتلانا بويم/ Svetlana Boym" في كتابها الرائع "مستقبل الحنين إلى الماضي/ The Future of Nostalgia"، الذي انقسم إلى نوعين: البعض مفتون بما أسمته بالحنين "الانعكاسي" للمهاجرين أو الجمال، الحنين الذي يجذب جامعي الرسائل المصفرة والصور ذات اللون البني الداكن، وحنين أولئك الذين يحبون الكنائس القديمة حتى لو لم يذهبوا إلى القداديس مطلقاً، يفتقد الحنين الانعكاسي إلى الماضي ويحلم به، يحلل بعضهم الماضي بل ويحزنون عليه، ولا سيَّما ماضيهم الشخصيّ، لكنَّهم لا يريدون عودته حقاً، لعلَّ هذا يرجعُ إلى أنَّهم يعرفون في أعماقهم أنَّ المسكن القديم قد تدمر، أو لأنَّه جُدّد وحُسِّن إلى درجة لا يمكنُ التعرف إليها، أو لأنَّهم يدركون بهدوء أنَّهم لن يحبوه كثيراً الآن على أيّ حال، ربَّما كانت الحياة فيما مضى أحلى أو أبسط، لكنَّها كانت أيضاً أكثر خطورة، أو أكثر مللاً، أو ربَّما أكثر ظلماً.

يختلفُ ما تسميه بويم/ Boym الحنين الانعكاسي اختلافاً جذريَّاً عن الحنين الاسترجاعي، ولا يعتبرون أنفسهم جميعاً نوستالجيين إطلاقاً، فلا يشاهد النوستالجيون الاسترجاعيون الصور القديمة ويجمِّعوا القصص العائليَّة فحسب، بل هم صانعو أساطير ومهندسون معماريون، بناة آثار ومؤسسو مشاريع سياسيَّة قوميَّة؛

إنَّهم لا يريدون ببساطة تأمل الماضي أو التعلم منه، بل يريدون، على حدّ تعبير بويم، "إعادة بناء المنزل المفقود وسد فجوات الذاكرة"، لا يدرك الكثير منهم تخيلاتهم الخاصة عن الماضي على حقيقتها: "إنَّهم يعتقدون أنَّ مشروعهم يدور حول الحقيقة"، فلا يهتمون بماضٍ دقيق، بعالم كان فيه القادة العظماء رجالاً فاسدين، حيث كان للانتصارات العسكريَّة الشهيرة آثار جانبيَّة مهلكة، ولا يعترفون أنَّه قد يكون للماضي عيوبه، فهم يريدون النسخة الكرتونيَّة من التاريخ، والأكثر أهميَّة أنَّهم يريدون العيش فيه الآن؛ إنَّهم لا يرغبون بتأدية أدوار من الماضي لأنَّها تسليهم: يريدون أن يتصرفوا مثل ما يعتقدون أنَّ أسلافهم فعلوا ذلك، من دون سخرية.

ليس بمحض الصدفة أنَّه غالباً ما يترافق الحنين الاسترجاعي مع نظريَّات المؤامرة والأكاذيب متوسطة الحجم، لا يجب أن تكون هذه الأمور قاسية أو مجنونة مثل "نظريَّة مؤامرة سمولينسك" أو "نظريَّة مؤامرة سوروس"؛ إذ يمكنهم اعتماد أكباش الفداء بلطف عوضاً من حقيقة بديلة كاملة، يمكنهم تقديم تفسير على أقل تقدير: لم تعد الأمَّةُ عظيمةً لأنَّ شخصاً ما هاجمنا، وأضعفنا، واستنفد قوتنا، شخص ما ـ المهاجرون، الأجانب، النخب، أو الاتحاد الأوروبيّ ـ قد شوَّه مسار التاريخ وحوّل الأمَّة إلى ظلّ لنفسها، فقد أُخذت منا الهويَّة الأساسيَّة التي كانت لدينا ذات يوم واستُبدلت بشيءٍ رخيص وزائف، وفي نهاية المطاف، سيبدأ أولئك الذين يسعون إلى السلطة على خلفيَّة الحنين الاسترجاعيّ في تنمية نظريَّات المؤامرة هذه، أو التواريخ البديلة، أو الأكاذيب البديلة، سواء أكان لديهم أيّ أساس من الصحة أم لا.

يرتبط مفهوم "الحنين الاسترجاعيٌّ" بعواطف أخرى، إذ كتبَ المؤرّخُ الألمانيُّ الأمريكيُّ فريتز ستيرن (وهو نفسه "مهاجر": غادرت عائلته اليهوديَّة من بريسلاو إلى نيويورك في عام ١٩٣٧) عن ظاهرة موازية أيضاً، أطلق عليها شيئاً آخر: "اليأس الثقافيّ"، ففي كتابه الأوَّل، الذي نُشر في الستينيات من القرن الماضي، كتب سيراً ذاتيَّة قصيرة للعديد من الرجال، وجميعهم من المثقفين الألمان في القرن الماضي- جميعهم يعيشون في فترة زمنيَّة من تغير اجتماعيّ وسياسيّ واقتصاديّ قويّ ـ الذين تأثروا بهذه الظاهرة، كان أحدهم مؤرّخاً ألمانياً مغموراً للفن، يوليوس لانغبن/ Julius Langbehn، بدأ كتابه "رامبرانت بوصفه معلماً/ Rembrandt as Educator" على النحو الآتي:

"شيئاً فشيئاً، أصبح سراً مكشوفاً أنَّ الحياةَ الروحيَّة المعاصرة للشعبِ الألمانيّ في حالةِ تدهور بطيء، وتدهور سريع وفقاً للبعض، لقد تبعثر العلم في كلّ مكان إلى تخصص، لا يوجد صناع لعهد جديد في مجالات الفكر والأدب.... لا شكَّ أنَّ النزعةَ الذرّيَّة والتسوية وفرض الديمقراطيَّة لهذا البلد تعبر عن نفسها في كلّ هذا...".

لم تكن صورةُ لانغبن للرسام الهولنديّ، المنشورة عام ١٨٩٠، سيرة ذاتية أو نقداً، بل كانت مساراً شبه فلسفي، وجدالاً طويلاً، يمثل "رامبرانت/ Rembrandt"، في رؤية لانغبن، أنموذجاً مثاليّاً، "أعلى شكل من أشكال الحياة والفن والتفرد"، لقد مثل شيئاً ضائعاً أيضاً: كان الرجال المعاصرون، ولا سيَّما الألمان المعاصرون،

"أقزام"، رجال لا صلة لهم بالماضي أو بالوطن، كانوا "ديمقراطيين" بمعنى انتقاصي، رجال عاديون بلا مُثُل ولا أحلام ولا موهبة، خلافاً لـ "رامبرانت".

كذلك لم يثق لانغبن كثيراً بالعقول الرائدة في عصره، إذ كره العلم والتكنولوجيا والحداثة، وفضَّلَ الفن والعفويَّة ووجوداً أكثر واقعيَّة من النوع الذي يعتقد أنَّ رامبرانت قد عاشه، لقد كره اليهود، ولا سيَّما اليهود العلمانيين، الذين كتب أنَّهم لا يملكون "لا دين ولا شخصيَّة ولا وطن" لأنَّهم يرمزون إلى الإحساس بعدم الانتماء في الحياة المعاصرة، إلا أنَّ هذا لم يكن أهم موضوع من موضوعاته، فقد تخلَّل كتابه الحنين إلى زمن أفضل مختلف، زمن كان الرجال فيه نشطين وليسوا سلبيين، زمن تمكن فيه القادة العظام من ترك بصماتهم على العالم، فعلى الرغم من كتابته بطريقة عشوائيَّة، وارتباطه البعيد بحياة الفنان الفعليَّة، لكن كان كتاب "رامبرانت بوصفه معلماً" من أكثر الكتب مبيعاً، فقد أثَّر على وتر حسَّاس في التصنيع السريع في ألمانيا أواخر القرن الماضي، ممَّا ساهم في موجة من الحنين الاسترجاعيّ قبل مدة طويلة من أعمال العنف الواسعة للحرب العالميَّة الأولى والهزيمة المذلة التي أعقبت ذلك.

لقد استحوذ ما يشبه بشدَّة اليأس الثقافيّ الذي عرَّفه ستيرن في عمل لانغبن، في مرحلة ما بين تسعينيات القرن الماضي والعقد الأوَّل من القرن الحادي والعشرين، على عدد من أعضاء حزب المحافظين البريطانيين ذوي الفكر العميق ـ صحفيون وكتاب وبعض السياسيين ـ وشرع هذا بالحدوث قبل مدَّة طويلة من استفتاء

خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، أحدد تاريخه بنهاية المرحلة التاتشرية، التي تزامنت مع نهاية الحرب الباردة، وهي، بالنظر إلى الماضي، نقطة تحول أكثر أهميَّة لبريطانيا ممَّا كنا نفهمه وقتذاك، وأتاح الصراع مع الشيوعيَّة للمحافظين البريطانيين، بالتنسيق مع حلفائهم الأمريكيين، فرصة المشاركة في حملة أخلاقيَّة ناجحة جداً، وحين سقط جدار برلين وانهارت الأنظمة الشيوعيَّة بسرعة عام ١٩٨٩، شعروا أنَّهم بريئون، لم يحظ محاربو الحرب الباردة بشعبيَّة، إذ تعرضوا للاستهزاء من اليساريين، بما فيهم العديد من زملائهم في الجامعات والصحافة والسياسة، لكنَّهم واصلوا الإيمان، الآن لديهم دليل على أنَّ تاتشر كانت على حقّ، فقد قاتلوا معاً ضد أولئك الذين فُتِنوا بالشيوعيَّة، وانتصروا.

لكن حالما انتهى الأمر حدث فراغ، وبدت الأسباب الأخرى جميعها أقلّ أهميَّة وأقلّ إبهاراً على نحو مفاجئ، شغل رئيس الوزراء جون ميجر، الذي أعقب تاتشر، المنصب لمدة سبع سنوات، ولعب، مثل الرئيس جورج بوش الأب، دوراً مهماً في إعادة توحيد أوروبا ما بعد الحرب، لكن على الرغم من أنَّ ميجر كان رجلاً عصامياً من النوع الذي قالوا إنَّهم معجبون به، إضافة إلى أنَّه شخص يتحدث بشاعريَّة، وحتى بحنين إلى الماضي، الماضي الإنجليزيّ، فقد كرهه المحافظون النوستالجيون.

قد يكون البعض من ذلك عبارة عن تكبر: لم يذهب ميجر إلى الجامعة مطلقاً، لكنَّهم كرهوه لأنَّه لم يحاول قيادة حملة أخلاقيَّة خلافاً لتاتشر، إذ لم يروّج لبرنامج إصلاح اقتصاديّ جذريّ أو

يدعو إلى تغيير ثوريّ، وبعد الاضطرابات التي شهدتها سنوات عهد تاتشر، أعتقد أنَّ الحكم بهدوء، من يمين الوسط، بالتعاون مع الحلفاء الأوروبيين وكذلك الولايات المتحدة، يفي بالغرض، كان يتمتع بشعبيَّة كافية في البلاد لإعادة انتخابه عام ١٩٩٢، لكنَّه لم يحظَ بإعجاب كبير وسط ما ينبغي أن تكونَ قاعدته الفكريَّة، وقد شاهدت في حفلة ليلة انتخاب كونراد بلاك في فندق سافوي حشداً غير متحمس من المحررين المحافظين والمتبرعين لحزب المحافظين البريطانيين يأكلون المحار ويحتسون الشمبانيا ويتمتمون بدهشتهم.

إنَّ انتخابَ توني بلير ألقى بالنوستالجيين الاسترجاعيين في حزب المحافظين باتجاه الظلّ أكثر، كان بلير تلميذ تاتشر الأكثر أهميَّة من نواحٍ كثيرة، كما أوضح تشارلز مور/ Charles Moore، كاتب سيرة تاتشر.

قَبِل بلير الحاجة إلى الأسواق الحرَّة، وتبنى شراكتها مع الولايات المتحدة، وأخذ حزب العمال إلى الوسط وأبقاه في السلطة لمدة اثني عشر عاماً، لكنَّه لم يملك مقداراً ضئيلاً من أيّ نوع من الحنين في جسده.

لم يهتم بلير بخصوصيَّة إنجلترا المتميزة، فقد روَّج عوضاً عن ذلك لحداثتها، احتضن التغيير الاجتماعيّ، شجع التكامل الاقتصاديّ لبريطانيا مع أوروبا والعالم، ونقل السلطة بعيداً عن لندن من خلال إنشاء برلمان إسكتلندي وجمعيَّة ويلزية، ممَّا أضعف صوت إنجلترا في السياسة الوطنيَّة.

وافقَ بلير على سلسلة من التنازلات التي أنهت الصراع طويل الأمد في إيرلندا الشماليَّة، وقد نجح، من بين أمور أخرى، لأنَّ الناسَ في الشمال، الذين شعروا أنَّهم "أيرلنديون"، حصلوا على جوازات سفر أيرلنديَّة بفضل الاتحاد الأوروبيّ، وجلب ذلك التلاشي في السيادة السلام أخيراً.

كان بلير كارثة بالنسبة للمحافظين النوستالجيين، وقد أفسحَ المزاج المبتهج بالنصر في ثمانينيات القرن الماضي الطريق لغضب حقيقيّ، لم يكن أحد تقريباً أكثر غضباً من سيمون هيفر / Simon Heffer، وهو مؤرّخ لامع وكاتب عمود، ونائب رئيس تحرير "سبيكتاتور / Spectator" في أوائل تسعينيات القرن الماضي ـ سَلفي المباشر في هذا المنصب ـ وصديقاً معطاءً ومخلصاً لمدة طويلة.

أخذني سيمون، الذي كان حبّه للأدب الإنجليزيّ، والأفلام الإنجليزيّة، والموسيقا الإنجليزيَّة عميقاً وأصيلاً، إلى مباراة الكريكت الوحيدة في المقاطعة التي حضرتها مطلقاً، وعرفني على "كوميديا إيلينغ"، وهي مجموعة من الأفلام الإنجليزيَّة المضحكة والأدبيَّة* التي أنتجت في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، وشاهدت بعضها في منزله.

أنا العرابة لأحد أبنائه، مثل ما كانت أنيا بيليكا العرابة لأحد أبنائي تماماً، كان معظم الوقت الذي عملنا فيه سوياً، رغم أنَّه ما زال مرحاً نسبياً، يهاجم جون ميجر / John Major، والاتحاد الأوروبيّ، ودولة بريطانيا الحديثة، وبحلول منتصف العقد الأوَّل من القرن

* "الأفلام الأدبيَّة/ Literate Movies": هي أفلام تستند إلى الكتب والقصص القصيرة والروايات والقصائد وما إلى ذلك (تعليق المترجم).

الحادي والعشرين، حين كنتُ خارج بريطانيا وأراه من حين لآخر فقط، دفعته سنوات عديدة من قيادة حزب العمال إلى الإصابة بسكتة من الغضب، وهي لحظة يصعب فيها تخيل كيف سيتمكن أيّ زعيم محافظ من هزيمة حزب العمال مرة أخرى، إذ كتب في عام ٢٠٠٦، على سبيل المثال، أنّه "بفضل حادث ميلاد سعيد، كنت في التاسعة والنصف من عمري فقط حين انتهت ستينيات القرن الماضي":

"أقول سعيداً، لأنّني عندما أجري دراسة استقصائيّة لدولة يديرها أشخاص أكبر مني بعشر سنوات، والذين ما يزالون منشغلين بالتغاضي عن تعاطي المنشطات، والسلام والحبّ، والانغماس الذاتيّ الهبي المُشعر بالملذات التي اشتهر بها هذا العقد الكئيب، الحمد لله هربت. . . حكومتنا من الطلاب النشطاء السياسيين السابقين. . . ما تزالُ عاجزة كلياً بسبب أفكارها المسبقة الخاصة بالمراهقين، ومملة تماماً حيال ذلك، والضرر الذي يلحقه هؤلاء الناس ـ في افتقارهم للحكمةـ بالمجتمع ما يزال هائلاً، ويتآكل كل جزء منه مثل بلاء المخدرات، التي كانوا يتخبطون بشأنها حتى الآن".

لم تكن المشكلة مجرد مخدرات، فقد رأى كلّ شيء حوله يتدهور: تصحيح سياسيّ متصاعد، فضلاً عن "موجة إجرام وحشيّة"، وفوق ذلك كله، كتب هيفر، تماشياً مع لانغبن: "لقد خرجت فكرة الاستحقاق من الحياة العامّة"، وعلى غرار سلفه الألمانيّ تماماً، فقد حزن على حقيقة أنّ العصر الحديث لم يعد ينتج قادة عظماء،

إذ لا يوجد تشرشل، ولا تاتشر، بل "تدخين المخدرات، والسلام والحبّ، والهيبون ذوو الشعر الكثيف المنغمسون بالملذات" لحزب العمال الذي يتزعمه توني بلير، حتى حين عاد المحافظون إلى السلطة في نهاية المطاف، لم يتجدد إيمانه بالقيادة الحديثة، فقد كتب هيفر، بعد مدة وجيزة من اختيار ديفيد كاميرون كزعيم لحزب المحافظين البريطانيين، أنَّ كاميرون "لم يظهر أبداً ذرَّة من المبادئ في أيّ وقت خلال حياته السياسيَّة"، ثم كرَّر نسخة من الجملة نفسها في عديدٍ من المقالات خلال السنوات السبع التالية، وصولاً إلى لحظة حملة استفتاء خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، لقد أيد "الخروج" ووصف كاميرون بـ "الكاذب" قبل شهر من التصويت، كذلك ندد بالمملكة المتحدة في المقال ذاته ووصفها أنَّها "جمهوريَّة موز" ذات مؤسَّسات لا قيمة لها.

ربَّما كان هيفر عدوانيّ على نحو فريد، غير أنَّ إحباطه الكامن لم يكن فريداً أبداً، كتب روجر سكروتون/ Scruton، فيلسوف محافظ عظيم وصديق قديم آخر، في تلك الحقبة نفسها، كتاباً بعنوان "إنجلترا: مرثية/ England: An Elegy"، الذي كان مؤثراً حقاً، ومكتوباً بفصاحة، وحتى أكثر عمقاً من كتابة هيفر الصحفيَّة.

قابلتُ سكروتون في أواخر الثمانينيات، حين كان يدير مؤسَّسة خيريَّة ترسل الأموال إلى المنشقين في أوروبا الشرقيَّة باستخدام طلاب وغيرهم، كمراسلين، وأصبحت واحدة منهم.

لقد عرفته بوصفه ناقد جريء للشيوعيَّة في وقت لم يكن فيه هذا أمراً شائعاً، لكن كتاب "إنجلترا: مرثيةِ" له موضوع مختلف، إذ

بدأ سكروتون بشرح أنَّ الكتاب "سيقدم إشادة شخصيَّة بالحضارة التي صنعتني والتي ترحل من العالم الآن"، لم يكن هذا تحليلاً أو تاريخاً: إنَّها "خطبة جنازة"، و"محاولة لفهم ما نخسره مع تلاشي شكل حياتنا من منظور فلسفيّ".

كانت الفصولُ التي تلت ذلك مؤلفة بشكل أكثر بلاغة تكريماً لما كانت عليه، كما قال، إنجلترا الميتة أو المحتضرة: الثقافة الإنجليزيَّة، الدين الإنجليزيّ، القوانين الإنجليزيَّة، والشخصيَّة الإنجليزيَّة، كان هذا حنيناً انعكاسياً كلاسيكياً، وانتهى بتدفق غير عادي من اليأس الثقافيّ:

"لقد تحوَّلت إنجلترا القديمة التي قاتل آباؤنا من أجلها إلى بؤر معزولة بين الطرق السريعة، أصبحت المزرعة العائليَّة، التي حافظت على الإنتاج الصغير والمتنوع الذي كان مسؤولاً إلى حدّ كبير عن شكل ومظهر إنجلترا، على وشك الانقراض، وفقدت البلدات مراكزها التي أُغلِقت وخُرّبت، وقد طمست المدن جميعها من خلال الهياكل الفولاذيَّة الضخمة التي تنتصب في الليل فارغة وسط نفايات الخرسانة المضاءة، لم تعد السماء ليلاً مرئية، لكنَّها غُطّيت في كلّ مكان بتوهج برتقالي شاحب، وأصبحت إنجلترا أرضاً محرمة، "مكاناً آخر"، يديرها تنفيذيون يزورون البؤر الاستيطانيَّة على نحو عابر، ويقيمون في فنادق متعددة الجنسيَّات على أطراف أراضٍ مقفرة مضاءة".

لعلَّ حبَّ سكرتون للريف، ودعوته طوال حياته للأنماط المعماريَّة ما قبل الحداثة، وإيمانه بالمجتمعات والمؤسَّسات

المحليَّة قد أدَّى إلى دعمه للاتحاد الأوروبيّ، الذي تسعى سياساته صراحة إلى حماية المنتجات والعلامات التجاريَّة الأوروبيَّة والترويج لها، والحفاظ على العمارة الأوروبيَّة والزراعة، ومعها الريف الأوروبيّ، على الرغم من قوى السوق، ربَّما دعا الاتحاد الأوروبيّ إلى القيام بالمزيد من هذه الأشياء، أو القيام بها بشكل أفضل، وربَّما توصل إلى رؤية الاتحاد الأوروبيّ، مثل ما يفعل الكثير من الأوروبيين، على أنَّه حصن ضد عالم تهيمن عليه الصين والولايات المتحدة والشركات والبنوك العالميَّة التي لا تهتم بالمدن الأوروبيَّة الصغيرة مثل تلك التي أحبَّها سكروتون، لكنَّه، مثل هيفر وكثيرين غيره، توصَّل إلى نتيجة معاكسة.

أصبحَ الاتحادُ الأوروبيُّ في وقت لاحق عقدةً للمحافظين النوستالجيين، وبصرف النظر عن أيّ انتقادات مشروعة لسياسات أو سلوكيَّات الاتحاد الأوروبيّ ـ ويوجد العديد من الانتقادات التي يتعين الإدلاء بها طبعاً ـ لقد أصبحت "أوروبا"، بالنسبة لبعضهم، تجسيداً لكلّ شيء آخر سار على نحو خاطئ، والتفسير لعدم فعاليَّة الطبقة الحاكمة، ضحالة الثقافة البريطانيَّة، قبح الرأسماليَّة الحديثة، والافتقار العام للحيويَّة القوميَّة، كذلك أضعفتْ الحاجة إلى التفاوض بشأن اللوائح البرلمان البريطانيّ.

لم يكن السباكون البولنديون* ومحلّلو البيانات الإسبان العاملون في بريطانيا زملاء أوروبيين يتشاركون ثقافة عامَّة، بل

* السباك والبناء البولندي هي القوالب النمطيَّة للعمالة الرخيصة القادمة من أوروبا الوسطى والشرقيَّة للعمل في أوروبا الغربية، وكلاهما رمزٌ للخوف من أنَّ العمالة الرخيصة في أوروبا الشرقيَّة تهدد وظائف الأوروبيين الغربيين (تعليق المترجم).

مهاجرين يهددون هويَّة الأمة، ومع مرور الوقت، أصبحت هذه الآراء محسوسة على نحو أكثر عمقاً من أيّ وقت مضى، لدرجة أنَّها أحدثت انشقاقات جديدة ببطء، وعدلت العلاقات، وغيَّرت العقول، ألقى زوجي خطاباً عام ٢٠١٢ في مؤتمر يتوسل فيه بريطانيا ليس للبقاء في الاتحاد الأوروبيّ فحسب بل لقيادته، إذ قال إنَّ الاتحاد الأوروبي "قوة ناطقة باللغة الإنجليزيَّة، وإنَّ السوق الموحدة فكرة بريطانيَّة. . . يمكنكم، إن رغبتم فقط، أن تقودوا سياسة أوروبا الدفاعيَّة"، أعيدت طباعة الخطاب في "التايمز"، وكتب لي هيفر ملاحظة غاضبة حول هذا الموضوع، ثم كتبتُ له لاحقاً بعض الملحوظات الغاضبة أيضاً، ولم نتحدث مع بعضنا البعض لمدة طويلة.

بالنسبة لأولئك الموجودين في إنجلترا ـ وكانوا في الغالب في إنجلترا، وليس في إسكتلندا أو ويلز أو أيرلندا الشماليَّة ـ الذين رأوا العالم من خلال هذا المنظور، تحوَّلت الحرب ضد "أوروبا" ببطء إلى صراع جريء، مع أصداء واضحة من الماضي، لقد أثبتت الثقافة الشعبيَّة بالفعل أنَّ الحربَ العالميَّةَ الثانية هي الحدث المركزيّ في التاريخ الحديث، وتتناسب حملة خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ بشكل جيد مع هذه القصة، إذ أُطلق فيلمان عن تشرشل وفيلم عن "دونكيرك" في مرحلة الهدوء بين الاستفتاء وخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، أصبح كتاب "سيرة تشرشل الذاتية" لأندرو روبيرتس من أكثر الكتب مبيعاً عام ٢٠١٨، وقد كانت سيرة تشرشل الذاتيَّة لجونسون جيدة للغاية قبل بضع سنوات.

قارن ويليام كاش، وهو عضو برلمانيّ في الحزب المحافظ كرَّس حياته المهنيَّة لسحب بريطانيا من أوروبا، عضويَّة بريطانيا في الاتحاد الأوروبيّ بـ "الاسترضاء" في مقابلة في عام ٢٠١٦، وأشار في المقابلة ذاتها إلى ذكرى والده، الذي توفي على شواطئ نورماندي، بينما أوضح سبب عدم رغبته في العيش في "أوروبا التي تديرها ألمانيا" اليوم، وصف هيفر، في العمود الأخير الذي كتبه قبل الاستفتاء، الاتحاد الأوروبيّ، وهو منظمة ساعدت بريطانيا في قيادتها لجيلين، بأنَّه "قوَّة أجنبيَّة هيمنت على محاكمنا وحكومتنا المنتخبة"، ووَصَف دعاة الخروج أنَّهم ممثلون "لطفرة في الوعي القومي لم نعرفها منذ الحرب العالميَّة الثانية"، وأعلن مستحضراً روح البليتز: "هذه هي لحظة مجدنا".

أدَّى هذا التحول نحو الحنين الاسترجاعيّ إلى رفض هيفر لحزب المحافظين قبل عام ٢٠١٦ بمدة طويلة، وفي مرحلة معينة من تسعينيات القرن الماضي، أخبرني أنَّه سيصوّت لصالح حزب استقلال المملكة المتحدة، الحركة السياسيَّة ذات القضيَّة الواحدة التي سعتْ إلى إخراج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، رغم أنَّني لا أعرف ما إذا كان قد فعل ذلك بالفعل؛ أتذكر أنَّني فوجئت إذ لم أسمع مطلقاً عن هذا الحزب/ UKIP في ذلك الوقت، إذ كان منظمة هامشيَّة جداً آنذاك، عمل حزب استقلال المملكة المتحدة/ UKIP، من الناحية العمليَّة، بوصفه حزب القوميَّة الإنجليزيَّة، وكان اهتمامه الفعليّ هو ظهور اللغة الإنجليزيَّة مجدداً بقدر اهتمامه بـ "الاستقلال" البريطانيّ، نايجل فاراج، مؤسس الحزب/ UKIP

وزعيمه، كان تاجراً ثرياً في المدينة، وابن سمسار البورصة الذي كان يرتدي سترات التويد، صوَّر نفسه يشرب البيرة في الحانات، وادَّعى بنفاق أنَّه يتحدث نيابة عن عامَّة الناس وضدّ "النخبة"، لم يشارك حنين سكروتون البيركي الرثائي، لقد استوعب غضب هيفر من الأشخاص الذين يديرون بريطانيا واستغلها سياسياً، لم يكن مثقفاً بأيّ حال من الأحوال، لكنَّه كان شخصاً، على غرار أحد كتبة جوليان بيندا، قولب وشكل أفكار الآخرين لتصبح.

يوجد في بعض الأحيان مسحة عنصريَّة لهذا النوع من القوميَّة الإنجليزيَّة: بحكم التعريف، لا يمكن أن يوجد "إنجليز" سود، حتى لو كان يوجد بريطانيون سود، لكن هذا لم يتعلق في الحقيقة بلون بشرة أيّ شخص، إذ استبعد مفهوم "الإنجليزوية" أيضاً الإيرلنديين البريطانيين في بلفاست، إضافة إلى الأسكتلنديين البريطانيين في جلاسكو وأيّ شخص آخر في طرف المملكة المتحدة الغيلي، حتى أنَّ أتباعها أصبحوا يعتقدون إن كان ترك الاتحاد الأوروبيّ يقسم المملكة المتحدة ـ لقد علموا على الدوام أنَّ الأمر قد يحدث على هذا النحو ـ إذن فليكن الأمر كذلك، وأعرب جون أوسوليفان، كاتب خطابات سابق لمارجريت تاتشر، عن استعداده لدفع هذا الثمن أيضاً، قال لي أوسوليفان منذ سنوات: "أوه، ستذهب أسكتلندا، وسنواصل المهمة".

لم يكن احتمال حدوث فوضى دستوريَّة وسياسيَّة مجرد أثر جانبي مؤسف بالنسبة للبعض: لقد كان جزءاً من استئناف خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، تأثر دومينيك كامينغز، مرتدياً

الهوديز ونظارات شمسيَّة داكنة، بأسلوب مختلف تماماً عن أسلوب المحافظين النوستالجيين المكسو بالتويد، مع أحذيتهم من نوع بروغ وستراتهم من علامة باربور التجاريَّة، وعلى حد علمي، لم يُظهر مطلقاً أيّ شوق للماضي على الإطلاق، لكن من الناحية الاجتماعيَّة، كان كامينغز ـ أحد كبار خبراء التدوير في حملة الخروج، ثم مستشار جونسون الأساسي ـ وثيق الصلة بالمحافظين النوستالجيين، زوج محررة في "سبيكتاتور/ Spectator"، وصهر بارون، وابن شقيق قاضٍ مشهور حاصل على درجة جامعيَّة في العلوم الإنسانيَّة من جامعة أكسفورد، والأهم من ذلك، أنَّه شاركهم جزءاً من إحساسهم، ولا سيَّما إيمانهم أنَّ شيئاً جوهريَّاً يتعلَّق بإنجلترا قد انتهى منذ أمد بعيد، كتب كامينغز سلسلة من التدوينات في المدة التي سبقت حملة خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، وفي الأشهر التي تلت ذلك، عجت تدويناته بالحديث عن التكنولوجيا والمصطلحات العسكريَّة، التي أثارت الازدراء على البرلمان البريطاني والسياسيين البريطانيين والخدمة المدنيَّة البريطانيَّة، باستخدام لغة مختلفة تماماً عن هيفر ولكنَّها تنشر مستوى الغضب نفسه تماماً، لقد كتب عن "الخلل الوظيفيّ المنهجيّ في مؤسساتنا وتأثير غير الأكْفَاء البغيضين"، ووصف صناعة السياسة البريطانية بأنَّها "الأعمى يقود العميان".

رغم أنَّ كامينغز لم يدعُ نفسه مطلقاً واحداً منهم، إلا أنَّه رأى أوروبا من نفس المنظور مثل النوستالجيين الاسترجاعيين الآخرين، إذ شجبَ كامينغز في إحدى مقالاته على الإنترنت التي نُشرت عام

٢٠١٩، قبل تعيين بوريس جونسون له كبير المستشارين الخاصين، الاتحاد الأوروبيّ لعرقلته بريطانيا: "إنَّ المؤسَّساتِ القديمةَ مثل الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبيّ ـ المبنيَّة على افتراضات أوائل القرن العشرين حول أداء البيروقراطيَّات المركزيَّة ـ غير قادرة على حل مشاكل التنسيق العالميَّة"، وخلص في ختام مقالته إلى: إعادة بناء كلّ شيء، من المدارس إلى الخدمة المدنيَّة إلى البرلمان ذاته.

لكن سواء أكان يأسهم الثقافيّ غاضباً أو رثائياً، وسواء أكان حنينهم استرجاعيّاً أم انعكاسيّاً ـ سواء أكانوا كَتَبة مثل كامينغز أو تفصلهم عدة خطوات عن السياسة، مثل سكروتون ـ فقد وضع المحافظون النوستالجيون الأساس لحملة خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، التي بدت بالنسبة إلى مؤيديها الفرصة الأخيرة لإنقاذ البلد، مهما تطلب الأمر، ومهما كان الثمن الذي توجب دفعه.

إنَّ كلاً من "مؤسَّسة" حملة المحافظين "التصويت على المغادرة"، التي يقودها جونسون وزميله من حزب المحافظين مايكل غوف، وحملة حزب استقلال المملكة المتحدة (UKIP) الخاصة، بقيادة نايجل فاراج، تطلقان الأكاذيب؛ إذ ادَّعى جونسون أنَّه إن غادرنا الاتحاد الأوروبيّ، فسيكون هناك ٣٥٠ مليون جنيه إسترليني إضافية أسبوعياً ـ رقم وهمي ـ لهيئة الخدمات الصحيَّة الوطنية، وإن بقينا في الاتحاد الأوروبيّ، فسنضطر لقبول تركيا كعضو، وهو أمر غير صحيح أيضاً، ظهر فاراج أمام ملصق يُظهر حشوداً غفيرة من السوريين يتجهون نحو أوروبا، على الرغم من

عدم وجود سبب لانتهاء أيّ منهم في المملكة المتحدة، التي لم تكن جزءاً من منطقة شنغن، المنطقة الخالية من الحدود في أوروبا، قارن كامينغز لاحقاً في مقابلة هذه الحملة بـ"الدعاية السوفيتية"، غير أنَّ حملته الخاصَّة اعتمدت أيضاً على إذكاء مخاوف الهجرة والوعود الكاذبة بشأن الإنفاق على الرعاية الاجتماعيَّة، بل ربط الاثنين عمداً، ومن بين أمور أخرى، أعدت حملته فيديو زعم أنَّ "تركيا تنضم إلى الاتحاد الأوروبيّ، لا تستطيع مدارسنا ومستشفياتنا أن تواجه هذا بالفعل"، على الرغم من أنَّ ذلك لا يمت للواقع بصلة، فقد شوهد ٥١٥٠٠٠ مرة.

كانت إعادة تشكيل الأفكار إلى مشاريع سياسيَّة مسألة كتابة منشورات في يوم من الأيام، إذ كانت حملة خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ نهاية تلك الفكرة وبداية شيء جديد، لقد غشت حملة "التصويت على المغادرة"، منتهكةً القوانين الانتخابيَّة من أجل إنفاق المزيد من الأموال على الإعلانات المستهدفة على "فيس بوك/ Facebook"، عَرضت على محبي الحيوانات صوراً لمصارعي الثيران الإسبان، وعُرض على شاربي الشاي يد قابضة موسومة بعلم الاتحاد الأوروبيّ، وممدودة لتناول فنجان شاي بريطاني، جنباً إلى جنب مع شعار غاضب: "يريد الاتحاد الأوروبيّ قتل فنجان الشاي خاصتنا"، إذ استخدمت حملة "التصويت على المغادرة" البيانات التي سرقتها شركة "كامبريدج أناليتيكا" للمساعدة في هذا الاستهداف، استفادت حملات خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ جميعها من عمليَّات التصيد الروسيَّة، على الرغم من

أنَّها عكست في الغالب ما تفعله حملة "التصويت على المغادرة" بالفعل، كانت أجواء الحملة أشدّ قبحاً من أيّ وقت في التاريخ البريطاني الحديث، قُتلت جو كوكس، وهي عضوة في البرلمان، في أوج الحملة على يد رجل أصبح مقتنعاً أنَّ خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ يعني التحرر و "البقاء" يعني أنّ إنجلترا ستدمر على يد جحافل من الأجانب ذوي البشرة السمراء، تماماً مثل قاتل بافل أداموفيتش، رئيس بلدية غدانسك، الذي أصبح متطرفاً بسبب الخطاب الغاضب من حوله.

في ذلك الوقت وما بعده، أبقى الناشطون الذين صمموا على استرجاع العظمة الإنجليزيَّة تركيزهم على هدف المغادرة، ومن خلال معرفة بعضهم ـ ومعرفة مدى اهتمامهم الشديد بإنجلترا، ومدى اقتناعهم أنَّ حضارتهم في خطر ـ فهمت طريقة تفكيرهم، حتى لو لم أتفق معهم، إنَّهم يعتقدون أنَّ النظام السياسيّ البريطاني فاسد للغاية بحيث لا يستطيع إصلاح نفسه، وقد تغيرت البلاد إلى درجة لا يمكن التعرف عليها، إذ أخذ جوهر الأمَّة في الاختفاء.

لكن إن كان كلّ هذا صحيحاً، فلن يتمكن من إيقاف هذا الفساد إلا ثورة عميقة، ثورة قد تغير طبيعة الدولة ذاتها من حدودها، وتقاليدها، وربما حتى مؤسَّساتها الديمقراطيَّة، وإن كان خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ هو تلك الثورة، فإن أيَّ شيء يؤدي إلى خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، من ادعاءات الإنفاق الكاذبة إلى التلاعب بالبيانات إلى الهجمات على القضاء إلى الأموال الروسيَّة، كان مقبولاً، استمرَّ احتمال التغيير المتطرف في إلهامهم

وتحفيزهم، حتى حين تعرضوا للمشاكل، كانت الديمقراطيَّة، في كتابات وخطابات بعض مؤيدي خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، هي السبب الأساسيّ وراء خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، كتب هيفر سابقاً في عام ٢٠١٠ أنَّ "أوروبا تقدَّمت إلى حدّ كبير من خلال كونها معادية للديمقراطيَّة"، وأنَّ أوروبا قد "رُوِّست"، وأنَّ بريطانيا بحاجة إلى الهروب من أجل ديمقراطيتها، قال مايكل غوف، عضو البرلمان عن حزب المحافظين، للجمهور في عام ٢٠١٦: إنَّ "عضويتنا في الاتحاد الأوروبيّ تمنعنا من اختيار شخص يتخذ القرارات الحاسمة التي تؤثر على حياتنا بأكملها"، فقد أمِل، في مقابل ذلك، أن يؤدي انتصار خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ إلى "التحرير الديمقراطيّ لقارة بأكملها"، لم يسع مؤيدو خروج بريطانيا في أيّ وقت إلى تحقيق هدفهم من دون إجراء استفتاء.

لكن بصرف البصر عن مدى دعمهم للديمقراطيَّة من الناحية النظريَّة، فإنَّ عدداً لا بأس به من مؤيدي خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، ولا سيَّما أولئك الذين عملوا في الصحيفة الشعبيَّة/ Tabloid، شعروا بالاشمئزاز من المؤسَّسات الديمقراطيَّة الفعليَّة للمملكة المتحدة من الناحية العمليَّة، إذ حين حكم ثلاثة قضاة بريطانيين، في تشرين الثاني عام ٢٠١٦، بأنَّه على البرلمان البريطاني إعطاء موافقته قبل أن تنسحب الحكومة رسمياً من الاتحاد الأوروبيّ، نشرت صحيفة ديلي ميل، وهي صحيفة يديرها مؤيدو خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، صفحة رئيسة

استثنائيَّة: صور ثلاثة قضاة يضعون باروكاتهم وأثوابهم مرفقة بعنوان رئيس: "أعداء الشعب".

لم يكن للقرار علاقة بـ"البريكست"، بل خلافاً لذلك، فقد أيَّد سيادة البرلمان، بيد أنَّ القضاة الثلاثة ـ بمن فيهم اللورد كبير القضاة ورئيس محكمة الاستئناف، مع احترام ألقابهم الكاملة ـ تعرَّضوا لانتقادات شديدة في المقالة المصاحبة، ذات يوم، كانت هذه هي أنواع الشخصيَّات التأسيسيَّة التي يحترمها المحافظون البوركيون، أمَّا الآن فإنَّهم دخلاء، وغرباء، ونخب "بعيدة عن الواقع" تسعى إلى إحباط البريطانيين "الحقيقيين"، إذ وُصِف أحدهم بشيء من الاستهزاء أنَّه "مبارز أولمبي سابق مثليّ الجنس علناً"، ولم يكن السلك القضائيّ هو المؤسَّسة البريطانيَّة العريقة الوحيدة التي تعرضت للاعتداء، إذ هاجم آخر ورد على الصفحة الأولى في الديلي ميل مجلس اللوردات تحت عنوان "سحق المخربين".

بما أنَّ المفاوضات مع الاتحاد الأوروبيّ قد طال أمدها، فقد ازداد احتقار مؤيدي خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ للمؤسَّسات البريطانيَّة، وأثبتت عمليَّة إخراج بريطانيا من أربعين عاماً من المعاهدات أنَّها أصعب بكثير ممَّا وعدت به الشعارات الانتخابيَّة المبسطة، كما اتضح فيما بعد، أنَّ قلة قليلة من المحافظين النوستالجيين قد فهموا حقاً أوروبا أو السياسة الأوروبيَّة، وكانت توقعاتهم حول ما سيحدث بعد ذلك كلّها خاطئة، كتب هيفر عموداً يجادل فيه بأنَّ خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ سيؤدي إلى موجة من الاستفتاءات المقلّدة في البلدان الأوروبيَّة الأخرى، لكن

أدَّى ذلك في الواقع إلى دعم متزايد للاتحاد الأوروبيّ، إذ أخبرني أحد أعضاء مجلس اللوردات من حزب المحافظين بعد التصويت أنَّه تحدَّث شخصيّاً مع كبار المصنّعين الألمان وتلقى تأكيدات تنص على أنَّ أيّة ترتيبات متخذة ستكون في صالح بريطانيا، في الحقيقة، بدأ كبار المصنعين الألمان يتحدثون عن سحب الاستثمارات من بريطانيا، لم يفكر أحدٌ مطلقاً في إيرلندا الشماليَّة خلال حملة الاستفتاء، أو الحاجة إلى بناء حدود جمركيَّة بريطانيَّة أيرلنديَّة جديدة إن كانت بريطانيا ستغادر السوق الموحَّدة، وحالما بدأت المفاوضات، ظهرت هذه المشاكل على الفور بوصفها القضايا المركزيَّة، أدَّى إدراكهم بأنَّهم قد قلَّلوا من شأن التكاليف وبالغوا في تقدير السهولة التي يمكن بها سحب بريطانيا من أوروبا إلى غرق عدد قليل من مؤيدي الخروج البريطاني في الصمت، فقد أخبرتني إحدى الصحفيات سراً أنَّها غيرت رأيها حول خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، على الرغم من أنَّني لحظت أنَّ نبرة كتاباتها العامَّة لم تتغير، بيد أنَّ آخرين قد انجذبوا على نحوٍ أكثر حدّة إلى فكرة الفوضى، لم يعد خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ "بدون اتفاق" ـ الذي يعني خروج بريطانيا من جميع معاهداتها مع أوروبا، ممَّا أدى إلى ارتفاع تلقائي في التعريفات الجمركيَّة وبلبلة قانونيَّة لملايين الأشخاص ـ نتيجة مؤسفة، يجب تجنبها إن أمكن، فقد أرادوا التشويش، أرادوا التأثير، أرادوا تغييراً حقيقيّاً، وكانت هذه هي اللحظة التي قد يتسنى لهم من خلالها تحويل حنينهم إلى ماض أفضل إلى مستقبل أفضل.

يوجد إصدارات مختلفة لهذه الرغبة في الفوضى، إذ اعتقد البعض أنَّ الانخفاض المفاجئ في النشاط الاقتصاديّ سيكون مفيداً لروح الأمة، الجميع يشحذون هممهم، يشدون أحزمتهم، ويعملون بجهد أكبر، كتبت مجموعة من النواب المؤيدين لخروج بريطانيا عن مواطنيهم: "إنَّ البريطانيين من بين أسوأ العاطلين عن العمل في العالم": لقد احتاجوا إلى صدمة، ومرحلة مشقة، وتحدٍ، هذا سيعيد بريطانيا ـ أو على الأقلّ إنجلترا ـ إلى جوهرها، ويكشف عن شخصيَّة البلاد الشجاعة، كما أنَّه سيجبر الدولة الحديثة الفاسدة الكسولة على استعادة "ديناميكيَّة أولئك الفيكتوريين الملتحين"، على حدّ تعبير جونسون.

لقد سادَ نوعٌ مختلفٌ من الخيال الكارثيّ على الجانب الآخر من الطيف السياسيّ، إذ ينحدر زعيم حزب العمال، جيريمي كوربين، من تراث ماركسي رحب تاريخيّاً بالكارثة لأنَّ الكارثة يمكن أن تؤدي إلى تغيير جذريّ، وعلى الرغم من أنَّهم لم يصرّحوا بذلك علناً، فقد أخبر توم واتسون، نائب زعيم حزب العمال آنذاك، الصحفيّ نيك كوهين أنَّ جزءاً من قيادة حزب العمال "يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنَّه إذا تسبَّب خروج بريطانيا في حدوث الفوضى، فسوف يتجه الناخبون إلى اليسار الراديكالي"، يبدو أنَّ مجموعةً فرعيَّةً من اليسار المثقف البريطانيّ تأمل، على الأقلّ، في أن يؤدي خروج بريطانيا إلى إخراج البلاد من نظامها الاقتصاديّ الرأسماليّ، فعلى سبيل المثال، نشرت مجلة "جاكوبين" اليساريَّة مقالاً جادلت فيه أنَّ خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي يوفر "فرصة لا تأتي إلا

مرَّة واحدة في العمر لإظهار أنَّ الانفصالَ الجذريّ عن الليبراليَّة الجديدة، وعن المؤسَّسات التي تدعمها، أمرٌ ممكن".

ما يزال آخرون يأملون في أزمة عميقة، لكن بنتيجة مختلفة: أن تؤدي الفوضى إلى "اشتعال اللوائح"، والتخلي عن دولة الرفاهية، وفرص جديدة لصناديق التحوط والمستثمرين، فيمكن أن تصبح بريطانيا الملاذ الضريبيّ الخارجيّ لأوروبا، أنموذج "سنغافورة-التايمز"، مثل ما قال لي روبرت رولاند، عضو البرلمان الأوروبيّ عن حزب بريكست، ستكون الأقليّة الثريّة سعيدة، وسيتعين على أيّ شخص آخر أن يتكيف ببساطة، كلّ شيء سيكون أفضل.

لم تكن هذه وجهات نظر هامشيَّة، ولم تُعد مجنونة، فقد أعربت شخصيَّات مؤسِّسة عن كلّ هذه الخيالات: في أوقات مختلفة، رئيس الوزراء، وزعيم المعارضة، والممولون الأثرياء، لم يصوت أحد لهذا النوع من التشويش طبعاً، ولم يُناقش خلال حملة الاستفتاء، إذ كانت غالبيَّة أعضاء البرلمان ضده، كانت معظم البلاد ضده، لكنَّه أصبح تدريجياً، بالنسبة للعديد من مؤيدي خروج بريطانيا، الهدف الحقيقيّ، وفي حال وقفت مؤسَّسات الدولة البريطانيَّة عقبة في الطريق، فإنَّ المؤسَّسات ستعاني.

لا أظن أنّه من قبيل الصدفة، في هذا الوقت تقريباً، أنَّ عدداً قليلاً من المحافظين البريطانيين ـ أعضاء بارزون في حزب المحافظين، وتاتشريون سابقون، ومحاربو الحرب الباردة السابقون ـ قد أصبحوا مفتونين بالسياسات غير الديمقراطيَّة في أماكن أخرى

أيضاً، تخلت حكومة تيريزا ماي عن الفكرة القديمة القائلة إنَّ على بريطانيا أن تدافع عن الديمقراطيَّة حول العالم بسرعة مذهلة، فلم يبذل جونسون، خلال مدة ولايته القصيرة والكارثيَّة كوزير للخارجيَّة، أي جهود في هذا الصدد على الإطلاق، كان الاهتمام الوحيد في سياسة بريطانيا الخارجيَّة، بعد عام ٢٠١٦، هو خروجها من الاتحاد الأوروبيّ، وعلى سبيل المثال: عوضاً عن استخدام نفوذه الكبير في وارسو لإقناع حزب "العدالة والقانون" البولندي بالعزوف عن خطة "تعبئة محاكمها" ـ كان الحزبان جزءاً من التكتل السياسي نفسه في البرلمان الأوروبيّ ـ فقد هبَّ حزب المحافظين البريطانيين للدفاع عنه.

يتطلَّبُ هذا تحولاً كبيراً في القيم بالنسبة لفئة قليلة من الناس، على سبيل المثال: كان عضو البرلمان الأوروبيّ عن تيار المحافظين البريطانيّ (Tory)، دانيال حنان، بليغاً في شجبه للأكاذيب الشيوعيَّة في الماضي، وعلى غراري، ساعد حنان سكروتون في إرسال الأموال إلى المنشقين في أوروبا الشرقيَّة، لكنَّه تجاهل أنواع الأكاذيب نفسها حين صدرت عن زملائه في حزب "العدالة والقانون" في البرلمان الأوروبيّ، قال لي حين سألته عن ذلك في كانون الثاني عام ٢٠٢٠، خلال أسبوعه الأخير في مبنى البرلمان في ستراسبورغ: "لا أريد الخوض في السياسة البولنديَّة المحليَّة".

ذهبَ بعضُ البرلمانين البريطانيين في أوروبا إلى أبعد من ذلك، فقد صوَّت أعضاء البرلمان الأوروبي من كلّ من حزب المحافظين وحزب استقلال المملكة المتحدة عام ٢٠١٨ لحماية

أوربان من التعرض للرقابة من الاتحاد الأوروبيّ بسبب تقويضه استقلال القضاء في بلاده على نحوٍ غير قانوني، لماذا يفعل ذلك سياسيون ينتمون إلى بلد مكرس لسيادة القانون؟ لقد أرادوا "التأكيد على حق دولة ديمقراطيَّة في رفض تدخل بروكسل"، على حد تعبير عضو سابق في حزب استقلال المملكة المتحدة (UKIP) في البرلمان الأوروبيّ.

وافقتُ مجلة "سبيكتاتور / Spectator"، مكان عملي القديم، في الوقت ذاته تقريباً، بسرور على إقامة حفل مسائيّ برعاية مؤسَّسة "نهاية القرن/ Századvég"، وهي مؤسَّسة تروّج بإخلاص لمصالح "فيديسز" (تحالف الديموقراطيين الشباب/ Fidesz)، الحزب المجريّ الحاكم، وقد أغلقت المؤسَّسة مجلتها الخاصَّة ذات مرة بذريعة أنَّها نشرت مقالاً ينتقد الحكومة، صرَّح المحرر: "ستكون مهمة هذا المنشور دعم توجه الحكومة"، لم يكن موضوع فعاليَّة "Spectator_Századvég" هو حريّة الصّحافة بل سياسة الهجرة، وهو الموضوع الذي تستخدمه القيادة المجريَّة لمناشدة المحافظين المناهضين للهجرة في أوروبا الغربيَّة، على الرغم من أنَّ المجر نفسها ليست وجهة للهجرة الجماعيَّة ولم تكن كذلك مطلقاً.

أعقب الحفلُ ما كان يعدّ، بكل المقاييس، أمسية مخمورة في السفارة المجريَّة، رحَّب فيه السفير بالكتّاب والمذيعين البريطانيين حول الطاولة بصفتهم "محافظين"، فكلّهم يناضلون للهدف نفسه.

حين سألتُ محرر "سبيكتاتور"، فريزر نيلسون/ Fraser Nelson، عن الحفل، نفى بشدّة الشعور بذرة من التعاطف مع السلطويَّة المجريَّة،

على الرغم من أنَّه لم يتخلَّ عن الجمعيَّة (أو رسوم الرعاية على الأرجح)، فقد سمح لي بكتابة مقال يجادل فيه بأنَّ بعض مؤيدي خروج بريطانيا كانوا "يوفرون غطاءً فكريّاً لحزب سياسيّ فاسد بصورة جذريَّة، وهو حزب لن يغادر الاتحاد الأوروبيّ طواعية مطلقاً لأنَّ قادته قد ابتكروا العديد من الطرق الذكية لسرقة موارد الاتحاد الأوروبيّ الماليَّة نيابة عن أصدقائهم"، أثار هذا غضب السفير المجريّ في لندن، الذي حاصرني في حفلة كتاب ـ إذ دعاه صديق آخر من أصدقائي ـ لاتهامي بكتابة شيء سيجعل من العسير عليه القيام بعمله، لم يكن هذا الاتهام باطلاً.

جذب المجريون أيضاً بعض الأشخاص الذين دفعهم غضبهم أو خيبة أملهم في بلادهم للبحث بفعاليَّة أكبر عن بدائل في مكان آخر، كان أحدهم جون أوسوليفان/ John O'Sullivan ـ جون نفسه الذي كان متعجرفاً جداً بشأن خروج أسكتلندا من المملكة المتحدة ـ أحد كتاب خطابات السيدة تاتشر، وكاتبها الخفي، ومصمم لامع، وكان محرراً لأكثر المجلات الأمريكيَّة المحافظة أهمية في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، "ناشيونال ريفيو/ National Review"، لقد استأجره زوجي، بصفته هذه، ذات مرة بوصفه "مراسلاً متجولاً"؛ جاء إلى حفل زفافنا، كان يتمتع بسمعة طيبة يستحقها عن جدارة كشخص سعيد ـ يتذكر صديق مشترك زيارة شقته ويشير إلى أنَّه لا يملك أيَّ شيء في ثلاجته باستثناء زجاجة شمبانيا ـ إنَّه متحدثٌ رائعٌ وكاتبٌ ممتازٌ، لكن في نهاية مسيرته المتميزة، وجد أوسوليفان، في السبعينيات من عمره آنذاك،

طريقه إلى بودابست.

بدأ العمل في "معهد الدانوب" في بودابست، المؤسَّسة الفكريَّة التي أنشأتها وموّلتها الحكومة المجريَّة من خلال مؤسَّسة أخرى، ووصفها لي أنَّها "محافظة في الثقافة، وليبراليَّة كلاسيكيَّة في الاقتصاد، وأطلسيَّة في السياسة الخارجيَّة"، لكن معهد الدانوب موجود، من الناحية العمليَّة، لجعل الحكومة المجريَّة مقبولة للعالم الخارجيّ، وليس لها تأثير داخل البلاد، إذ يصف الأصدقاء المجريون وجودها في بودابست أنَّه "هامشيّ"، وبصفة عامَّة لا يقرأ المجريون منشوراتها (الشحيحة بشكل واضح) باللغة الإنجليزيَّة، وأحداثها غير ملحوظة وتمر من دون ذكر في أغلب الأحيان، لكن لدى أوسوليفان مكتب وشقة في بودابست، لديه الوسائل لدعوة العديد من أصدقائه ومعارفه، كانوا جميعهم كتاباً ومفكرين محافظين، لزيارته في واحدة من أعظم وأجمل مدن أوروبا، ليس لديّ أدنى شك في أنَّهم حين يصلون إلى هناك، فإنَّ أوسوليفان هو المضيف المرح والذكي كما كان دائماً.

دافع أوسوليفان عن أوربان مرات عدة، يُدرج ذلك في مقدّمة لكتاب قصير عن رئيس الوزراء المجريّ، ويبدأ هذا الدفاع، بشكل أو بآخر، على النحو التالي: كلُّ ما سمعتموه عن المجر خاطئ، إذ يوجد الكثير من الحريَّة، لا ينتقد الأوروبيون الآخرون المجر بسبب الفساد، أو بسبب كراهية الأجانب التي رسّختها الحكومة بعناية، بل لأنَّهم لا يحبون قيم أوربان "المسيحيَّة"، استمالت هذه النقطة الأخيرة بقوّة الكتاب الأمريكيين المحافظين

مثل كريستوفر كالدويل/ Christopher Caldwell الذي أنتج مقالاً طويلاً في مجلة "كليرمونت ريفيو/ Claremont Review"، بعد دعوة أوسوليفان له إلى بودابست، يشيد بهجوم أوربان على "الهياكل الاجتماعيَّة المحايدة وتكافؤ الفرص"، وهو تعبير ملطف عن المحاكم المستقلة وسيادة القانون، وأشاد كالدويل أيضاً بـ "المجتمع العضويّ" الصوفيّ الذي يعتقد أنَّ أوربان قد أسَّسه، مع ذلك لا يمكن سوى لأجنبي أن يطلق على دولة أوربان المغلقة والفاسدة وذات الحزب الواحد ـ عالم يصبح فيه أصدقاء رئيس الوزراء وعائلته وأقرباؤه أثرياء، ويُرقَّى الناس وتُخفض رتبتهم اعتماداً على ولائهم للحزب، ويُستبعد أيّ شخص آخر ـ "مجتمع عضويّ"، ولا يمكن سوى لمنظر أيديولوجيّ الاعتقاد أنَّ جيران المجر الأوروبيين منزعجون من "مسيحيَّة" أوربان؛ إنَّهم منزعجون في الحقيقة من كراهية الأجانب المرسخة من الحملات المناهضة لسوروس وأوروبا، منزعجون من التلاعبات القانونيَّة التي منحت رئيس الوزراء المجريّ سيطرة كاملة تقريباً على الصحافة والعمليَّة الانتخابيَّة، ومنزعجون من فساده واستخدامه لأموال الاتحاد الأوروبيّ لتمويل المقربين، وفي ربيع عام ٢٠٢٠، شعروا بالغضب حين استخدم أوربان فيروس كورونا بوصفه ذريعة لمنح حكومته سلطات شبه ديكتاتوريَّة، بما في ذلك سلطة اعتقال الصحفيين الذين انتقدوا استجابة الحكومة للوباء، كما أنَّ النفاق يثير الغضب: يهاجر الكثير من غير الأوروبيين وغير المسيحيين ـ سوريين وماليزيين وفيتناميين ـ إلى المجر، ليس عليهم إلا أن يدفعوا.

حين وصل أوسوليفان إلى بودابست لأوّل مرة عام ٢٠١٣، كان معهدُ الدانوب مكاناً غريباً بالنسبة لشخص مميز مثله لينتهي به الحال هناك، لكن بعد أن أنشأت الحكومة المجريّة نظاماً سياسيّاً لا يمكن فيه لأيّ حزب معارض أن يفوز، بعد أن جرد مكتب التدقيق الحكوميّ أحزاب المعارضة من تمويل حملتها الانتخابيّة، وبعد أن سيطرت شركة قابضة حكوميّة على معظم وسائل الإعلام المجريّة، بعد أن أجبرت الحكومة المجريّة جامعة أوروبا الوسطى على مغادرة البلاد، وبعد أن أثرت عائلة أوربان وأصدقاؤه أنفسهم بعقودٍ حكوميّة، بعد أن استخدم الحزب الحاكم العنصريّة ومعاداة السامية الخفية في حملته الانتخابيّة (كان أوربان يقاتل "عدواً" لم يذكر اسمه، إنّه "ماكر" و"دولي" و"يضارب بالمال")، وبعد أن رحّب أوربان ببنك روسيّ ذي صلات جاسوسيّة، بعد أن قوّض السياسة الأمريكيّة في أوكرانيا، وبعد كلّ ذلك، أصبح وضع أوسوليفان في معهد الدانوب غريباً، والخط الذي باعه لزيارة الأصدقاء أغرب من ذلك، لقد كان السبب الوحيد الذي يمكن تصوره لتمويل الحكومة المجريّة معهد الدانوب، حينئذ، هو تمويه طبيعة الحكومة المجريّة الحقيقيّة التي لم تكن محافظة مطلقاً بالمعنى الأنجلو ساكسوني القديم، وليست ليبراليّة كلاسيكيّة في الاقتصاد، ولا أطلسيّة بصفة خاصة أيضاً.

استغرقَ الأمرُ مني بعض الوقت للتواصل مع أوسوليفان، لأنّه يتنقل كثيراً، وحالما تمكنا من التحدث معه عبر الهاتف في خريف عام ٢٠١٩، كان على متن سفينة سياحيّة، وكان الوقت عنده متأخراً

جداً، لقد أجرينا محادثة غير سارة، رغم أنَّها لم تكن مزعجة مثل تلك التي أجريتها مع ماريا شميت، لم يطالب بإعداد تسجيله الخاص، ولم ينشر نسخة غير دقيقة بعد ذلك، لكنَّه ردَّ على كلّ سؤال برواية أخرى من "الماذالوية"، وهي تقنية بلاغيَّة اشتهرت عند المسؤولين السوفييت، إذ يُردُّ على الأسئلة باتهام السائل بالنفاق، وأجاب رداً على استفساراتي حول وسائل الإعلام الهنغاريَّة ـ التي تملكها وتشغلها الحكومة أو الشركات المرتبطة بالحزب الحاكم بنسبة ٩٠ في المئة ـ أجاب أنَّ معظمَ وسائل الإعلام الأمريكيَّة "أكثر تفضيلاً" للحزب الديمقراطيّ، وبذلك فإنَّ الوضع مشابه، حين سألت عن صداقة الحكومة المجريَّة مع روسيا، سألني عمَّا إذا كانت ألمانيا ملتزمة بالولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي "الناتو"، وحين سألته عمَّا إذا كان يشعر بالراحة في العمل في مؤسَّسة تمولها الحكومة المجريَّة، قال "أنا واثقٌ تماماً من أنَّ الحكومة في المجر تستخدم سياسات لا أتفق معها شخصيَّاً"، لكن من ناحية أخرى، "يوجد كثير من السياسات الحكوميَّة التي لا تعجبني في بلدان مختلفة"، وحين سألت عن رجال الأعمال المجريين الذين هدَّدهم الحزب الحاكم، قال: "ينبغي عليهم الشكوى من ذلك أكثر"، لقد وافق على أنَّه من المثير للاهتمام واللافت أنَّه، في يوم من الأيام في ثمانينيات القرن الماضي، كنا (أنا وهو وأوربان) في الخندق نفسه، والآن لسنا كذلك، لكنَّه ظنَّ أنَّ السببَ في ذلك هو أنَّني تغيرت، وليس هو، فقد أصبحت الآن جزءاً من "النخبة الليبراليَّة القضائيَّة البيروقراطيَّة الدوليَّة" التي تعارضُ "البرلمانات المنتخبة ديمقراطياً"، ولم يفسر كيف يمكن أن يكون لديك "برلمان

منتخب ديمقراطياً" في دولة مثل المجر، حيث يمكن للحكومة أن تغش من دون عقاب، حيث يمكن تغريم أحزاب المعارضة أو معاقبتهم عشوائياً، وسُيّس جزء من القضاء، ويتلاعب الحزب الحاكم بمعظم وسائل الإعلام، كان استخدامه لكلمة "النخبة" مثيراً للفضول أيضاً: إنَّ النخبة الوحيدة في المجر ـ إنَّها نخبة بيروقراطيَّة قضائيَّة غير ليبراليَّة ذات قوَّة عارمة ـ هي النخبة الجديدة التي تزدهر داخل فيديسز، كذلك كانت غير عاكسة للفضول.

في يوم من الأيام، كان أوسوليفان يفتخر بأن يصفَ نفسه عضواً في نخبة دوليَّة عابرة للأطلسيّ، تلك التي تحضر الحفلات مع روبرت مردوخ/ Rupert Murdoch وتذهب إلى عشاء باهظ الثمن مع كونراد بلاك/ Conrad Black، فأينما تكون سفينته السياحيَّة، يكون الوقت عنده متأخراً جداً، كان منزعجاً، وكذلك كنتُ أنا.

لا أعتقدُ أنَّ بوريس جونسون بدأ يفكرُ في نفسه بوصفه عضواً في نخبةٍ جديدة، ناهيك من كونه ثوريّاً، كان عضواً معتمداً من النخبة القديمة على كلّ حال، وبصرف النظر عمَّا يعتقده نوابه ومستشاروه، لم يكن مهتماً في البداية بتقويض الدولة أو إعادة تعريف بريطانيا أو إنجلترا أيضاً.

كان جونسون يحاول فقط أن يفوزَ ويحظى بالإعجاب، وأراد الاستمرار في سرد القصص المسلية وأن يحصلَ على السلطة، لكن في العالم السياسيّ الجديد الذي أوجده اِنسحابُ المملكةِ المتحدةِ من الاتِّحادِ الأوربيّ (البريكست)، تطلَّب الفوزُ خطوات غير مسبوقة، فكان لابدَّ من دفع الدستور إلى أقصى الحدود، ومن

تطهير حزب المحافظين البريطانيين (Tory) من المشككين، ومن تغيير القواعد؛ بدأ في تغييرها في خريف عام ٢٠١٩.

في أيلول ٢٠١٩، بناءً على نصيحة دومينيك كامينغز/ Dominic Cummings، اتخذ جونسون قراراً استثنائيّاً بإلغاء البرلمان ـ لتعليقه، بطريقة غير تقليديَّة وغير دستوريَّة، كما طرد من الحزب مجموعة من المحافظين البريطانيين الليبراليين الذين كانوا يحاولون منع خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ "بدون اتفاق"، وهو أمر غير مسبوق بالقدر نفسه، وكان من بينهم وزيران سابقان للخزانة وحفيد تشرشل.

لقد شوّهت سمعة البعض منهم، بما في ذلك دومينيك غريف/ Dominic Grieve، المدعي العام السابق وواحد من آخر المحافظين المؤيدين لأوروبا، من قبل الحزب بعد ذلك، وقال مصدر مجهول من "شارع داونينغ" (مقر الإقامة الرسميَّة ومكتب رئيس وزراء بريطانيا) ـ كامينغز على الأرجح ـ للصحف: إنَّ غريف وآخرين يخضعون للتحقيق بتهمة "التواطؤ الأجنبيّ"، وهي لغةٌ توحي بالخيانة.

رفض جونسون إنكار هذه القصة السخيفة، وبدلاً من ذلك قال لبرنامج إخباريّ: "يوجد سؤالٌ قانونيٌّ يجب طرحه"، وتلقى غريف تهديدات بالقتل في الأيام التالية، كما وصف بوريس الاعتراضات البرلمانيَّة على خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ "بدون اتفاق" بأنَّها شكلٌ من أشكال "الاستسلام" للعدو، وهو تعليق حاول تمريره على أنَّه مزحة، لكن لم يضحك الجميع، بل بالعكس من

ذلك، فبعض الأشخاص من حوله كانوا في منتهى الجديَّة، وكان أنصار خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ غاضبين من البرلمان، الذي قاومت أغلبيته بكلّ تكتيك قانونيّ، وكلّ قاعدة برلمانيَّة يمكن تجنيدها لوقف خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ "بدون اتفاق" الذي عارضه غالبيَّة البريطانيين.

في النهاية، وافقوا على صفقة ـ وصفها الكثيرون بأنَّها غير مقبولة قبل أشهر فقط ـ سمحت بوضع حاجز جمركي بين أيرلندا الشماليَّة وبقيَّة المملكة المتحدة، وحُظِر سيناريو "بدون اتفاق"، لكن مؤيدو خروج بريطانيا كانوا مصممين على ضمان ألا يوقفهم أيّ شيء مرة أخرى.

احتوى بيان حزب المحافظين (Tory)، المكتوب مسبقاً قبل حملتهم الانتخابيَّة في كانون الأوَّل ٢٠١٩، على تلميح للانتقام الذي يأملُ البعضُ أن يُنزَلَ بأولئك الذين استخدموا ضوابط وتوازنات الدستور على نحو فعَّال للغاية: نحتاج بعد "البريكست" إلى النظر في الجوانب الأوسع لدستورنا: العلاقة بين الحكومة والبرلمان والمحاكم، وسير العمل بالامتياز الملكيّ، ودور مجلس اللوردات، والوصول إلى العدالة لعامَّة الناس، وفي الأسابيع التي أعقبت الانتخابات، كانت هناك بعض التلميحات لما قد يأتي، ووُجِدَ ـ كما هو الحال في بولندا ـ ضجيج حول تقويض وسائل الإعلام العامَّة، ربَّما عن طريق تغيير تمويل هيئة الإذاعة البريطانيَّة (BBC)، كان يوجد ـ كما في المجر ـ حديث عن تقليص أو تقييد المحاكم، وحديث عن تطهير لموظفي الخدمة المدنيَّة أيضاً، فقد

أعلن كامينغز عن رغبته في توظيف "غير الأسوياء وغريبي الأطوار" لمساعدته على إجراء "تغييرات كبيرة في السياسة وفي هيكل صنع القرار" التي ستكون ضروريَّة الآن.

طوال حملة الاستفتاء المثيرة للانقسام والانتخابات الغاضبة، تذرّع المثقفون وخبراء التدوير الذين ألقوا طاقاتهم وراء "البريكست" بالثورة والدمار، وذلك النوع من اللغة الذي لم يكن جزءاً من السياسة البريطانيَّة منذ سنوات عديدة.

بعد فوز جونسون بأغلبيَّة مسيطرة كان قلَّة منهم أخيراً في وضع يسمح لهم بالتصرف حيال ذلك، كما واجهوا فجأة المعضلة التي طرحها رجل الدولة الأمريكيّ دين آتشيسون/ Dean Acheson، في عام ١٩٦٢: "فقدت بريطانيا العظمى إمبراطوريَّة ولم تجد دوراً لها بعد".

في العقود اللاحقة، وجدت بريطانيا دوراً بوصفها واحدةً من أقوى قادة أوروبا وأكثرها فاعلية، والحلقة الأكثر أهميَّة بين أوروبا وأمريكا، ونصيراً للديمقراطيَّة وسيادة القانون، ولاسيّما داخل أوروبا، أمَّا الآن، في عالم أعيد تشكيله دراماتيكياً بفعل الوباء، فإنَّ قادة بريطانيا يبدؤون من الصفر.

إنَّ مكانة بريطانيا في العالم، ودورها في العالم، وحتى تعريفها الذاتيّ (من هم البريطانيون؟ أيّ نوع من الأمَّة هي بريطانيا؟) لقمة سائغة مرة أخرى، وفي المشهد الجديد الذي خلقته الأزمات الطبيَّة والاقتصاديَّة المزدوجة في عام ٢٠٢٠ ـ وبسبب تعامل جونسون الخطير مع فيروس كورونا ـ قد يظهرُ شيءٌ مختلفٌ تماماً.

الفصلُ الرابع
شلّالاتٌ من الباطلِ

لطالما كان التغييرُ السياسيُّ ـ التغيرات في المزاج العام، والتحولات الحادَّة في مشاعر الجماهير، وانهيار الولاء الحزبيّ ـ موضع اهتمام شديد للأكاديميين والمثقفين بشتى أنواعهم، توجد أدبيَّات كثيرة عن الثورات، إضافة إلى نوع مصغر من الصيغ المصمَّمة للتنبؤ بها، تركِّزُ معظم هذه التحقيقات على معايير اقتصاديَّة ملحوظة وقابلة للقياس، مثل درجات عدم المساواة أو مستويات المعيشة، ويسعى الكثيرون للتنبؤ بمستوى الألم الاقتصاديّ ـ كم الجوع، ومقدار الفقر ـ الذي سينتج عنه ردّ فعل، ويجبر الناس على النزول إلى الشارع، ويقنعهم بتحمل المخاطر.

أصبحت الإجابةُ عن هذا السؤال أكثر صعوبةً في الآونة الأخيرة، ففي العالم الغربيّ، الغالبيَّة العظمى من الناس ليسوا جوعى، لديهم طعام ومأوى، وهم متعلمون، وفي حال وصفناهم بأنَّهم "فقراء" أو "محرومون"، فذلك ـأحياناًـ لأنَّهم يفتقرون إلى أشياء لم يحلم بها البشر منذ قرن مضى، مثل التكييف أو الإنترنت اللاسلكي/ Wi-Fi، أمَّا في هذا العالم الجديد، فقد لا

تكون التغييرات الأيديولوجيَّة الكبيرة ناجمة عن نقص الخبز، بل بسبب أنواع جديدة من الاضطرابات، قد لا تشبه هذه الثورات الجديدة الثورات القديمة مطلقاً، إذ لا تحتاج، في عالم تُعقد فيه معظم المناظرات السياسيَّة عبر الإنترنت أو على شاشة التلفاز، للخروج إلى الشارع والتلويح بلافتة لتأكيد ولائك، فكل ما عليك فعله لإظهار تغيير حاد في الانتماء السياسيّ هو تبديل القنوات، أو الانتقال إلى موقع إلكتروني مختلف كلّ صباح، أو البدء في متابعة مجموعة مختلفة من الأشخاص على وسائل التواصل الاجتماعيّ.

إنَّ أحدَ الجوانبِ العديدة المثيرة للاهتمام في بحث كارين ستينر حول النزعات السلطويَّة هو أنَّه يشير إلى كيفيَّة وأسباب حدوث الثورات السياسيَّة في هذا العالم الجديد والمختلف في القرن الحادي والعشرين، لقد ذكرتني أنَّ "النزعة الاستبداديَّة" التي حددتها ليست مشابهة تماماً للانغلاق الفكريّ، وذلك من خلال رابط فيديو متقطع بين أستراليا وبولندا، لكن من الأفضل وصفها بأنَّها عقليَّة بسيطة: ينجذبُ الناسُ إلى الأفكار السلطويَّة غالباً؛ لأنَّهم ينزعجون من التعقيد، ويكرهون الانقسام، ويفضلون الوحدة، لذلك فإنَّ الهجوم المفاجئ على التنوع ـ تنوع الآراء، وتنوع الخبرات ـ يجعلهم غاضبين، يبحثون عن حلول بلغة سياسيَّة جديدة تجعلهم يشعرون أنَّهم أكثر أمناً.

ما هي العواملُ التي قد تدفع الناس في العالم الحديث إلى مواجهة التعقيد؟

بعضها واضح، إنَّ التغييرَ الديموغرافيّ الكبير ـ وصول

المهاجرين أو الغرباء ـ هو شكل من أشكال التعقيد الذي أدَّى على نحو تقليديّ إلى تأجيج هذا الدافع السلطويّ، وما يزال كذلك، فلم يكن مفاجئاً أنَّ هجرة مئات الآلاف من الأشخاص من الشرق الأوسط إلى أوروبا خلال الحرب السوريَّة عام ٢٠١٦ ـ وصل بعضهم بدعوة من المستشارة الألمانيَّة، أنجيلا ميركل ـ حفَّزت زيادة في الدعم للأحزاب السياسيَّة في أوروبا التي تستخدم لغة ورموز سلطويَّة.

خلقتْ هذه الأعدادُ الكبيرةُ في بعضِ البلدان، ولا سيَّما التي تطلُّ على سواحل البحر الأبيض المتوسط، مجموعةً من المشاكل الحقيقيَّة: كيفيَّة إيواء ورعاية الأشخاص الذين يصلون بالقوارب، وكيفيَّة إطعامهم، وماذا تفعل معهم بعد ذلك، وفي سائر أنحاء أوروبا، ولا سيَّما ألمانيا، وتوجد قضايا حقيقيَّة تتعلَّق بالإسكان والتدريب واستيعاب المهاجرين الجدد، كذلك توجد في بعض أجزاء الولايات المتحدة والمملكة المتحدة أدلة على أنَّ المهاجرين الجدد يخلقون منافسة غير مرحَّب بها على بعض الوظائف، ويوجد تفشيات خطيرة للجريمة أو الإرهاب المرتبط مباشرة بالوافدين الجدد في العديد من البلدان.

لكن لم تكن العلاقة بين المهاجرين الحقيقيين والحركات السياسيَّة المناهضة للمهاجرين واضحة دائماً، على سبيل المثال: لم تتسبب الهجرة دائماً، حتى من أماكن ذات دين أو ثقافة مختلفة، في رد فعل مضاد؛ إذ وصل اللاجئون المسلمون من الحروب في يوغوسلافيا السابقة إلى المجر في التسعينيات من دون التسبب

في شدة غير مبررة، ولم يتسبب اللاجئون المسلمون من الشيشان في أيّ رد فعل عنيف في بولندا أيضاً، كذلك استوعبت الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة لاجئين من روسيا وفيتنام وهايتي وكوبا، من بين أماكن أخرى، من دون جدال مطول.

لا يمكنُ إلقاءُ اللوم دائماً على ردّ الفعلِ العنيفِ ضدّ المهاجرين في فشلهم في الاندماج، فعلى سبيل المثال: نمتْ معاداةُ السامية على نحو أقوى في ألمانيا، لم يكن ذلك عند وصول اليهود بل حين أصبحوا يندمجون وينجحون أو يتحولون تحديداً، بدقة أكبر، يبدو الآن كما لو أنّه بلد لا يحتاجُ حتى إلى مهاجرين حقيقيين يخلقون مشاكل حقيقيّة للشعور بالغضب الشديد حول الهجرة، أمّا في المجر، مثل ما أقرّت ماريا شميت، فبالكاد يوجد أيّ أجنبي، ومع ذلك نجح الحزب الحاكم في إذكاء كراهية الأجانب؛ إذ حين يقول الناس إنّهم غاضبون من "الهجرة"، بمعنى آخر، إنّهم لا يتحدثون دائماً عن شيء عاشوه واختبره، بل يتحدثون عن شيء وهميّ؛ شيء يخشونه.

تنطبقُ النقطةُ نفسها على عدم المساواة وتدهور الأجور، وهي مصدرٌ آخر للقلق والغضب والانقسام، لا يمكنُ للاقتصاد وحده أن يفسّر سببَ تطوير البلدان ذات الدورات الاقتصاديّة المختلفة، وذات التاريخ السياسيّ المختلف، والهياكل الطبقيّة المختلفة ـ ليس فقط أوروبا والولايات المتحدة بل الهند والفلبين والبرازيل أيضاً ـ في الوقت ذاته شكل مماثل من السياسات الغاضبة في الفترة من ٢٠١٥ إلى ٢٠١٨، و"لا يفسر الاقتصاد" أو "عدم المساواة"

سبب غضب الجميع في تلك اللحظة.

كتبَ الفيلسوفُ الفرنسيُّ جان فرانسوا ريفيل/ Jean_François Revel في كتاب بعنوان "الإغراء السلطويّ" أنَّ "الرأسماليَّة في ورطة عميقة، لا شك في ذلك، وبنهاية عام ١٩٧٣، كان التقريرُ الطبيُّ يبدو أشبه بإعلان وفاة"، يبدو هذا التشخيص، الذي أُجري قبل أربعين عاماً، كما لو أنَّه ينطبقُ على الحاضر، مع ذلك، فإنَّ تأثير إخفاقات الرأسماليَّة كان محسوساً بطريقة ما عام ٢٠١٦، وليس عام ١٩٧٦.

لا يعني هذا أنَّ الهجرةَ والألمَ الاقتصاديَّ لا صلة لهما بالأزمة الحالية: الواضح أنَّهما مصادر حقيقيَّة للغضب والضيق وعدم الراحة والانقسام، لكن بوصفها تفسيراً كاملاً للتغيير السياسيّ - كتفسير لظهور فئات جديدة كاملة من الأطراف السياسيَّة الفاعلة - فهي غير كافية؛ إذ يوجد شيء آخر يحدث الآن، شيء يؤثر على الديمقراطيّات المختلفة جداً، باقتصاديّات وديموغرافيّات مختلفة للغاية، في جميع أنحاء العالم.

إضافة إلى إحياء النوستالجيا، وخيبة الأمل من "حكم الجدارة"، وجاذبيَّة نظريّات المؤامرة، قد يكمن جزء من الإجابة في الطبيعة العدوانيَّة المثيرة للجدل للخطاب الحديث نفسه: الطرق التي من خلالها نقرأ، ونفكر، ونسمع ونفهم السياسة، لقد عرفنا منذ مدة طويلة أنَّه في المجتمعات المغلقة، قد يكون وصول الديمقراطيَّة، بأصواتها المتضاربة وآرائها المختلفة، "معقداً ومخيفاً"، على حد تعبير ستينر، بالنسبة للأشخاص غير المعتادين على المعارضة

العامَّة، وضجيج الجدال، وطنين الخلاف المستمر ـ يمكن أن تثيرَ غضب الأشخاص الذين يفضلون العيش في مجتمع مرتبط بعضه البعض من خلال رواية واحدة، يساعد تفضيل الوحدة الشديد، على الأقلّ بين جزء من السكان، في تفسير سبب انتهاء العديد من الثورات الليبراليَّة أو الديمقراطيَّة، بدءاً من عام ١٧٨٩ وما بعده، بديكتاتوريَّات حظيت بدعم واسع.

كتب أشعيا برلين* ذات مرة عن حاجة الإنسان للاعتقاد بأنَّه "في مكان ما، في الماضي أو في المستقبل، في الوحي الإلهيّ أو في عقل المفكر الفرديّ، في تصريحات التاريخ أو العلم. . . يوجد حلّ نهائيّ"، لاحظ برلين أنَّه لم تكن كلّ الأشياء التي يعتقد البشر أنَّها جيدة أو مرغوبة متوافقة، والكفاءة والحريَّة والعدالة والمساواة ومطالب الفرد ومطالب المجموعة، وتدفعنا هذه الأشياء كلّها في اتجاهات مختلفة، وهذا، مثل ما كتب برلين، غير مقبول لكثير من الناس: "الاعتراف بأنَّ تحقيق بعض مُثُلنا قد يجعل تحقيق البعض الآخر مستحيلاً من حيث المبدأ، وهذا يعني أنَّ مفهومَ الإنجاز البشريّ الكامل هو تناقض رسميّ، ووهم ميتافيزيقيّ"، مع ذلك، فإنَّ الوحدةَ وهمٌ يسعى إليه البعض دائماً.

في المجتمعات الغربيَّة الأكثر انفتاحاً، أصبحنا فخورين بتسامحنا مع وجهات النظر المتعارضة، لكن في معظم تاريخنا الحديث، كان النطاق الفعليّ لتلك الآراء محدوداً، فمنذ عام

* كان أشعيا برلين/ Isaiah Berlin (١٩٠٩-١٩٩٧) فيلسوفاً بريطانياً، ومؤرخاً ومنظراً سياسياً، اشتهر بدفاعه عن الليبرالية والتعددية، ومعارضته للتطرف السياسي والتعصب الفكري (تعليق المترجم).

١٩٤٥، تكشفت أكثر الحجج أهميَّة عادة بين يمين الوسط ويسار الوسط كما جرت العادة، ونتيجة لذلك، كان نطاق النتائج المحتملة ضيقاً، ولا سيَّما في ديمقراطيَّات مثل تلك الموجودة في الدول الإسكندنافيَّة التي كانت أكثر ميلاً نحو الإجماع، لكن حتى في الديمقراطيَّات الأكثر عشوائيَّة، كان ميدان المعركة محدداً تحديداً جيداً نسبياً، لقد خلقت قيود الحرب الباردة في الولايات المتحدة اتفاقاً بين حزبين حول السياسة الخارجيَّة للولايات المتحدة، وفي العديد من الدول الأوروبيَّة، كان الالتزام بالاتحاد الأوروبيّ أمراً مفروضاً، والأهم من ذلك كلّه أنَّ هيمنة محطات البث المتلفزة الوطنيَّة ـ البي بي سي في بريطانيا، وشبكات التلفزة الثلاث الكبرى في الولايات المتحدة ـ والصحف ذات القاعدة العريضة التي اعتمدت على عائدات الإعلانات واسعة النطاق تعني أنَّه توجد في معظم الدول الغربية مناقشة وطنيَّة واحدة غالباً؛ لقد اختلفت الآراء، لكن على الأقلّ كان معظم الناس يتجادلون ضمن معايير متفق عليها.

اختفى ذلك العالم، إذ نعيش الآن تحولاً سريعاً في الطريقة التي ينقل بها الناس المعلومات السياسيَّة ويتلقونها ـ نوع ثورة الاتصالات نفسها التي كان لها عواقب سياسيَّة عميقة في الماضي، أنتجت الكثير من الأشياء الرائعة عن اختراع المطبعة في القرن الخامس عشر: محو الأميَّة الجماعيَّة، انتشار المعرفة الموثوقة، نهاية احتكار الكنيسة الكاثوليكيَّة للمعلومات، لكن ساهمت هذه الأشياء نفسها في حدوث انقسامات جديدة أيضاً،

وفي الاستقطاب والتغيير السياسيّ، أتاحت التكنولوجيا الجديدة للناس العاديين قراءة الكتاب المقدَّس، وهو تغيير ساعد في إلهام الإصلاح البروتستانتي ـ وتتضح بذلك عقود عديدة من الحروب الدينيَّة الدامية، لقد أُعدم الشهداء، ونُهبت الكنائس والقرى في دوامة غاضبة لم تهدأ إلا مع عصر التنوير والقبول الواسع للتسامح الدينيّ.

كانت نهايةُ الصراعِ الدينيّ بدايةَ أنواع أخرى من الصراعات بين الأيديولوجيَّات العلمانيَّة والجماعات القوميَّة، كذلك تفاقم بعضها بعد تغيير آخر في طبيعة الاتصال: اختراع المذياع ونهاية احتكار الكلمة المطبوعة، وقد كان هتلر وستالين من بين القادة السياسيين الأوائل الذين أدركوا مدى قوَّة هذه الوسيلة الجديدة، كافحت الحكومات الديمقراطيَّة في بادئ الأمر لإيجاد طرق لمواجهة أسلوب الديماغوجيين الذين وصلوا الآن إلى الناس داخل منازلهم، توقعت كيف يمكن أن يصبح البثّ مثيراً للانقسام؛ إذ أنشأت المملكة المتحدة عام ١٩٢٢ "بي بي سي" (هيئة الإذاعة البريطانيَّة)، والتي صُممت بصورة جليَّة منذ البداية للوصول إلى أنحاء البلاد جميعها، ليس "للإعلام، والتثقيف، والترفيه" فحسب بل لتوحيد صفوف الناس أيضاً، وليس في مجموعة واحدة من الآراء بل في محادثة وطنيَّة واحدة تجعلُ النقاشَ الديمقراطيَّ ممكناً، وُجدت إجابات مختلفة في الولايات المتحدة، إذ قبل الصحفيون الهيكلَ التنظيميّ، وقوانين التشهير، وقواعد الترخيص للإذاعة والتلفاز، كما أنشأ الرئيس فرانكلين روزفلت "الدردشة

بجانب المدفأة"*، وهي شكل من أشكال الاتصال يناسب الوسيلة الجديدة على نحوٍ أفضل.

لقد كانت ثورة الاتصالات الجديدة أسرع بكثير من أيّ شيء عرفناه منذ القرن الخامس عشر، أو حتى القرن العشرين، فبعد اختراع المطبعة، استغرق الأوروبيون قروناً عديدة ليلموا بالقراءة والكتابة، وبعد اختراع المذياع، لم تهدّم الصحف، بالمقابل، أدّى التحولُ السريعُ في أموال الدعاية إلى شركات الإنترنت، خلال عقد من الزمان، إلى إلحاق أضرار بالغة بقدرة كلّ من الصحف والإذاعات على جمعِ المعلومات وتقديمها، توقف الكثير منها، عن نقل الأخبار تماماً، وسيزول العديد منها، إن لم تكن جميعها، من الوجود في نهاية المطاف، كان نموذج العمل الأكثر شيوعاً، المستند إلى الإعلان للجمهور العام، يعني أنّهم مجبرون على خدمة المصلحة العامَّة للجماهير ومجبرون على الحفاظ على الأقلّ بالتزام نظريّ بالموضوعيَّة، يمكن أن يكونوا منحازين ولطفاء ومملين، لكنّهم أبعدوا نظريَّات المؤامرة الفاضحة من النقاش، إنّهم مدينون بالفضل للقضاء والهيئات المنظمة؛ لأنَّ صحفييها التزموا بالقوانين الأخلاقيَّة الرسميَّة وغير الرسميَّة.

خلقتْ الصحفُ والإذاعاتُ القديمة، بالدرجة الأولى، إمكانيَّة إجراء محادثة وطنيَّة واحدة، لا يوجد نقاش مشترك الآن في العديد من الديمقراطيَّات المتقدمة، ناهيك من سرد مشترك، إذ لطالما كان

* كانت الدردشات بجانب المدفأة عبارة عن سلسلة من الخطابات الإذاعيَّة المسائيَّة التي قدمها فرانكلين دي روزفلت، الرئيس الثاني والثلاثون للولايات المتحدة، بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤٤ (تعليق المترجم).

للناس آراء مختلفة، والآن لديهم حقائق مختلفة، في ذات الوقت، في مجال المعلومات الذي لا تسيطر عليه سلطات ـ سياسيَّة وثقافيَّة وأخلاقيَّة ـ ولا مصادر موثوقة، لا توجد طريقة سهلة للتمييز بين نظريَّات المؤامرة والقصص الحقيقيَّة، تنتشر الآن روايات كاذبة، متحيزة، ومضللة عن عمد في كثير من الأحيان في الحرائق الرقميَّة، وهي سلسلة من الأكاذيب التي تتحرك بسرعة كبيرة بحيث يتعذر على متقصي الحقائق مواكبة ذلك، وحتى لو استطاعوا، لم يعد الأمر مهماً: لن يقرأ جزء من الجمهور أو يرى مواقع تقصي الحقائق، وإن فعلوا فلن يصدقوها، أثبتت حملة دومينيك كامينغز "التصويت على المغادرة"، مراراً وتكراراً، أنَّه من الممكن الكذب والإفلات من العقاب.

إنَّ القضيَّةَ ليستْ مجردَ قصصٍ كاذبةٍ أو حقائقَ غير صحيحة أو حتى حملات انتخابيَّة وخبراء تدوير: تشجّعُ خوارزميَّاتُ وسائل التواصلِ الاجتماعيِّ نفسها تصورات خاطئة عن العالم؛ إذ ينقر الأشخاص على الأخبار التي يريدون سماعها، ثم يُظهر لهم "فيس بوك" و"يوتيوب" و"غوغل" المزيد ممَّا يفضلونه بالفعل، سواء أكان نوعاً معيناً من الصابون أو شكلاً معيناً من أشكال السياسة، تؤدي الخوارزميَّات إلى تطرف أولئك الذين يستخدمونها أيضاً، إذا نقرت على مواقع "يوتيوب" شرعيَّة تماماً مناهضة للهجرة، على سبيل المثال: يمكن أن تقودك بسرعة ببضع نقرات فقط، إلى مواقع القوميَّة البيضاء ثم إلى مواقع عنيفة معادية للأجانب، نظراً لأنَّها مصمّمة لإبقائك على الإنترنت، كما تميز الخوارزميَّات المشاعر،

ولا سيَّما الغضب والخوف، ولأنَّ المواقع تسبب الإدمان، فإنَّها تؤثر على الأشخاص بطرق لا يتوقعونها، إذ يصبح الغضب عادة، ويصبح الانقسام طبعيّاً، حتى إن لم تكن وسائل التواصل الاجتماعيّ المصدر الأساسيّ للأخبار لجميع الأمريكيين، فإنَّها تساعد في تشكيل كيفيَّة تفسير السياسيين والصحفيين للعالم وتصويره، لقد انتقل الاستقطاب من عالم الإنترنت إلى واقع.

والنتيجةُ هي نزعةٌ حزبيَّةٌ مفرطةٌ تزيدُ من عدمِ الثقةِ في السياسةِ "العادية" والسياسيين "المؤسّسين" و "الخبراء" الساخرين والمؤسّسات "الرئيسة" ـ بما في ذلك من المحاكم والشرطة وموظفي الخدمة المدنيَّة ـ لا عجب، مع زيادة الاستقطاب، يُصوّر موظفو الدولة باستمرار على أنَّهم "أسروا" من قبل خصومهم، ليست مصادفة أنَّ حزب العدالة والقانون في بولندا وأنصار خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ وإدارة ترامب في الولايات المتحدة شنّوا اعتداءات لفظيَّة على موظفي الخدمة المدنيَّة والدبلوماسيين المحترفين، وليست مصادفة أن يتعرَّض القضاة والمحاكم الآن للنقد والتدقيق والغضب في العديد من الأماكن الأخرى أيضاً، فلا يمكن أن يوجد حياد في عالم مستقطب لأنَّه لا يمكن أن توجد مؤسَّسات غير حزبيَّة أو غير سياسيَّة.

لقد غيَّرت وسيلة النقاش طبيعته أيضاً، فإعلانات مجففات الشعر، وأخبار نجوم الغناء، وقصص سوق السندات، وملاحظات من أصدقائنا، وميمات اليمين المتطرف، تصل في تدفق مستمر إلى هواتفنا أو أجهزة الكمبيوتر، ويبدو أنَّ كلَّ واحدةٍ تحملُ نفسَ الوزن

والأهميَّة، إن كانت معظم المحادثات السياسيَّة، في الماضي، قد جرت في غرفة تشريعيَّة، أو أعمدة صحيفة، أو استوديو متلفز، أو حانة، فإنَّها غالباً ما تحدثُ الآن عبر الإنترنت، في واقع افتراضيّ حيث يشعر القراء والكتاب بأنَّهم بعيدون عن بعضهم البعض وعن القضايا التي يصفونها، حيث يمكن أن يكونَ كلّ شخص مجهول، ولا يحتاج أحد إلى تحمل مسؤوليَّة ما يقوله.

أصبح كلّ من "رديت" و"تويتر" و"فيس بوك" وسيلة مثاليَّة للسخرية والمحاكاة الساخرة والميمات التهكميَّة: يفتحها الناسُ للتصفح أسفل الشاشة والاستمتاع، لا عجب في أنَّ عدداً كبيراً من المرشحين السياسيين "الساخرين" و"الهزليين" و"المزاحين" يفوزون فجأة في الانتخابات في دول متباينة مثل أيسلندا وإيطاليا وصربيا، كان بعضهم غير مؤذٍ، وبعضهم ليس كذلك، الآن، يتعاملُ جيل من الشباب مع الانتخابات على أنَّها فرصة لإظهار ازدرائهم للديمقراطيَّة من خلال التصويت للأشخاص الذين لا يتظاهرون حتى بأنَّ لديهم آراء سياسيَّة.

هذا لا يعني أنَّه يمكننا أو يجب علينا العودة إلى الماضي التناظري، فقد وُجد كثيرٌ ممَّا هو خاطئ في عالم وسائل الإعلام القديم، ويوجد كثير ممَّا هو صحيح حول الجديد: الحركات السياسيَّة، ومنتديات الإنترنت، وأفكار جديدة لا يمكن أن توجد من دونها، لكن يبدو أنَّ كلَّ هذه التغييرات ـ من تجزؤ القطاع العام إلى عدم وجود أرضيَّة مركزيَّة، ومن صعود الحزبيَّة إلى تراجع تأثير المؤسَّسات المحايدة المحترمة ـ تزعج الأشخاص الذين يجدون

صعوبة في التعقيد والتنافر، حتى إن لم نكن نعيش مرحلة من التغيير الديموغرافيّ السريع، وحتى إن لم يكن الاقتصاد في حالة اضطراب، حتى إن لم توجد أزمة صحيَّة، فلا يزال انقسام يمين الوسط ويساره، وصعود الحركات الانفصاليَّة في بعض الدول، وتزايد الخطاب الغاضب، وانتشار الأصوات المتطرفة والعنصريَّة التي هُمشت لمدة نصف قرن من شأنه أن يقنعَ شريحة من الناخبين بالتصويت لصالح من يعد بنظام جديد وأكثر تنظيماً.

هناك العديد من الأمثلة الحديثة حول كيفيَّة عمل ذلك: تدمير الثنائيَّة الحزبيَّة في الكونغرس في الولايات المتحدة في تسعينيات القرن الماضي، ووصول حزب العدالة والقانون ذي العقليَّة التآمريَّة إلى مركز السياسة البولنديَّة عام ٢٠٠٥، والتصويت على خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ عام ٢٠١٦، ولقد أدَّت جميع لحظات الاستقطاب هذه إلى تطرف جزء من السكان في بلدانهم المعنية، ومثل ما قال ستينر: "كلما تضاربت الرسائل مع بعضها البعض، زاد شعور هؤلاء الناس بالغضب"، وأعربت الروائيَّة البولنديَّة أولغا توكارتشوك عن الفكرة ذاتها في الخطاب الذي ألقته عند استلام جائزة نوبل عام ٢٠١٩: "عوضاً عن سماع تناغم العالم، سمعنا نشازاً في الأصوات، وتشويشاً لا يُحتمل نحاول من خلاله بيأس التقاط بعض الألحان الأكثر هدوءاً، حتى الإيقاع الأكثر ضعفاً".

توفر المؤسّساتُ الديمقراطيَّة الحديثة، التي بنيت لعصر ذي تكنولوجيا معلومات مختلفة للغاية، قليلاً من الراحة لأولئك الذين

يغضبهم التنافر، والتصويت، وتنظيم الحملات الانتخابيَّة، وتشكيل الائتلافات، ويبدو كل هذا رجعيّاً في عالم تحدث فيه أشياء أخرى بسرعة كبيرة، إذ يمكنك الضغط على زر في هاتفك وشراء زوج من الأحذية، لكن قد يستغرق تشكيل ائتلاف حكوميّ في السويد شهوراً، ويمكنك تحميل فيلم بحركة بسيطة من يدك، لكن يستغرق الأمر سنوات لمناقشة مشكلة في البرلمان الكندي، هذا أسوأ بكثير على المستوى الدوليّ: تجد المؤسَّسات متعددة الجنسيَّات مثل الاتحاد الأوروبيّ أو الناتو صعوبة بالغة في اتخاذ قرارات سريعة أو تغييرات كبيرة، ليس مفاجئاً أن يخشى الناس التغييرات التي ستحدثها التكنولوجيا، ويخافون أيضاً ـ لسبب وجيه ـ من أنَّ قادتهم السياسيين لن يكونوا قادرين على مواكبتها.

لقد أوهن الصوتُ المتنافر والحاد للسياسة الحديثة، الغضب على شبكات التلفاز والأخبار المسائيَّة، الوتيرة السريعة لوسائل التواصل الاجتماعيّ، العناوين التي تشتبك مع بعضها البعض حين نتصفحها، وبلادة البيروقراطيَّة والمحاكم في مقابل ذلك، عزيمة ذلك الجزء من السكان الذي يفضل الوحدة والتجانس، لطالما كانت الديمقراطيَّة نفسها صاخبة ومُضجّة، لكن حين تُتبع قواعدها، فإنَّها تخلق توافقاً بين الآراء في نهاية المطاف، لا يحقق الجدل الحديث ذلك، وإنَّما يلهم بعض الناس الرغبة في إسكات البقيَّة بالقوَّة.

يوفر عالم المعلومات الجديد مجموعة جديدة من الأدوات والتكتيكات التي يمكن لجيل آخر من الكتبة استخدامها للوصول

إلى الأشخاص الذين يريدون لغة بسيطة ورموزاً قوية وهويات واضحة، لا حاجة في الوقت الحاضر إلى تنظيم "حركة شارع" من أجل استمالة ذوي النزعة السلطويَّة؛ إذ يمكنك تنظيم واحدة في مبنى إداريّ، وأنت جالس أمام الكمبيوتر، ويمكنك إرسال رسائل تجريبيَّة وقياس الاستجابة، يمكنك إعداد حملات إعلانيَّة موجَّهة، ويمكنك تشكيل مجموعات من المعجبين على "واتس أب" أو"تيليغرام"، يمكنك اختيار موضوعات الماضي التي تناسبُ الحاضر وتكييفها مع جماهير معيّنة، ويمكنك اختراع الميمات وإنشاء مقاطع فيديو واستحضار شعارات مصمَّمة خاصة لمناشدة الخوف والغضب الناجمين عن هذه الموجة الدوليَّة الهائلة من التنافر، ويمكنك حتى بدء التنافر وخلق الفوضى بنفسك، مع إدراكك إدراكاً تاماً أنَّ بعضَ الناس سيخافون من ذلك.

***

إنَّه الفجرُ في ريف إقليم الباسك، رجل يمشي ثم يركض في حركة بطيئة، يتسلق سياجاً، يعبر حقلاً من القمح بينما يمرر يديه عبر قمم الحزم، كما في فيلم هوليوودي، وطوال الوقت، تصدح الموسيقا ويتحدث صوت: "إن لم تضحك على الشرف لأنَّك لا تريد أن تعيش بين الخونة. . . إن نظرت نحو آفاق جديدة من دون احتقار أصولك القديمة. . . إن استطعت الحفاظ على أمانتك سليمة في أزمنة الفساد. . .".

تشرقُ الشمس، ويتسلَّقُ الرجلُ طريقاً شديدَ الانحدار، يعبر النهر، ثم يعلق في عاصفة رعديَّة: "إنْ شعرت بالامتنان والفخر

لمن يرتدون الزيّ العسكريّ الذين يحمون الجدار. . إن أحببت أرضَ أجدادك كما تحبّ والديك. . ." بلغت الموسيقا ذروتها، يقف الرجل على قمة الجبل، ويتوقف الصوت: ". . . ثم تجعل إسبانيا عظيمة مرة أخرى!" ويظهر شعار على الشاشة: "Hacer España Grande Otra Vez".

يُترجم الشعار: "اجعل إسبانيا عظيمة مرة أخرى"، كان الرجل هو سانتياغو أباسكال/ Santiago Abascal، وهذا إعلان لحزب "فوكس/ Vox"، في عام ٢٠١٩، كان "فوكس" هو الحزبُ السياسيُّ الأسرع نمواً في إسبانيا، أباسكال هو زعيمه، لم يفز حزب "فوكس" ذو النزعة الذكوريَّة السينمائيَّة الإسبانيَّة القوميَّة بمقعد واحد في الانتخابات البرلمانيَّة الإسبانيَّة قبل ثلاث سنوات، وبعد فترة وجيزة، نشر أحد المواقع الإسبانيَّة مقالاً يسأل: "لماذا لم يصوّت أحد لسانتياغو أباسكال؟"

لكن ارتفع دعم الحزب من صفر إلى ١٠ في المئة في ربيع عام ٢٠١٩، ما أكسبه ٢٤ عضواً في البرلمان، لقد تضاعف هذا العدد بعد انتخابات أخرى في ذلك الخريف ـ بعد أن أسفرت الانتخابات الأولى عن برلمان معلق، زرت مدريد عدة مرات ذلك العام، وقد بدتْ المدينةُ مثل لندن قليلاً قبل استفتاء خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ، أو واشنطن قبل انتخاب ترامب، كان الكثير من الأشخاص الذين قابلتهم ـ صحفيون وأكاديميون وناشرون ـ متشائمين حول المستقبل، في المقابل، كان لدى فريق "فوكس"، الذي قابلتُ عدداً قليلاً منه أيضاً، كميَّات هائلة من الطاقة ورؤية

واضحة للأهداف، كان لديّ إحساس قويّ بالديجافو: مجدداً، كانت توجد طبقة سياسيَّة على وشك أن تتعرَّض لموجة غاضبة.

كان بعضُ الإسبان الذين قابلتهم يعانون من "الديجافو" أيضاً، وإن كان نوعاً مختلفاً، فقد اعتقدوا أنَّهم سمعوا أصداء الماضي في خطاب "فوكس"، ما يزال بإمكان الإسبان أن يتذكروا القوميَّة المتفاخرة التي ميزت دكتاتوريَّة فرانسيسكو فرانكو/ Francisco Franco، هتافات "!Arriba España" أو "!Go Spain" في المظاهرات، والجو الرسميّ للوطنيَّة القسريَّة، وقد بدا الأمر، خلال معظم العقود الأربعة التي أعقبت وفاة الديكتاتور عام ١٩٧٥ كما لو أنَّه لا أحد يرغب في عودة أيٍّ ممَّا مضى.

عوضاً عن ذلك، مرَّت إسبانيا في أواخر سبعينيات القرن الماضي بمرحلة انتقاليَّة شبيهة بالمرحلة التي شهدتها بولندا والمجر في تسعينيات القرن الماضي، إذ انضمت إلى المؤسَّسات الأوروبيَّة، وأعادت كتابة الدستور، وأعلنت هدنة وطنيَّة، وبطريقتها الخاصَّة، كانت دمقرطة إسبانيا هي الدليل الحقيقيّ للمفهوم في عالم ما بعد الحرب، حقّقت الدمقرطة والتكامل بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا والبقيّة نجاحاً ساحقاً عند وفاة فرانكو لدرجة أنَّ الإسبان، الذين شرعوا في مسار مختلف تماماً بعد الحرب، طالبوا بالانضمام إليهم في نهاية المطاف.

بعد اكتمال المرحلة الانتقاليَّة، حظيت الديمقراطيَّة الجديدة في إسبانيا بتوافق الآراء على نحو ظاهر، إذ نشأ حزبان سياسيان رئيسان

من دولة الحزب الواحد القديمة، واتفقا معاً على الاتفاق، وجد العديد من أنصار فرانكو السابقين وأطفالهم طريقهم إلى "الحزب الشعبيّ" الجديد من وسط اليمين، ووجد العديد من معارضي فرانكو السابقين وأطفالهم طريقهم إلى "الحزب الاشتراكيّ" الجديد من وسط اليسار، لكن اتخذ كلا الجانبين ترتيبات ضمنيَّةً، وعلانيةً في بعض الأحيان، بخصوص عدم الحديث عن الأشياء التي فرقتهما ذات يوم، وسُمِح لفرانكو بالبقاء في قبره المتقن، وهو جزء من نصب تذكاري يُعرف باسم "وادي الشهداء/ Valley of the Fallen"، سُمح لخصومه اليساريين بالاحتفال بمحاربيهم القدامى، ومضت الحرب الأهليَّة التي قسمتهم من دون مناقشة، كما بقي الماضي من الماضي، فيما يبدو أنَّه تحد لملاحظة فولكنر/ Faulkner الشهيرة.

لقد تحطَّم هذا التوافقُ على مدى العقد الماضي، ورداً على الأزمة الاقتصاديَّة لعام ٢٠٠٩، تحدَّى حزبُ اليسار المتطرف الجديد، بوديموس/ Podemos، وحدة يسار الوسط، ورداً على مزاعم الفساد في يمين الوسط، سعى حزب ليبراليّ يدعى ثيودادانوس/ Ciudadanos _ يعني اسمه حزب المواطنين _ إلى خلق قوّة سياسيّة وسطيَّة جديدة.

أدَّى قرار قضائيّ مثير للجدل بشأن قضيَّة اغتصاب إلى خروج مئات الآلاف من النساء إلى الشوارع في مسيرات كبيرة وصاخبة، ممَّا أثار قلق العديد من الكاثوليك التقليديين، واستخرجتْ حكومةُ يسار الوسط رفات فرانكو، وأزالتها من ضريحه المتقن، ووضعتها

في مقبرة، ممَّا أقلق المحافظين النوستالجيين.

تحدَّتْ الحركةُ الانفصاليَّةُ الكتالونيَّة، في المقام الأوَّل، الإجماعَ الدستوريّ، وبطريقة بصريَّة ملفتة، كاتالونيا مقاطعة غنيَّة، يتحدث العديد من سكانها اللغة الكاتالونيَّة، وهي لغة منفصلة، لها تاريخ طويل من الوحدة والصراع مع بقيَّة إسبانيا يعود إلى قرون عدة، وقد قُمع أيّ تلميح للانفصال الكاتالوني بقسوة في ظلّ ديكتاتوريَّة فرانكو، على النقيض من ذلك، أعطى الدستور الديمقراطيّ الإسبانيّ لعام ١٩٧٨ قدراً كبيراً من الحكم الذاتيّ لمناطق إسبانيا جميعها، ممَّا سمح للهويَّات الإقليميَّة بالنمو ـ لدرجة أنَّه في عام ٢٠١٧، قرَّرتْ حكومةُ كاتالونيا الإقليميَّة، التي يسيطر عليها الانفصاليون بقوَّة، إجراء استفتاء على الاستقلال، أعلنتْ المحكمة الدستوريَّة الإسبانيَّة أنَّ الاستفتاء غير قانونيّ، قاطعتْ أغلبيَّة واضحة من الكتالونيين الاستفتاء ـ وهو حدث عاطفيّ شابته وحشيَّة الشرطة ـ غير أنَّ معظمَ الذين صوتوا اختاروا الاستقلال.

***

في الفوضى الناتجة عن ذلك، فرضَ مجلسُ الشيوخ الإسبانيّ حكماً مباشراً، ودعا إلى انتخابات كتالونيَّة جديدة، وفرَّ بعضُ القادة الانفصاليين إلى المنفى، واعتُقل عشرات آخرون وحوكموا؛ صدرت بحقّهم أحكام طويلة المدة، ثم حين استقرَّت الأمور، أصبح "فوكس" ـ الحزب الوحيد الذي صوت لصالح قوميَّة إسبانيَّة متطرفة

مناهضة للانفصال ـ فجأة لاعباً في السياسة الوطنيَّة، إذ استفاد "فوكس" من قانون سمح له برفع دعوى خاصَّة ضد الانفصاليين الكاتالونيين، فنظّم الحزبُ تَجَمّعاً جماهيرياً في برشلونة، وصف الحكومة الكاتالونيَّة بأنَّها "منظمة إجراميَّة"، أثار الحزب مظاهرة لرشق الحجارة، وحرق المتاريس، والأناركيين الملثمين بالأسود رداً على ذلك. إنَّها صورة ممتازة لحشد مؤيديها، سعى "فوكس" في بادئ الأمر لإعادة الشعور بالوحدة الذي ساد ذات مرة في مسيرات "هيَّا إسبانيا!" الطويلة، وقد فعل قادتها ذلك باستخدام "يوتيوب" و"تويتر" و"إنستغرام" و"تيليغرام" و"واتس أب".

بدءاً من ربيع عام ٢٠١٨ وحتى انتخابات عام ٢٠١٩، احتفظ أباسكال بإحصاء على "تويتر" لكلّ تَجَمّع جماهيري أقامه، ونشر سلسلة من مقاطع الفيديو والصور الفوتوغرافيَّة للحانات وقاعات المؤتمرات أو الملاعب في نهاية المطاف، وكلّ واحدة مكتظة عن آخرها بالناس، الذين يهتفون ويصفقون، احتوت بعض تغريداته اللاحقة أيضاً على هاشتاغ:ـ EspañaViva# ـ LivingSpain# وتعليق مثير، أحد الأمثلة: "لا تهديدات بالقتل من عشرات الشيوعيين ولا شتائم من التلفاز يمكن أن توقف EspañaViva#"، كما أقيمت بعض التجمعات الأكثر شعبيَّة تحت شعار Cañas por España ـ "الجعة لإسبانيا"، وقد بيعت في آذار عام ٢٠١٩ سبعمائة تذكرة لحضور حدث "Cañas por España" في ملهى ليليّ في مدريد خلال أربع ساعات، اشتراها بالكامل أشخاص تقلّ أعمارهم عن الثلاثين.

إنَّ هذه التجمّعات الجماهيريّة والتغريدات التي وصفتهم، وكذلك هجمات الحزب المستمرة على استطلاعات الرأي "الزائفة" في وسائل الإعلام "المُغرضة"، كان لها هدف، لقد صُمّمت لجعل أيّ شخص يتابع "فوكس" يشعر كما لو أنّه جزء من شيء كبير ومثير ومتنام متجانس، تحدث أباسكال عن "حركة وطنيَّة لإنقاذ الاتحاد الوطنيّ"، مستخدماً لغة متكلفة ساعدت على أن يبدو دعم "فوكس" أكبر بكثير ممّا كان عليه في الواقع، إنَّ هذه هي الركيزة الأساسيَّة لاستراتيجيَّة "فوكس": استخدم وسائل التواصل الاجتماعيّ لخلق شعور بالوحدة حول حركة غير موجودة بعد.

وجد حزب "فوكس" في الوقت ذاته طرقاً للوصول إلى مجموعات الناخبين الذين كانوا مستائين من جوانب أخرى من الحياة الحديثة لم تتعامل معها الأحزاب الرئيسة، فكر في كيفيَّة تجميع شركات التسجيل فرق موسيقا البوب الجديدة: يقومون بأبحاث في السوق، ويختارون أنواع الوجوه التي تتناسب، ثم يقومون بتسويق الفرقة من خلال الإعلان عنها للفرق الديموغرافيَّة الأكثر ملاءمة، وتعمل الأحزاب السياسيَّة الجديدة الآن على هذا النحو: يمكنك تجميع القضايا معاً، وإعادة تقديمها، ثم تسويقها، باستخدام نفس النوع تماماً من الرسائل الموجَّهة ـ بناءً على النوع نفسه من أبحاث السوق ـ التي تعرف أنّها نجحت في أماكن أخرى.

إنَّ مقومات "فوكس" هي القضايا المهملة، تلك التي تجاهلها الآخرون أو قلّلوا من شأنها، مثل معارضة الانفصاليَّة الكاتالونيَّة والباسكيَّة، ومعارضة زواج المثليين، ومعارضة النسويَّة، ومعارضة

الهجرة، ولا سيَّما هجرة المسلمين، الغضب على الفساد، والسأم من السياسة السائدة، إضافة إلى عدد قليل من المشكلات، مثل الصيد وملكيَّة الأسلحة، التي يهتمّ بها بعض الأشخاص ولا تهمّ البعض الآخر، إلى جانب سلسلة من الليبرتاريَّة "التحرريَّة"، وموهبة السخرية، ونفحة من الحنين الاسترجاعيّ.

لم تكن أيديولوجيَّة معروضة، بل هويَّة: منسقة بعناية، معدَّة لسهولة الاستهلاك، مجهَّزة وجاهزة "للتعزيز" من خلال حملة واسعة، تحدثت شعاراتها كلّها عن الوحدة والانسجام والتقاليد، صُمِّم "فوكس" منذ البداية لجذب الأشخاص الذين أزعجهم تنافر الأصوات، إذ عرض عليهم العكس.

***

حين سألت رافائيل بارداجي/ Rafael Bardaji عن فيديو "اجعل إسبانيا عظيمة مرة أخرى"، ابتسم ابتسامة عريضة: "كانت هذه فكرتي، لقد كانت نوعاً من الدعابة في ذلك الوقت"، لا يطابق بارداجي، وهو عضو في "فوكس" منذ البداية تقريباً، فكرة أيّ شخص عن زعيم حزب "يمينيّ متطرف"؛ فهو مرح، يضع نظارة طبيَّة، ويرتدي بذلة وربطة عنق، على غرار أيّ شخص آخر في المؤسَّسة، عالم يمين الوسط الذي أتى منه، وكان بارداجي مستشاراً لرئيس الوزراء السابق من يمين الوسط خوسيه ماريا أثنار/ José María Aznar، أوَّل سياسيّ ناجح في الحزب الشعبيّ، وقضى معظم حياته المهنيّة المبكرة في خضم السياسة الوسطيَّة، اشتُهر بدفعه إسبانيا

للانضمام إلى الغزو الأمريكيّ للعراق عام ٢٠٠٣، لقد عارض ٩١٪ من الإسبان تلك الحرب وفقاً لأحد الاقتراعات الشهيرة، وبعد أن فجرت مجموعة من الجهاديين الإسلاميين عبوات ناسفة في محطة قطارات في مدريد قبل أيام قليلة من الانتخابات العامّة عام ٢٠٠٤ ـ قُتل ما يقرب من مائتي شخص وجُرح ألفان ـ ألقى الناخبون الإسبان باللوم على حكومة "أثنار" لإدخال سياسة الشرق الأوسط إلى بلدهم، ثم اكتسحت حكومة اشتراكيّة السلطة على نحو غير متوقع، وانتهت مهنتا "أثنار" و"بارداجي".

يُنظر إلى "بارداجي"، بفضل ارتباطه بتلك الحقبة، على أنّه خارج التيار السائد في إسبانيا، وكثيراً ما يشار إليه على أنّه من المحافظين الجدد، رغم أنّه لا معنى لهذه الكلمة في السياق الإسباني، يبدو الأمر أمريكياً فحسب، لقد حصل أيضاً على لقب "دارث فيدر*" وجده مسلياً بدرجة كافية لوضع صورة "دارث فيدر" على ملفه الشخصيّ على "تويتر"، وحين أخبرُ الناس في مدريد أنني التقيت به، يبدون استغرابهم.

لكن تتغير هذه التعريفات ـ "في التيار السائد"، "خارج التيار السائد" ـ بمرور الوقت، بالصدفة، قابلت بارداجي حين لم يكن شخصيّة ذات أهميّة في الحكومة الإسبانيّة فحسب، بل كان أيضاً شخصيّة مهمّة فيما كان يبدو آنذاك بأنّه تحالف دوليّ قويّ ثابت متين، كما تناولنا العشاء في واشنطن في وقت ما من عام ٢٠٠٣، كان بردجي يزور "معهد المشاريع الأمريكيّة/ American

* شخصيّة خياليّة معروفة من سلسلة "حرب النجوم" (تعليق المترجم).

Enterprise Institute"، وهو مركز أبحاث محافظ حيث كان زوجي يدير برنامجاً يبدو اسمه وأهدافه الآن غريبين، كانت هذه مبادرة الأطلسي الجديدة، وقد سعت، على خلفيَّة توسع الناتو، إلى تنشيط التحالف العابر للأطلسي، للجمع بين الأوروبيين "الأطلسيين" والأمريكيين لمناقشة الأهداف والمشاريع المشتركة العابرة للأطلسي، تحدّث السناتور جون ماكين عن ذلك في إحدى فعاليّات مبادرة نيو أتلانتيك، وقد جاء الديموقراطيون المهتمون بدور أمريكا في أوروبا، كذلك الأوروبيون الذين يهتمون بأمريكا: المحافظون البارزون، والتشيك المتحمسون، ووزير الدفاع البرتغالي من حين لآخر، كان جون أوسوليفان شخصيَّة بارزة في العالم الأطلسي، وكان شخص مثل برداجي ـ إسباني ودود مؤيد لأمريكا وله تقارب قويّ مع إسرائيل ـ ملائماً تماماً آنذاك.

لم يكن للتحالف العابر للأطلسي، في تلك الحقبة، وحدة الهدف نفسها تماماً كما كان عليه خلال الحرب الباردة، يوجد تعاون في الكويت والبوسنة، لكن لا يوجد عدو مشترك واحد، على الأقلّ حتى ١١ أيلول عام ٢٠٠١، إذ حفز الهجوم على مركز التجارة العالميّ دول الغرب، لكن على نحوٍ غير متساو، على سبيل المثال: انضمَّ الفرنسيون والألمان إلى الحرب في أفغانستان، لكن لم ينضمّوا إلى الحرب في العراق، مع ذلك، كان يوجد تحالف حقيقيّ من الراغبين في محاربة صدام حسين، بمن فيهم أثنار في إسبانيا، رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، رئيس الوزراء الدنماركي أندرس فوغ راسموسن، الرئيس البولندي ألكسندر

كفاشنيفسكي، ومجموعة أخرى، باختصار، بدت كأنَّها مجموعة متماسكة، وقد بقي أثنار مميزاً به إلى الأبد، على غرار بلير، التقيت به عام ٢٠١٩ في مكتبه في مدريد ولم يسعني إلا أن ألحظ صوره، المعروضة على نحو بارز على رفوف الكتب، في الشرق الأوسط مع بلير وجورج دبليو بوش، كما لو أنَّ الصور من تلك الحقبة تمثل اللحظة الأكثر أهميَّة في مسيرته الطويلة.

تبدو الصور أيضاً في غير محلها لأنَّ التعاون الأطلسي ـ عقيدة كان من شأنها أن تربط أشخاصاً مثل "أوسوليفان" أو "أثنار" عن كثب بمجموعة دوليَّة قويَّة، ممَّا يمنحهم طريقة واضحة للتواصل مع المحافظين الأمريكيين والأوروبيين على حد سواء ـ لم يعد قوة ذات أهميَّة، ليس في إسبانيا ولا في أيّ مكان آخر أيضاً، يبدو أنَّ أشخاصاً مثل "أثنار" ينتمون بالفعل إلى عالم مختلف، وكذلك كان "بارداجي" لعدة سنوات، لقد جلس على الحياد خلال عقد طويل ونصف، وشاهد سلسلة من الحكومات الإسبانيَّة تأتي وتذهب، وكلها إمَّا يمينيَّة متطرفة للغاية وإمَّا معتدلة جداً تناسب ذوقه، فإذا أصابت وسطيَّة "جون ميجور" بعض المحافظين البريطانيين بالملل في السنوات التي أعقبت تاتشر، فقد أغضب قادة الحزب الشعبيّ اليمينيّ الوسطيّ في العقد الأوَّل من القرن الحادي والعشرين بعض أعضائهم الأكثر ولاءً، وبمجرد عودته إلى السلطة عام ٢٠١١، لم يوقف الحزب نمو الدولة كما كانوا يأملون، إذ لم ينقض قانون العنف الأسريّ الذي اعتقدوا أنَّه يعاقب الرجال على نحو غير عادل، كما أنَّه لم يبتعد عن المواقف النقديَّة الأكثر جرأة

لعصر فرانكو أيضاً، أوضح إيفان إسبينوزا، أحد أعضاء البرلمان من حزب "فوكس"، كيف بدأ وبعض أصدقائه يشعرون تجاه السياسة الإسبانيَّة من خلال نقر زوج من المملحات على الطاولة حيث نتناول القهوة، قال إسبينوزا، جامعاً الممالح معاً: "هنا، على هذه الحال كانت السياسة الإسبانيَّة في الثمانينيات والتسعينيات"، و"هنا" ـ أنزل شوكة على بعد عدة بوصات ـ إسبانيا اليوم: "سُحِبت إلى اليسار المتطرف، الوسط واليمين لا يقاومان، لا يشنون هجوماً مضاداً، وليس لديهم أيّ أفكار".

أسوأ ما في الأمر، من وجهة نظرهم، أنَّ كلاً من يمين الوسط واليسار الأوسط أصبحا متكيفين للغاية مع النزعة الانفصاليَّة الباسكيَّة والكتالونيَّة، كان أباسكال ـ وهو نفسه نجل سياسيّ باسكي تعرض للتهديد من جماعة الباسك الإرهابيَّة، إيتا/ ETA ـ وكذلك إسبينوزا وبارداجي وأصدقاؤهم جميعاً غاضبين، لكنَّهم كانوا خارج السياسة، بعيدين عن النفوذ، وخارج الغرف التي تُحاك فيها الأمور.

أسس بارداجي خلال تلك السنوات شركة استشاريَّة، وقام ببعض الأعمال في إسرائيل والولايات المتحدة، لقد عمل في أبرز مراكز أبحاث السياسة الخارجيَّة في إسبانيا، ثم عرض عليه "فوكس" وترامب طريقاً للعودة.

لم يكن وحده: بدت لغة وتكتيكات انتخاب ترامب فجأة كأنَّها تقدّم شيئاً جديداً لكثير من الأشخاص الذين كانوا على هامش

السياسة، ليس في أمريكا فحسب بل في أنحاء العالم أجمع، لم يكن بارداجي نفسه مدوناً يمينياً بديلاً أو مرتاداً لغرف دردشة سياسيَّة غامضة، لكنَّه أدرك مدى فائدة أساليب اليمين البديل الأمريكيّ في إسبانيا، قد لا يستحوذون على الأغلبيَّة، إلا أنَّهم قد يفوزون على أقليَّة لا يستهان بها.

كما أنَّهم قد يزعجون "مؤسَّسة" إسبانيَّة يُعتقد أنَّها انجرفت إلى اليسار، تاركين وراءهم أشخاصاً مثله، قال لي بابتهاج: "إنَّ عبارة اجعل إسبانيا عظيمة مرة أخرى كانت نوعاً من الاستفزاز. . . كان القصد منه جعل اليسار أكثر غضباً"، فالتسلية التي يمكن الحصول عليها من الإساءة إلى "المؤسَّسة" ـ مشاعر مؤيدي برايتبارت الكلاسيكيين أو مؤيدي خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ ـ هي نفسها في مدريد كما هي في الولايات المتحدة، وكان بارداجي أحد معارف ستيف بانون/ Steve Bannon، ولديه صديق مشترك معه؛ لقد صُوِّرا معاً، لكن ضحك بارداجي على التكهنات التي تولدت، وأخبرني أنَّ الصحفيين الإسبان: "أعطوا بانون أهميَّة لا يملكها".

أدَّت سياسات ترامب، بازدرائه لأوروبا وحلف شمال الأطلسي والديمقراطيَّة، إلى تمرد بارداجي في التسعينيات، لكن ـ على غرار بعض المحافظين النوستالجيين في بريطانيا ـ سئم بارداجي بحلول عام ٢٠١٦ من "الديمقراطيَّة الليبراليَّة"، على الأقلّ بوصفها شعاراً وفكرة موحَّدة، وبعدِّه إسبانيّاً، أخبرني أنَّه لا يشعر أنَّ لديه الكثير من القواسم المشتركة مع الناتو الذي كان يستعد للدفاع عن أوروبا الشرقيَّة ضدّ روسيا، لكنَّه أعجب بفكرة

الانضمام إلى البيت الأبيض الذي بدا، على الأقلّ في البداية، مستعداً لخوض معركة ضدّ الإسلام الراديكاليّ، على الرغم من أنَّه كان بعيداً عن المستجدات في إسبانيا لمدة عقد من الزمان، إلا أنَّه وجد أنَّ لديه كثيراً من الاتصالات والمصالح المتداخلة مع إدارة ترامب الجديدة؛ روابط غير موجودة لدى رئيس الوزراء الاشتراكيّ الإسبانيّ، إذ عرف جيسون جرينبلات/ Jason Greenblatt، كبير مبعوثي إدارة ترامب للمفاوضات حول الشرق الأوسط، كان لديه صلات قديمة العهد مع حكومة نتنياهو، التي كانت بدورها قريبة من البيت الأبيض، وحصل على بعض مستشاري نتنياهو الانتخابيين لمساعدة "فوكس"، كان على اتصال بكبير مستشاري ترامب للأمن القوميّ، مايكل فلين/ Michael Flynn، بعد مدة وجيزة من الانتخابات الأمريكيَّة، وكذلك مع خليفته، هربرت رايموند مكماستر/ Herbert Raymond McMaster، لقد ذهب إلى واشنطن لمناقشة كلّ من رحلة ترامب الأولى إلى الناتو وكذلك الخطاب الذي ألقاه في وارسو عام ٢٠١٧؛ الخطاب الذي أبرز ضرورة الدفاع عن العالم المسيحيّ، إذ قال بارداجي: "التطلع الحضاريّ، كيف يجب أن يدافع الغرب عن نفسه، كنّا متفقين تماماً على ذلك".

رغم أنَّ نسبةَ المسلمين الإسبان الفعليين منخفضة ـ تأتي معظم الهجرات إلى إسبانيا من أمريكا اللاتينيَّة ـ لكن فكرة أنَّ الحضارة المسيحيَّة بحاجة إلى إعادة تعريف نفسها ضد العدو الإسلاميّ لها صدى تاريخيّ خاص في إسبانيا، استخدم "فوكس" هذا الصدى لمصلحته، إذ امتطى أباسكال حصاناً، في أحد مقاطع الفيديو الخاصّة

به، ومثل الفرسان الذين حاربوا ذات مرة لاستعادة الأندلس من العرب، تجول عبر المناظر الطبيعيَّة في جنوب إسبانيا، وعلى غرار العديد من الميمات على الإنترنت، كان الأمر جاداً لكنَّه ليس خطيراً: موسيقا الخلفيَّة هي الأغنية الرئيسة من فيلم "سيّد الخواتم/ The Lord of the Rings".

لا تشيرُ هذه الروابط بين "فوكس" وإدارة ترامب إلى مؤامرة، بل إلى مصالح وتكتيكات مشتركة، كما أنَّها تُظهر كيف ألهم نجاح ترامب وشجع مجموعة من الأشخاص الذين أرادوا استخدام لغة جديدة في إسبانيا ـ لغة مصمّمة خصيصاً لجذب الأشخاص الذين يشعرون بالغضب من الجدال الكتالونيّ، ولا يحبّون الطريقة التي فكك بها الخطاب الحديث الإسبان، ويعتقدون أنّ مشاريعَ الإصلاح الاجتماعيّ والثقافيّ قد تمادت كثيراً.

تخشى هذه المجموعة أيضاً في إسبانيا أن تتعرض أفكارها لخطر الزوال تماماً، ويظن بارداجي أنَّ الاستقطابَ في السياسة الإسبانيَّة أمر دائم، وأنَّه بالنسبة لأمثاله، لم تكن وظائفهم السياسيَّة معرضة للخطر فحسب، بل الأمَّة نفسها أيضاً، فإن لم يدخل المعركة مع أصدقائه المتشابهين في التفكير، يمكن استبعاد جماعتهم وكلّ ما يمثلونه من السياسة؛ هذا هو المصدر الحقيقيّ لخوف وغضب أنصار "فوكس"، وهو حقيقيّ، كان هذا أهمّ شيء قاله لي بارداجي: "إنَّنا ندخل في مدة زمنيَّة تصبح فيها السياسة شيئاً مختلفاً، السياسة هي حرب بوسائل أخرى، لا نريد أن نُقتل، علينا أن نبقى أحياء. . . أعتقد أنَّ السياسة الآن هي الفائز يأخذ كلَّ شيء".

"فوكس" هي أوّل حركة سياسيَّة إسبانيَّة في مرحلة ما بعد فرانكو، صُمّمت عن قصد لاستمالة ذلك الجزء من السكان المستائين من الاستقطاب في إسبانيا، سيزيد تطرف كتالونيا من دعمه أكثر، وكذلك الأمر بالنسبة للاحتجاجات النسويَّة، والمناظرات الاقتصاديَّة الغاضبة، وعودة الجدالات التاريخيَّة القديمة، وكما هو الحال مع وجود حزب "بوديموس"، حزب يساريّ راديكاليّ علنيّ في الحكومة الإسبانيَّة، فإنَّ "فوكس" هو مشروع أنشأه أشخاص يفهمون ذلك، إنَّهم يدركون أنَّ نجاح الحزب سيمنح مؤسّسيه والمتحدثين باسمه وصانعي ميماته وشركات العلاقات العامَّة التابعة له فرصة جديدة في الحياة السياسيَّة أيضاً، إضافة إلى الوصول إلى شبكة متنامية من الممولين والأنصار ومتصيدي الإنترنت ممّن يحملون أفكاراً مماثلةً عبر أوروبا وخارجها.

***

حتى عهد قريب جداً، قلما عمل قادة الأحزاب الوطنيَّة والقوميَّة "اليمينيَّة المتطرفة" في أوروبا معاً، على عكس الديمقراطيين المسيحيين من يمين الوسط، الذين أدَّى تعاونهم إلى إنشاء الاتحاد الأوروبيّ، فإنَّ الأحزاب القوميَّة متجذرة في تاريخها، وتعود أصول اليمين الراديكاليّ الفرنسيّ الحديث إلى المرحلة الفيشيَّة*، ولطالما تميز اليمين القوميّ الإيطاليّ بأحفاد الديكتاتور بينيتو موسوليني المثقفين، ناهيك من حفيدته الحقيقيَّة، كان لحزب العدالة والقانون

* نسبة إلى "فرنسا الفيشية" في إشارة لنظام الدولة الفرنسيَّة التي تزعمها الماريشال فيليب بيتان خلال الحرب العالميَّة الثانية، حيث كانت طبيعة النظام سلطويَّة، وتتسم بمعاداة السامية (تعليق المترجم).

صلاته بتحطم طائرة سمولينسك وهواجسه التاريخيَّة الخاصَّة، نتيجة لذلك، تعثرت محاولات التآخي في كثير من الأحيان بسبب الخلافات القديمة، على سبيل المثال: انهارتْ العلاقاتُ بين اليمين المتطرف الإيطاليّ واليمين المتطرف النمساويّ بسرعة ذات مرة بعد أن بدؤوا في الجدال بطريقة مسلية حول الهويَّة الوطنيَّة لجنوب تيرول، وهي مقاطعة ناطقة بالألمانيَّة في شمال إيطاليا تكون نمساويَّة في بعض الأحيان، أصبحت العلاقات بين حزبي "فوكس" و"رابطة الشمال/ Liga Nord" الإيطالي، وهو حزب قوميّ بدأ كحركة انفصاليَّة في شمال إيطاليا، متوترة حين دعم ماتيو سالفين/ Matteo Salvini، زعيم الرابطة "الليجا"، الانفصاليين الكتالونيين.

بدأ هذا يتغير في الآونة الأخيرة، إذ وجد بعض المثقفين والأيديولوجيين الذين يقفون وراء هذه الحركات الجديدة، المنقسمين منذ زمن طويل بالحدود والتاريخ، مجموعة من القضايا التي يمكن أن يتحدوا حولها؛ قضايا تعمل عبر الحدود ويسهل تسويقها عبر الإنترنت، إحدى هذه القضايا معارضة الهجرة، ولا سيَّما هجرة المسلمين، سواء أكانت حقيقيَّة أو متخيلة، والأخرى هي الترويج لنظرة عالميَّة دينيَّة محافظة اجتماعياً، وتكون معارضة الاتحاد الأوروبيّ، أو المؤسَّسات الدوليَّة عموماً ثالثها في بعض الأحيان، كانت هذه القضايا غير مترابطة ـ لا يوجد سبب يمنعك من أن تكون كاثوليكيَّاً مؤيداً لأوروبا، مثل ما كان الكثيرون في الماضي ـ ومع ذلك فإنَّ أولئك الذين يؤمنون بها قد توصلوا إلى قضيَّة مشتركة؛ فكره زواج المثليين، أو سائقي سيارات الأجرة

الأفارقة، أو "الأوروقراطيين"* هي أشياء يمكن حتى للإسبان والإيطاليين الذين يختلفون بشأن حركاتهم الانفصاليَّة المختلفة أن يتقاسموها، ويتجنب التاريخ والنزاعات الحدوديَّة القديمة، يمكنهم القيام بحملات مشتركة ضد المجتمعات العلمانيَّة المختلطة عرقياً التي يعيشون فيها، وفي الوقت ذاته جذب الناس الذين يريدون أن يتوقف النقاش الصاخب حول هذه الأشياء.

كانت توجد شركة لتحليل البيانات مقرها مدريد تسمى "Alto Data Analytics" من بين أولئك الذين حاولوا فهم كيفيَّة عمل هذه الحملة الجديدة وغير المفهومة جيداً العابرة للحدود، تتخصص شركة "Alto" في تطبيق الذكاء الاصطناعيّ لتحليل البيانات الموجودة على "تويتر"، "فيسبوك"، "إنستغرام"، و"يوتيوب"، وغيرها، لقد قضيت عدة ساعات في مدريد في الفترة التي تسبق الموسم الانتخابيّ الإسبانيّ، بعضها في مطعم في وقت متأخر من الليل (أين عشاه يكون غير ذلك في إسبانيا؟) مع صديق يعمل في "Alto"، لم يرد ذِكر اسمه في هذا الكتاب، أو الانجرار إلى المحادثة السياسيَّة الإسبانيَّة إطلاقاً، أراني مجموعة من خرائط الشبكة الأنيقة والملونة للمحادثة الإسبانيَّة عبر الإنترنت وأشار إلى التمايل الكبير في المنتصف: تلك هي المحادثة "السائدة"، حيث كان الكثير من الناس مترابطين، كما أراني ثلاث محادثات بعيدة ومستقطبة، إنَّها غرف صدى** منفصلة، كان أعضاؤها يتحدثون ويستمعون إلى

* "الأوروقراطيين/ Eurocrats": مصطلح يشمل الموظفين من جميع مؤسَّسات الاتحاد الأوروبيّ، وليس للموظفين من المفوضيَّة الأوروبيَّة فقط (تعليق المترجم).

** "غرف صدى/ Echo chambers": بيئة في منصات وسائل الاجتماعي يواجه فيها الشخص المعلومات أو الآراء التي تعكس وتعزز آراءه (تعليق المترجم).

بعضهم البعض غالباً، كانت إحداها محادثة انفصاليَّة كاتالونيَّة، وكانت الأخرى محادثة اليسار المتطرف، والثالثة محادثة "فوكس".

لم يكن ذلك مفاجئاً: فهذه المجموعات الثلاث كانت تبني هوياتها المنفصلة منذ مدة طويلة، كما لم يكن مفاجئاً أن أعلم أنَّ صديقي قد وجد أكبر عدد ممّن أسماهم "مستخدمين غير عاديين وذوي أداء عال" على الإنترنت الإسباني ـ أي الروبوتات، أو الأشخاص الحقيقيين الذين ينشرون بشكل متكرر جداً وربّما بشكل احترافيّ ـ ضمن المجتمعات الثلاثة هذه، لقد شكل مجتمع "فوكس" أكثر من نصفهم، وكشف معهد الحوار الاستراتيجيّ (ISD) ـ إنَّه منظمة بريطانيَّة تتعقب التطرف عبر الإنترنت ـ في ربيع عام ٢٠١٩ عن شبكة تضمّ ما يقارب ثلاثة آلاف "مستخدم غير عادي وذي أداء عال" ضخت ما يقارب ٤,٥ مليون رسالة مؤيدة لـ "فوكس" و مناهضة للإسلام على "تويتر" في العام السابق.

كانت أصول تلك الشبكة غير واضحة، إذ أُنشِئت في الأصل لمهاجمة حكومة مادورو في فنزويلا، لقد حوَّلت أهدافها بعد هجوم إرهابيّ في برشلونة عام ٢٠١٧، وركزت عوضاً عن ذلك على القصص المرعبة المتعلقة بالهجرة، وزادت حدتها العاطفيَّة تدريجيّاً، جاءت بعض المواد التي رُوّج لها في الشبكة أصلاً من شبكات متطرفة، تتماشى كلّها مع الرسائل التي طرحها "فوكس"، على سبيل المثال: في ٢٢ نيسان قبل أسبوع من يوم التصويت في إسبانيا، كانت الشبكة تغرد صوراً لما وصفه أعضاؤها بأنّها أعمال

شغب في "حيّ إسلاميّ في فرنسا"، لكن، في الواقع، أظهر المقطع مشهداً من أعمال الشغب الأخيرة المناهضة للحكومة في الجزائر.

لاحظَ كلٌّ من "Alto" و"معهد الحوار الاستراتيجيّ" حادثة غريبة أخرى، إذ كان من المرجَّح أن ينشر مؤيدو "فوكس"، ولا سيَّما المجموعة التي حُدّدت على أنَّها "مستخدمون غير عاديين وذوو أداء عالٍ"، محتوى ومواد من مجموعة من مواقع ويب تآمرية، أُنشِئت في الغالب قبل عام على الأقلّ من انتخابات ٢٠١٩، تبدو هذه المواقع، التي يديرها شخص واحد في بعض الأحيان، كأنَّها مواقع إخباريَّة محليَّة عادية لكنَّها مزجت المعلومات "العادية" بالمقالات والعناوين شديدة التحزب التي جرى ضخها بعد ذلك على نحوٍ منهجيّ في شبكات التواصل الاجتماعيّ، وجد فريق "Alto" أنواع المواقع الإلكترونيَّة ذاتها بالضبط في إيطاليا والبرازيل في الأشهر التي سبقت انتخابات هذين البلدين عام ٢٠١٨، وفي كلّ حالة، بدأت المواقع في طرح مواد حزبيَّة ـ في إيطاليا، حول الهجرة، في البرازيل، حول الفساد والنسويَّة ـ خلال العام السابق للتصويت، عملوا على تغذية وتضخيم الموضوعات الحزبيَّة في كلا البلدين حتى قبل أن تكون جزءاً من السياسة السائدة، لم تُصمم هذه المواقع لخلق قصص كاذبة بالضرورة، وعلى الرغم من قيام بعضهم بذلك، إلا أنَّ هدفهم الحقيقيّ أكثر تعقيداً؛ إذ صُممت لتأليف روايات خاطئة، تكرار الموضوعات وإبراز أهميتها، اختيار الأخبار بعناية والتأكيد على تفاصيل معينة، ولإثارة الغضب والانزعاج والخوف مراراً وتكراراً.

كان يوجد في إسبانيا نصف دزينة من هذه المواقع، بعضها احترافيّ جداً وبعضها هاوٍ على نحوٍ واضح، وينتمي بعضها الآخر إلى قالب، على سبيل المثال: كان لأحد أكثر المواقع غموضاً نفس الأسلوب والتصميم تماماً مثل موقع برازيلي مؤيد لبولسونارو/ Bolsonaro، كما لو أنّ الشخص نفسه قد صمّمهما، أو على الأرجح فريق متخصصي العلاقات العامّة نفسه، كتبة حديثون ومحدثون ومتطورون، كانت القصة الرئيسة لهذا الموقع في اليوم السابق للانتخابات الإسبانيَّة نظريَّة مؤامرة مألوفة: سيساعد جورج سوروس في تنظيم تزوير الانتخابات، لم يكن سوروس شخصيَّة معروفة في إسبانيا حتى جعله "فوكس" جزءاً من الحوار، كان ممكناً إيجاد بعض نظريَّات المؤامرة النموذجيَّة عنه على مواقع "فوكس"، بطبيعة الحال، قيل إنَّه كان يخطط لتعبئة أوروبا بالمسلمين.

وُجدت هذه الأنواع من المواقع في العديد من الأماكن الأخرى أيضاً، إذ عملت المواقع المقدونيَّة سيئة السمعة التي سعت للتأثير على الحملة الرئاسيَّة الأمريكيَّة وفقاً لمبادئ مشابهة جداً، وكان هذا حال مواقع المؤامرة التابعة لشبكة "كيو أنون/ QAnon"، وكذلك فعلت صفحات "فيس بوك" التي أنشأتها المخابرات العسكريَّة الروسيَّة خلال الحملة الانتخابيَّة الأمريكيَّة عام ٢٠١٦، إضافة إلى مواقع وسائل الإعلام الحكوميَّة الروسيَّة التي يمكن تحديدها بوضوح، "سبوتنيك/ Sputnik" و"آر تي/ RT"، لقد بدأ الآن تنفيذ أنموذج جديد من طريقة العمل هذه في الولايات المتحدة أيضاً.

كشف أحد مراسلي ميتشيغان عام ٢٠١٩ النقاب عن شبكة من المواقع التي تزعم أنَّها مواقع إخباريَّة محليَّة، أُنشِئت جميع المواقع في الوقت ذاته، بدت جميعها كأنَّها صحف "عادية" ذات أسماء مألوفة: لانسينغ صن "the Lansing Sun"، آن أربور تايمز "Ann Arbor Times"، وديترويت سيتي واير "Detroit City Wire"، احتوى كلّ منها على نفس الأنواع من القصص الحزبيَّة ـ حول كيفيَّة دعم مواطني ميشيغان للرئيس ترامب، على سبيل المثال ـ ممزوجة بقصص حول مكان شراء البنزين الأقلّ تكلفة، لقد صُمّمت عن عمد لضخها في غرف صدى حزبيَّة تآمريَّة.

بدأت أنواع مماثلة من المواقع في الأعوام الأخيرة تعمل في تناسق، عبر الحدود، بلغات مختلفة، لقد جمعت الأمم المتحدة قادة العالم معاً، في كانون الأول عام ٢٠١٨، لمناقشة الهجرة العالميَّة في قمَّة منخفضة المستوى أسفرت عن ميثاق ممل وغير ملزم؛ الميثاق العالميّ للهجرة الآمنة والنظاميَّة والمنتظمة، على الرغم من أنَّ الميثاق لم يحظ باهتمام وسائل الإعلام الرئيسة نسبياً، إلا أنَّ "Alto" وجدت ما يقارب خمسين ألف مستخدم على "تويتر" يغردون بنظريَّات المؤامرة حوله، كان عدة مئات يفعلون ذلك بلغات متعددة، بالتبديل بين الفرنسيَّة والألمانيَّة والإيطاليَّة، وبدرجة أقلّ الإسبانيَّة والبولنديَّة، كان هؤلاء المستخدمون يأخذون مواد من مواقع متطرفة وتآمريَّة، مستخدمين صوراً متطابقة، مرتبطة به ويعيدون تغريدها عبر الحدود، مثل الشبكة الإسبانيَّة التي تروّج لـ "فوكس".

دخلت شبكة دوليَّة مماثلة في حالة تأهب قصوى بعد حريق عام ٢٠١٩ في كاتدرائيَّة نوتردام في باريس، إذ تتبع "معهد الحوار الاستراتيجيّ" آلاف المنشورات من أشخاص يزعمون أنَّهم شاهدوا مسلمين "يحتفلون" بالحريق، إضافة إلى أشخاص نشروا شائعات وصوراً يُزعم أنَّها تثبت أنَّ الحريق متعمد، وظهرت إشاعة ـ على الفور تقريباً ـ في موقع يسمى "CasoAislado"، تزعمُ أنَّ "مئات المسلمين" كانوا يحتفلون في باريس واستخدم صورة بدت كما لو كان الأشخاص الذين يحملون ألقاباً عربيَّة ينشرون رموزاً ذات وجه مبتسم تحت مشاهد الحريق على "فيس بوك"، ثم غرد أباسكال بعد ساعات قليلة استياءه من هؤلاء "المئات من المسلمين" مستخدماً الصورة ذاتها، لقد ارتبط بها عبر منشور كتبه مُنظِّر المؤامرات الأمريكيّ الذي يتبع "اليمين البديل" بول واتسون/ Paul Watson، الذي بدوره ردَّد الصورة نفسها إلى ناشط فرنسيّ من اليمين المتطرف يُدعى داميان ريو/ Damien Rieu، كتب أباسكال: "يريد الإسلاميون تدمير أوروبا والحضارة الغربيَّة من خلال الاحتفال بنار #نوتردام، فلننتبه إلى ذلك قبل فوات الأوان".

انتشرتْ بعد ذلك هذه الأنواع من الميمات والصور من خلال مجموعات المعجبين بـــ"واتس أب" و"تيليغرام" العائدة لـ"فوكس"، شارك أعضاء هذه المجموعات ميماً باللغة الإنجليزيَّة يُظهر باريس "قبل ماكرون" مع نوتردام، و"بعد ماكرون" مع مسجد في مكانها، كما شاركوا مقطع فيديو إخباريّ، صُوِّر عن حادثة أخرى، بدا أنَّه يشير إلى اعتقالات وقنابل غاز عُثِر عليها في سيارة قريبة، لقد

كان مثالاً جيداً عن اليمين البديل الأمريكيّ، واليمين الأوروبيّ المتطرف، و"فوكس"، كلّها توجه الرسائل ذاتها في الوقت ذاته بلغات متعددة، في محاولة لخلق نفس المشاعر في أنحاء أوروبا جميعها وأمريكا الشماليَّة وخارجها.

يكتسب هذا العالم عبر الإنترنت نصف المخفي رويداً رويداً وجه عالم حقيقيّ، إذ شاهدت في شتاء عام ٢٠٢٠، في قاعة احتفال ذات فخامة مذهلة في فندق إيطاليّ ـ على كراس حمراء مخمليَّة، وتحت ثريات كريستاليَّة متلألئة وسقف زجاجيّ ملوّن ـ بعض هذه الحركات الجديدة تحاول توحيد قواها، كانت المناسبة عبارة عن مؤتمر عُقد ظاهرياً باسم رونالد ريغان ويوحنا بولس الثاني، نظمه جون أوسوليفان، من بين آخرين، إذ أُدرج معهده الممول من الحكومة المجريَّة بوصفه راعياً.

لقد ساد شعور النظر عبر البلورة السحريَّة حول الحدث، الذي أثار أسماء رجلين تشاركا فكرة كبيرة وطموحة وسخيَّة عن الحضارة السياسيَّة الغربيَّة ـ فكرة يمكن من خلالها لأوروبا الديمقراطيَّة وأمريكا الديمقراطيَّة أن تندمجا معاً اقتصاديّاً وسياسيّاً وثقافيّاً ـ على الرغم من أنَّ كلَّ فرد في الغرفة كان ملتزماً بإظهار رؤية المعاكسة تماماً، إنَّ موضوع الحدث هو "النزعة القوميَّة"، لكن ما ربط الحاضرين حقاً هو كره المجتمعات التي يعيشون فيها، فضلاً عن الخوف الحقيقيّ من اختفاء بعض قيمهم في هذه المجتمعات قريباً، وقف متحدث بعد متحدث ـ أمريكيّ، إيطاليّ، فرنسيّ، هولنديّ، بريطانيّ، بولنديّ، وإسبانيّ (عضو في البرلمان

الأوروبيّ لـ "فوكس") ـ ووصفوا مشاعر الاضطهاد السياسيّ، إضافة إلى تجربة كونك منشقاً في عالم تهيمن عليه مجموعة من الأفكار التي وُصفت بطرق مختلفة بأنَّها "يساريَّة"، "تقدميَّة"، "تنويريَّة ليبراليَّة عقلانيَّة"، أو حتى "سلطويَّة"، كان ابتعادهم عن الواقع السياسيّ مقلقاً في بعض الأحيان، لقد حزن الكثيرون على فكرة "الأمَّة" المفقودة، مع ذلك كنا هناك، في وسط روما، حيث أصبح السياسيّ القوميّ الصريح، وحتى الشوفيني، ماتيو سالفيني، قاب قوسين أو أدنى، يقود السباق ليكون رئيس الوزراء القادم.

لكن، كان بعضهم بليغاً جداً، بل مؤثراً، كانت من بين المتحدثين ماريون ماريشال/ Marion Maréchal، ابنة أخت الزعيمة اليمينيَّة المتطرفة الفرنسيّة مارين لوبان/ Marine Le Pen، التي يشار إليها كثيراً بوصفها مرشحاً رئاسياً فرنسياً في المستقبل، قسمت ماريشال العالم إلى "نحن" التي تضم كلّ فرد في الغرفة، و"هم" التي بدا أنَّها تشمل الجميع من الرئيس الفرنسيّ الليبراليّ، إيمانويل ماكرون، إلى الستالينيين الفرنسيين: "نحاول ربط الماضي بالمستقبل، والأمَّة بالعالم، والأسرة بالمجتمع . . . نحن نمثل الواقعيَّة، وهم أيديولوجيا، نحن نؤمن بالذاكرة، وهم يعانون من فقدانها"، حتى عند قولها لهذه الكلمات، كان ماكرون نفسه في كراكوف، حيث وصف نفسه أنَّه فرنسيّ وأوروبيّ فخور، وتطرق إلى الحديث أكثر قليلاً عن التاريخ والذاكرة في ذلك اليوم، كعادته في كثير من الأحيان، قد لا يكون هذا مهماً بالنسبة لمحبي ماريشال، إذ من المفترض أنَّهم يفضلون الاستماع إلى التاريخ من شخص

مثلها، متحدث باسم التعريف العرقيّ لفرنسا والفرنسيَّة، أو لعلَّهم يشاركونها شعورها بالاضطهاد ويسعدون بسماع ذلك علناً.

لقد تضاءل الجمهور في روما على نحو ملحوظ مع انقضاء اليوم بفضل بعض الخطب الأقلّ بلاغة إلى حدّ ما حول الوطنيَّة البولنديَّة وأمجاد "السيادة"، لكن مع اقتراب موعد الجلسة الأخيرة، بدأ المصورون والصحفيون بالعودة إلى الغرفة، نال المتحدث الأخير ترحيباً حاراً حين دخل، لقد كان فيكتور أوربان نفسه، الشخص الذي أدركت أنَّ الكثيرين في الغرفة قد جاؤوا ليسمعوه بالفعل، ليس لأنَّه كان الأكثر فصاحة، بل لأنَّه حقَّق بعض الأشياء التي يريدها الآخرون، على الرغم من أنَّ العديد من المتحدثين قد تكلموا عن أيديولوجيَّة اليسار القمعيَّة في الجامعات، فإنَّ المجر هي الدولة الأوروبيَّة الوحيدة التي أغلقت جامعة بأكملها، ووضعت هيئات أكاديميَّة مثل الأكاديميَّة المجريَّة للعلوم تحت السيطرة الحكوميَّة المباشرة، وألغت التمويل من أقسام الجامعة التي لا يحبّها الحزب الحاكم لأسباب سياسيَّة، وعلى الرغم من اعتراض الكثيرين على وسائل الإعلام "اليساريَّة"، فإنَّ المجر هي الدولة الأوروبيَّة الوحيدة أيضاً التي استخدمت مزيجاً من الضغط السياسيّ والماليّ لوضع معظم وسائل الإعلام الخاصَّة والعامَّة تحت سيطرة الحزب الحاكم أيضاً، بالنسبة للأحزاب السلطويَّة المحتملة والسياسيين الذين ما زالوا خارج السلطة غالباً، كان يوجد الكثير ممَّا يستحق الإعجاب؛ فالمجر ليست دولة كبيرة، لكن هذا النوع من السيطرة، هذا النوع من التأثير، هو ما يرغبون فيه.

لم يلقِ أوربان خطاباً، عوضاً عن ذلك، طُلب منه شرح أسرار نجاحه، فقال بجديّة إنَّه من المهم عدم الاضطرار إلى تقاسم السلطة مع الأحزاب الأخرى، لم يشرح التلاعب، والمعالجة الانتخابيَّة، والغش بالحيلة والبراعة الذي سمح له بالحفاظ على أغلبيته، كما قال إنَّه لأمر مفيد أن تحظى بدعم وسائل الإعلام، فضحك قلَّة من الناس في الجزء الخلفيّ من الغرفة حيث كانت الصّحافة جالسة، ضحك عدد قليل من الناس، أمَّا من تبقى في الغرفة فقد أومأوا برؤوسهم، ولم يضحكوا مطلقاً: لقد تعاطفوا، وفهموا.

الفصلُ الخامس

نِيَرانُ البَرارِيّ

مع قصتنا التأسيسيَّة القويَّة، وتبجيلنا غير العادي لدستورنا، وعزلتنا الجغرافيَّة، وقرنين من النجاح الاقتصاديّ النسبيّ، كان الأمريكيون المعاصرون مقتنعين منذ مدّة طويلة أنَّ الديمقراطيَّة الليبراليَّة، بمجرد تحقيقها، من المستحيل عكسها، ولم يكن المؤسّسون أنفسهم متأكدين تماماً: علّمهم مؤلفوهم الكلاسيكيون المحبوبون أنَّ التاريخَ دائريّ، وأنَّ الطبيعةَ البشريَّةَ معيبة، وأنَّ هناك حاجة إلى تدابير خاصة لمنع الديمقراطيَّة من الانزلاق مرة أخرى إلى الاستبداد، لكن التاريخ الأمريكيّ، بالنسبة لمعظم الأمريكيين المعاصرين، لا يبدو دائرياً، بل على العكس من ذلك، يُروى التاريخ الأمريكيّ على أنّه قصة تقدم، للأمام وللأعلى، مع الحرب الأهليَّة كلقطة في المنتصف.

لا يأتي اليأسُ الثقافيُّ بسهولة إلى أمَّة تؤمن بأسطورة هوراشيو ألجر / Horatio Alger* ومصيرها الواضح، والتشاؤم شعور غريب

* نالت أسطورةُ هوراشيو ألجر، وهو مؤلفُ قصص أطفالٍ أمريكيٌّ، (أسطورةُ الحلم الأمريكيّ) شهرة واسعة في أواخر القرن التاسع عشر والتي كان مفادها أن أيَّ شخص يمكن أن يحسن وضعه الاجتماعي من خلال التصميم والعمل الجاد، وتَمنحُ القصصُ الأمل والراحة لمن يقرؤها على عكس الواقع، لأنّ النهاية السعيدة هي ما تدورُ حوله قصص هوراشيو ألجير. (تعليق المترجم)

في دولة تحتوي وثائقها التأسيسيَّة، تجسيد التنوير، على واحدة من أكثر وجهات النظر تفاؤلاً حول إمكانيَّات الحكومة البشريَّة المكتوبة من أيّ وقت مضى.

أضِفْ إلى ذلك: تم ترميز التفاؤل بشأن إمكانيَّات الحكومة في ثقافتنا السياسيَّة منذ عام ١٧٧٦، وفي ذلك العام لم يكن "من البدهي" البتة، في معظم أنحاء العالم، أن يكونَ جميعُ الرجال خلقوا متساوين، ولم يكن واضحاً، في عام ١٧٨٩، أنّنا "نحن الشعب" كنَّا قادرين على تشكيل "اتحاد أكثر كمالاً"، أو حتى أنّنا "نحن الشعب" كنَّا قادرين على حكم أنفسنا إطلاقاً، إلّا أنّ مجموعة صغيرة من الرجال الذين تجمعوا على الساحل الشرقي لما كان آنذاك قارة موحشةً، وكتبوا تلك الكلمات، ثم قاموا ببناء مجموعة من المؤسَّسات المصمَّمة لجعلها حقيقة، كانوا متفائلين بشأن الطبيعة البشريَّة، التي لم يعتقدوا بإمكانيَّة إتقانها، وسعوا بدلاً من ذلك إلى إنشاء نظام مليء بالضوابط والتوازنات من شأنه تشجيع الناس على التصرف على نحوٍ أفضل، ولم تكن كلماتهم سامية تعكس الواقع في ذلك الوقت ولا لاحقاً، ولم تكن مؤسّساتهم تعمل دائماً على النحو المنشود في ذلك الوقت ولا لاحقاً، لكن بمرور الوقت، أثبتت الكلماتُ أنّها قويَّة بما فيه الكفاية، وأنَّ المؤسَّسات مرنة بما يكفي لتشمل دوائر أكبر من المواطنين المستحقين بالكامل، وأخيراً لا يشمل الرجال فقط ولكن النساء أيضاً، والأشخاص الذين ليس لديهم ممتلكات أو ثروة، والعبيد السابقون، والمهاجرون من كلِّ ثقافة، وحين فشلت المؤسَّسات، كما حدث في بعض الأحيان،

تليت الكلمات وتكررت لإقناع الناس بالمحاولة مرة أخرى.

تحدَّث أبراهام لينكولن عن أمريكا بوصفها "آخر وأفضل أمل للأرض"، وحلمَ مارتن لوثر كينغ الابن أنَّ "هذه الأمَّة ستنهض يوماً ما وتعيش المعنى الحقيقيّ لعقيدتها: "نحن نتمسك بهذه الحقائق لتكون بدهيَّة، وإنَّ جميع الرجال خلقوا متساوين".

منذ البداية، كان يوجد قناعة أيضاً بأنَّ هذه الأمَّة الجديدة ستكون مختلفة عن الآخرين، حيث اعتقد توماس جيفرسون/ Thomas Jefferson أنَّ الديمقراطيَّة في أمريكا ستنجح، حتى عندما فشلت في فرنسا؛ لأنَّ التاريخَ الفريدَ وتجارب الأمريكيين هيأتهم لها، وكان يعتقد أنَّ الأمريكيين، الذين "تأثروا من مهدهم" بالإيمان بالحكم الذاتيّ الديمقراطيّ، كانوا مميزين على وجه التحديد لأنَّهم كانوا معزولين عن أوروبا ودورات تاريخها؛ "انفصلوا عن المسار الأصل & حُفظوا من التلوث".

أعاد آخرون، من دي توكفيل* إلى ريغان، تفسير هذه "الاستثنائيَّة"** على أنَّها تعني أشياء مختلفة، لكن ما جعل الوطنيَّة

---

* كان دي توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩) أرستقراطيَّاً فرنسيَّاً ودبلوماسيَّاً وفيلسوفاً ومؤرخاً، وعضواً في يسار الوسط، دعا إلى حكومة برلمانيَّة وكان ليبراليَّاً كلاسيكيَّاً متشككاً في التطرف في الديمقراطيَّة، اشتهر بأعماله: "الديمقراطيَّة في أمريكا/ Democracy in America" (ظهرت في مجلدين، ١٨٣٥ و١٨٤٠)، و"الثورة والنظام القديم/ The Old Regime and the Revolution" (١٨٥٦)، حيث حلّل مستويات المعيشة والظروف الاجتماعيَّة للأفراد فضلاً عن علاقتهم بالسوق والدولة في المجتمعات الغربيَّة، ونُشر كتاب "الديمقراطيَّة في أمريكا" بعد رحلات توكفيل إلى الولايات المتحدة، ويعدُّ اليوم عملاً مبكراً لعلم الاجتماع والعلوم السياسيَّة.
جادل توكفيل بأنَّ أهميَّة الثورة الفرنسيَّة كانت لمواصلة عمليَّة تحديث ومركزة الدولة الفرنسيَّة التي بدأت في عهد الملك لويس الرابع عشر، وكان يعتقد أنَّ فشل الثورة جاء من قلَّة خبرة النواب الذين كانوا متشبثين جداً بمُثُل التنوير المجردة (تعليق المترجم).

** "الاستثنائيَّة/ Exceptionalism": التصور أو الاعتقاد بأنَّ بلداً أو مجتمعاً أو مؤسَّسة أو

الأمريكيَّة فريدة حقّاً، في ذلك الوقت وبعده، هو حقيقة أنَّها لم تكن مرتبطة بشكل صريح بهويَّة عرقيَّة واحدة ذات أصل واحد في مكان واحد. إنَّ خطاب ريغان "مدينة مشرقة على التل/ shining city on a hill" في عام ١٩٨٩، الذي يُذكر بوصفه ذروة "العظمة الأمريكيَّة" والبلاغة "الاستثنائيَّة الأمريكيَّة"، أثار بوضوح الوثائق التأسيسيَّة لأمريكا وليس الجغرافيا الأمريكيَّة أو العرق الأمريكيّ، حيث دعا ريغان الأمريكيين إلى التوحد ليس حول الدم والأرض ولكن حول الدستور: "طالما أنَّنا نتذكر مبادئنا الأولى ونؤمن بأنفسنا، فسيظلُّ المستقبل لنا دوماً"، لكن كان يوجد منذ البداية بدائل متاحة أيضاً، ونسخ مختلفة حول ما هي أمريكا أو ما ينبغي أن تكون عليه، وتعريفات مختلفة لـ "الأمَّة"، ومثل الصوت المتشدد داخل جوقة صاعدة، لطالما وجدت مجموعات كانت كراهيتها للمثل الأمريكيَّة عميقة للغاية، ممَّا يعكس أكثر من مجرد إرهاق مع الحكومة الحاليَّة.

منذ عام ١٧٧٦، لطالما وجد البعضُ المشروعَ الأمريكيَّ ساذجاً أو مخيفاً أو قمعيّاً أو كاذباً، حيث فرَّ عشرات الآلاف من الموالين إلى كندا بعد الثورة، وانفصلت الولايات الكونفدراليَّة، وبالنسبة للبعض كانت خيبة الأمل من أمريكا عميقة للغاية، والغضب من

حركة أو نوعاً أو فرداً أو مرحلة زمنيَّة يشكلون حالة "استثنائيَّة" غير عادية أو غير مألوفة، ويحمل المصطلح ضمنيّاً، سواء أكان محدداً أم لا، أنَّ المشار إليه بـ "الاستثنائيَّة" متفوق بطريقة ما، وبذلك يكون الاستثناء الأمريكيّ هو فكرة أنَّ الولايات المتحدة مختلفة بطبيعتها عن الدول الأخرى، حيث يجادل مؤيدوها بأنَّ القيم والنظام السياسيّ والتطور التاريخيّ للولايات المتحدة فريدة من نوعها في تاريخ البشريَّة، ويعني ذلك ضمنيّاً أنَّ الدولة تستحقّ ومقدَّر لها لعب دور متميز وإيجابيّ على المسرح العالميّ (تعليق المترجم).

أمريكا شديداً لدرجة أنّه دفعهم إلى استخلاص استنتاجات جذريَّة واتخاذ إجراءات قاسية.

في نصف القرن الماضي، كانت الرؤى الأكثر يأساً والأكثر ترويعاً للحضارة الأمريكيَّة تأتي عادةً من اليسار، وبإلهام من المفكرين والحركات الأوروبيَّة ـ الماركسيَّة واللاسلطويَّة* والبلشفيَّة ـ حزن الراديكاليون الأمريكيون في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على وصول الحداثة الجهنميَّة، واستنكروا فشل الرأسماليَّة الأمريكيَّة في تحسينها، وأعطت اللاسلطويَّة إيما جولدمان/ Emma Goldman صوتاً لطبقة كاملة من المثقفين والناشطين حين كتبت في عام ١٩١٧ ما وصفته بـ "مؤسَّسات أمريكا الوهميَّة": "جمهوريَّة حرَّة! كيف ستحافظ أسطورة على نفسها، وكيف ستستمر في الخداع والغش، وتعمي حتى الأذكياء نسبيَّاً عن سخافاتها الفظيعة". شعرت جولدمان بالاشمئزاز ولاسيّما من المغامرات العسكريَّة الأمريكيَّة خارج الحدود، ومن اللغة الوطنيَّة الأمريكيَّة المستخدمة لتسويغها، وسألت في مقال نُشر عام ١٩٠٨، "ما هي الوطنيَّة؟": هل هو "مكان ذكريات الطفولة وآمالها وأحلامها وتطلعاتها؟" لا، خلصت إلى أنَّها ليست كذلك:

* "اللاسلطويَّة أو الأناركيَّة/ Anarchism" : هي فلسفةٌ سياسيَّة وحركة تشكك في كلّ مسوغات السلطة وتسعى إلى إلغاء المؤسّسات ورفض التسلسلات الهرميَّة، وتدعو الأناركيَّة إلى استبدال مجتمعات عديمة الجنسية أو أشكال أخرى من الجمعيَّات الحرَّة بالدولة، وُضعت في أقصى يسار الطيف السياسيّ وبوصفها حركة يساريَّة تاريخيَّة، وتصنف إلى جانب الطائفيَّة والماركسيَّة التحرريَّة بأنَّها الجناح التحرريّ (الاشتراكيَّة التحرريَّة) للحركة الاشتراكيَّة (تعليق المترجم).

إذا كانت هذه هي "الوطنيَّة"، فقد تمت دعوة عدد قليل من الرجال الأمريكيين اليوم ليكونوا وطنيين، حيث تحوَّل مكانُ اللعب إلى مصنع وطاحونة ونادٍ، بينما حلَّت أصوات الآلات التي تصم الآذان محل موسيقا الطيور، ولا يمكننا بعد الآن سماع حكايات الأعمال العظيمة، لأنَّ القصص التي ترويها أمهاتنا اليوم ما هي إلا قصص الأسى والدموع والحزن.

اعتقدت جولدمان أنَّ الحلمَ الأمريكيَّ كان وعداً زائفاً، وأنَّ أمريكا نفسها مكان " الأسى والدموع والحزن"؛ المعتقدات التي قادتها في البداية إلى أشكال متطرفة من الاحتجاج، ودخل رفيقها وشريكها، ألكسندر بيركمان/ Alexander Berkman، إلى السجن لمحاولة فاشلة لاغتيال الصناعيّ هنري كلاي فريك/ Henry Clay Frick، وارتبط بيركمان بمحاولة فاشلة لتفجير منزل جون دافيسون روكفلر الابن/ KJohn Davison Rockefeller Junior، ومع أنَّها نبذت العنف لاحقاً ـ وصُدمت بشدَّة من حقائق الثورة البلشفيَّة، بمجرد أن واجهتها ـ وفي عام ١٩١٧، أبدت جولدمان بعض التفهم من أجل "الشهداء المعاصرين الذين يدفعون ثمن إيمانهم بدمائه، والذين يرحبون بالموت بابتسامة، لأنَّهم يؤمنون حقاً كما فعل المسيح، أنَّ استشهادهم سيفدي البشريَّة".

وجد هذا النوع من اللغة طريقه ـ بعد خمسين عاماً ـ إلى تفكير "الطقس تحت الأرض"*، فقد قامت هذه المجموعة من المتطرفين

---

* "منظمة الطقس تحت الأرض/ The Weather Underground Organization" (WUO): منظمة مسلَّحة يساريَّة راديكاليَّة كانت تُعرف سابقاً بـ "Weatherman"، تأسَّست في حرم آن أربور بجامعة ميشيغان، من مجموعة متشددة من الأمريكيين البيض الشباب في عام ١٩٦٩،

بإلقاء زجاجات المولوتوف على منزل أحد قضاة المحكمة العليا في نيويورك في عام ١٩٧٠، وأصدرت "إعلان حرب" ضد الولايات المتحدة، وفجرت عن طريق الخطأ منزلاً في قرية غرينتش أثناء صنع القنابل، ومثل الأناركيين في حقبة سابقة، لم يكن لديهم إيمان بالنظام السياسيّ الأمريكيّ أو قدرته على إحداث تغيير ذي مغزى.

في بيانهم الأكثر شهرة، "نيران البراريّ"، كتبوا عن "أيديولوجيَّة القاتلة للانسياق والتَّدريجيَّة"، التي "تتظاهر بطمأنة الناس" من خلال نشر الأفكار الوسطيَّة و الاسترضائيَّة، وهذا "المنهج الإصلاحيّ" ـ التي قصدت به الأنشطة العادية للسياسة الديمقراطيَّة ـ "يفترض الخير الجوهريّ للمجتمع الأمريكيّ، في تناقض مع وجهة النظر الثوريَّة القائلة إنَّ النظام فاسد حتى النخاع ويجب الإطاحة به"؛ لا تفترض "منظمة الطقس تحت الأرض" الخير الأساسيّ للمجتمع الأمريكيّ، كانوا يعتقدون أنَّ النظام كان فاسداً حتى النخاع، ومن خلال تقاسم ازدراء لينين للسياسين والمشرعين المنتخبين، أصيبوا بالإحباط والملل من فكرة بناء الدوائر الانتخابيَّة أو السعي للحصول على أصوات.

بل إنَّهم كانوا أكثر غضباً من فكرة "الاستثنائيَّة الأمريكيَّة"، التي أدانوها علناً في بيانهم "نيران البراريّ"، ولا يمكن لأمريكا أن تكون

وقد نُظمت كفصيل من الطلاب من أجل مجتمع ديمقراطيّ (SDS)، وأصبحت تعرفُ رسمياً بـ "منظمة الطقس تحت الأرض" ابتداء من عام ١٩٧٠، سعى أعضاء هذه المنظمة إلى تعزيز الشيوعيَّة من خلال الثورة العنيفة، ودعت المجموعةُ الشبابَ الأمريكيَّ إلى اتخاذ حركة عنيفة إزاء الحكومة الأمريكيَّة، وكان الهدفُ السياسيُّ الواضح للمجموعة هو إنشاء حزب ثوريّ للإطاحة بالإمبرياليَّة الأمريكيَّة، وكانت "أيام الغضب" أوَّل أعمال شغب لـ"WUO" في تشرين الأوّل ١٩٦٩ في شيكاغو(تعليق المترجم).

متميزة في عقولهم، ولا يمكن عدّها مختلفة، ولا يمكن أن تكون استثناءً.

لقد نصت القوانينُ الحديديَّة للماركسيَّة على أنَّ الثورة ستصل إلى أمريكا، عاجلاً أم آجلاً، ممَّا يضعُ حدّاً لتأثير أمريكا الضار على العالم، وإنَّ غضبهم من كلمة "الاستثنائيَّة" له صدى في اللغة الموجودة في جزء من اليسار السياسيّ اليوم.

بذل المؤرخ هوارد زين/ Howard Zinn، مؤلف تاريخ أمريكا الذي يركز على التمييز العنصريّ والتحيز الجنسيّ والقمع، قصارى جهده للتنديد بـ "أساطير الاستثنائيَّة الأمريكيَّة"، وقد نُشِرَتْ العشرات من المقالات بأشكال مختلفة من ذلك العنوان نفسه في العقدين الماضيين، وإنَّ ذلك النفور من أمريكا يتردَّد صداه ويصدح في الاجتماعات العامَّة، والمؤتمرات والندوات التي لا تنتهي حيثما يجتمع الآن أولئك الذين خاب أملهم من الفكرة الأمريكيَّة.

توجد مجموعة أخرى من الأمريكيين قادهم اشمئزازهم من إخفاقات الديمقراطيَّة الأمريكيَّة إلى استنتاجات راديكاليَّة مماثلة، ولها صدى اليوم أيضاً، وإذا كان اليسار قد حدَّد كآبته في القوَّة المدمرة للرأسماليَّة، وقوَّة العنصريَّة، ووجود الجيش الأمريكيّ في الخارج، فإنَّ اليمين المسيحيّ قد حدَّد خيبة أمله فيما عدّه فساداً أخلاقيّاً، وانحلالاً، واختلاطاً عرقيّاً، وقبل كلّ شيء علمانيَّة أمريكا الحديثة التي لا رجوع عنها.

لقد جادلَ الكاتبُ ميخائيل جيرسون / Michael Gerson،

وهو مسيحيّ إنجيليّ فضلاً عن كونه محللاً نقديّاً فَطِناً للمسيحيَّة "السياسيَّة"، بأنَّ جزءاً من المجتمع الإنجيليّ يعتقد الآن حقاً أنَّ أمريكا قد ضاعت، ويصفُ جيرسون، كاتب خطابات جورج دبليو بوش السابق وهو شخص آخر بعيد عن زملاء سابقين الآن، آراء أصدقائه السابقين مثل الآتي: "لن يُفتتح عصر جديد وأفضل حتى المجيء الثاني للمسيح، الذي هو الوحيد القادر على تنظيف الفوضى، ولا يمكن لأيّ قدر من الجهد البشريّ التعجيل بذلك اليوم، أو إنقاذ عالم محكوم عليه بالفناء في نهاية المطاف". بعبارة أخرى، لا فائدة من محاولة تحسين المجتمع حتى يوم القيامة نفسه، بل إنَّه من المحتمل أن يزدادَ الأمرُ سوءاً.

جادل إيريك ميتاكساس/ Eric Metaxas، وهو مقدّم برنامج إذاعيّ حواريّ إنجيليّ، بأنَّ فوزَ هيلاري كلينتون في عام ٢٠١٦ سينذر بنهاية الجمهوريَّة: "المرة الوحيدة التي واجهنا فيها صراعاً وجوديّاً مثل هذا كانت في الحرب الأهليَّة والثورة عندما بدأت الأمَّة".

استخدم فرانكلين جراهام/ Franklin Graham، ابن المبشر بيلي جراهام ورئيس جامعة ليبرتي، لغة أكثر تفصيلاً أثناء رئاسة أوباما: "أعتقد أنَّنا في منتصف الليل فيما يتعلَّق بساعة الله أو قد نكون في الدقائق الأخيرة . . . عندما ترى مدى سرعة تدهور بلدنا، ومدى سرعة تدهور العالم أخلاقياً، ولا سيّما خلال هذه الإدارة، فقد رأينا أنَّه قد أخذ ما يشبه سقطة حادّة من لوح الغوص الأخلاقيّ إلى مجرد بالوعة للبشريَّة".

إنَّ هذا التجنح من التشاؤم اليمنيّ العميق تجاه أمريكا ليس بالشيء الجديد، فقد قُدِّمتْ نسخة من هذه الآراء نفسها إلى الأمريكيين مراراً وتكراراً، على مدى ثلاثة عقود، من قبل العديد من المتحدثين والكتاب الآخرين، لكن أشهرهم باتريك بوكانان/ Patrick Buchanan؛ بوكانان ليس بروتستانتيّاً إنجيليّاً، بل هو كاثوليكيّ يشترك في نفس النظرة المروعة للعالم.

في عام ١٩٩٩، أعلن بوكانان استقالته من الحزب الجمهوريّ وترشحه للرئاسة على رأس "حزب الإصلاح"، وأعرب في بيان خطابه عن أسفه لفقدان "الثقافة الشعبيَّة التي قامت عليها قيم الإيمان والأسرة والبلد، فكرة أنَّنا (نحن الأمريكيون) شعب يضحّي ويعاني معاً، ويمضي قدماً معاً، الاحترام المتبادل، مراعاة الحدود، الأخلاق الحميدة، كلها ذهبت"، وفي الإصدارات الأحدث من هذا الرثاء، كان بوكانان أكثر تحديداً بشأن يأسه الثقافيّ، كما كان في ربيع عام ٢٠١٦:

في الثقافة الشعبيَّة في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، كان الرجال البيض قدوة؛ كانوا المحققين ورجال الشرطة الذين لاحقوا رجال العصابات، والأبطال الذين انتصروا في الحرب العالميَّة الثانية في ساحات القتال في أوروبا وفي جزر المحيط الهادئ. انقلبَ العالمُ رأساً على عقب بالنسبة للأطفال البيض، وفي مدارسنا أعيدت كتابة كتب التاريخ وطمس الأبطال القدامى، كما أُزيلت تماثيلهم ووضعت أعلامهم جانباً.

الأغرب من ذلك أنَّ الرجل الذي قاوم الروايات السوفيتيَّة

الزائفة لعقود عديدة واجه صعوبة في التعامل مع الرواية الروسيَّة الزائفة، التي أنشأها تقنيو بوتين السياسيون، بأنَّ روسيا أمّة مسيحيَّة تقيَّة تسعى إلى حماية هويتها العرقيَّة، ولا يهمُّ أنَّ نسبة ضئيلة فقط من الروس يذهبون بالفعل إلى الكنيسة، أو أنَّ أقل من ٥ في المائة يقولون إنَّهم قرأوا الكتاب المقدَّس يوماً، ناهيك من أنَّ روسيا هي دولة متعددة الأعراق واللغات، مع تعداد مسلمين أكبر بكثير من معظم الدول الأوروبيَّة، وأنَّ الشيشان ـ مقاطعة روسيَّة ـ تحكمها في الواقع الشريعة الإسلاميَّة، أو أنَّ حكومتها تجبر النساء على ارتداء الحجاب وتعذب الرجال المثليين، ولا يهمّ أنَّ العديد من أشكال المسيحيَّة الإنجيليَّة محظورة بالفعل.

عملت البروباجندا ـعلى سبيل المثال: صور بوتين تكريماً لأيقونة سيدة كازان، أو دمج الخدمات الدينيَّة في حفل تنصيبه ـ على باتريك بوكانان، الذي أصبح مقتنعاً أنَّ روسيا كانت دولة قوميَّة عرقيَّة من نوع متفوق على أمريكا، التي يصفها باشمئزاز بأنَّها "(دولة عالميَّة) متعددة الثقافات، ومتعددة الأعراق، ومتعددة الأجناس، ومتعددة اللغات، وتجسّدها شخصيَّة (أفاتار) باراك أوباما".

***

على غرار أولئك الذين يعيشون في أقصى أطراف اليسار المتطرف الأمريكيّ، فإنَّ بعضاً من أولئك الذين يعيشون في أقصى أطراف اليمين المتطرف قد انجذبوا إلى العنف منذ مدّة طويلة،

ولا توجد حاجة هنا لإعادة سرد تاريخ كو كلوكس كلان*، لإخبار قصص مفجر أوكلاهوما تيموثي ماكفي وديلان روف، مطلق النار في تشارلستون، أو لوصف عدد لا يحصى من الأفراد وحركات الميليشيات الذين خططوا، واستمروا في التخطيط، لعمليَّات القتل الجماعيّ باسم إنقاذ أمَّة ساقطة.

في عام ٢٠١٧، فجرت ميليشيا من ولاية إلينوي قنبلة في مسجد في مينيسوتا، وفي عام ٢٠١٨، قتل رجل يعتقد أنَّ اليهود كانوا يخططون لتدمير أمريكا البيضاء أحد عشر شخصاً في كنيس في بيتسبرغ، وفي كانون الثاني ٢٠١٩، خطّطت مجموعة من الرجال يطلقون على أنفسهم اسم "الصليبيين" لوضع قنبلة في مجمع سكني في جاردن سيتي بولاية كنساس، لأنَّهم كانوا يأملون في قتل عدد كبير من اللاجئين الصوماليين، كانت هذه المجموعات والحركات مستوحاة من الاقتناع بأنَّ الديمقراطيَّة لا قيمة لها، وأنَّ الانتخابات لا يمكن أن تحدث تغييراً حقيقيّاً، وأنَّ الإجراءات الأكثر تطرفاً ويأساً فقط هي التي يمكن أن توقف تدهور رؤية معينة لأمريكا.

* "كو كلوكس كلان/ Ku Klux Klan (KKK)": منظمة سريَّة تأسَّست في عام ١٨٦٥، امتدَّت إلى كلّ الولايات الأمريكيَّة الجنوبيَّة تقريباً، استخدمت تكتيكات إرهابيَّة لاستهداف الأمريكيين الأفارقة في معارضة لتحرير العبيد عقب الحرب الأهلية الأمريكيَّة، ودعت إلى فرض سيادة البيض كنظام سياسيّ واجتماعيّ للجنوب في حين اتخذت من العنف وسيلة لتجسيد أفكارها، بدأت الحقبة الثانية من نشاط "كو كلوكس كلان" في عام ١٩١٥، ونظمت مسيرات جماهيريَّة تدعو إلى معاداة اليهود والسود والكاثوليك والمهاجرين الوافدين حديثاً من جنوب وشرق أوروبا مثل الإيطاليين والروس والليتوانيين، وبدأ تراجع تعداد أعضاء هذه المنظمة نتيجة لقرار الكونغرس التصدي لهذه المنظمة بناء على طلب الولايات الجنوبيَّة لوقف نشاطات هذه المنظمة واعتقال المشتبه بارتكابهم جرائم ذات صلة بنشاطاتها، وما تزال حكومة الولايات المتحدة الأمريكيَّة تلاحق أعضاء هذه المنظمة بوصفها "منظمةً إرهابيَّةً تخريبيَّة" (تعليق المترجم).

بحلول عام ٢٠١٦، تلاقت بعض حجج اليسار الماركسيّ القديم ـ كراهيته للسياسة البرجوازيَّة العادية وتوقهم للتغيير الثوريّ ـ واختلطت مع يأس اليمين المسيحيّ بشأن مستقبل الديمقراطيَّة الأمريكيَّة، وأنتجوا معاً خطاب حملة الحنين الإصلاحيَّة لدونالد ترامب، قبل ذلك بعامين، عارض ترامب بشدَّة الفشل الأمريكيّ، ودعا إلى حلّ كان تروتسكي سيستحسنه: "هل تعرف ما الذي يحلّ [هذا]؟ حين ينهار الاقتصاد، ويذهب البلد إلى الجحيم الكامل، وكل شيء هو كارثة، ثم سيكون لديك. . . أعمال شغب للعودة إلى ما كنَّا عليه عندما كنَّا عظماء."

قبل ذلك بأربع سنوات، تحدَّث مستشاره ستيف بانون/ Steve Bannon، الذي قارن نفسه علانيَّة بلينين، عن الحاجة إلى الحرب بطريقة تشير إلى وجود خطر: "سنضطر إلى قضاء بضعة أيام مظلمة قبل أن نصلَ إلى السماء الزرقاء في الصباح مرَّة أخرى في أمريكا، وسيتعين علينا أن نتحملَ بعض الآلام الشديدة، وأيّ شخص يعتقد أنَّنا لسنا مضطرين لتحمل الألم هو، على ما أعتقد، يخدعك"، وفي خطاب عام ٢٠١٠، قام بإشارة مباشرة إلى "منظمة الطقس تحت الأرض"، مشيراً إلى "نيران البَراريّ" واقتبس من أغنية بوب ديلن/ Bob Dylan التي أعطتهم اسمهم:

لا يحتاج الأمر لـ "رجل طقس" ليرى في أيّ اتجاه تهبّ الرياح، والرياح تهبّ على السهول المرتفعة لهذا البلد، عبر البراري وتشعل ناراً ستشتعل على طول الطريق إلى واشنطن في تشرين الثاني.

احتوى خطابُ تنصيب ترامب، الذي كتبه فريق من مستشاريه ـ من بينهم بانون ـ على خيوط يساريَّة ويمينيَّة مناهضة للأمركة، وقد اشتمل على اشمئزاز اليسار من "المؤسَّسة" التي "حمت نفسها، لكن لم تحم مواطني بلدنا": "انتصاراتهم لم تكن انتصاراتك، ولم تكن نجاحاتهم العظيمة نجاحاتك، وبينما احتفلوا في عاصمة أمتنا، لم يكن هناك الكثير للاحتفال به للعائلات التي تكافح في جميع أنحاء بلادنا"، وعكست اليأس الإنجيليّ بشأن الحالة الأخلاقيَّة الرهيبة للأمَّة، "الجريمة والعصابات والمخدرات التي سلبت الكثير من الأرواح وسلبت بلدنا الكثير من الإمكانات غير المحقَّقة".

لم تعبّر كلمته الافتتاحيَّة على نحو مباشر عن توق إلى حلقة تطهير من العنف، لكن الخطاب عن "الحضارة الغربيَّة" الذي ألقاه ترامب في وارسو بعد عام في تموز ٢٠١٧ ـ الخطاب الذي ساعد رافائيل بارداجي وأصدقاؤه في كتابته ـ فعل ذلك بالتأكيد، ومن الواضح أنَّ ترامب، الذي بدا مندهشاً من بعض ما كان يقرأه من الملقّن (فكر في ذلك! "لقد تعجب من ذكر أصول كوبرنيكوس البولنديَّة) لم يكن المؤلف، لكن المؤلفون الحقيقيون، بمن فيهم بانون وستيفن ميلر، استخدموا بعضاً من نفس اللغة التي استخدموها في الكلمة الافتتاحيَّة: "الشعب، وليس الأقوياء... شكلوا دوماً أساس الحريَّة وحجر الزاوية في دفاعنا"، لقد كتبوا كما لو أنَّ ترامب نفسه لم يكن رجل أعمال ثريّاً وقوياً من النخبة التي تهرب من التجنيد وتترك الآخرين يقاتلون مكانه، وجعلوا ترامب في مقطع يصف انتفاضة وارسو ـ معركة مروعة ومدمرة سحق فيها

النازيون المقاومة البولنديَّة على الرغم من إظهارها شجاعة كبيرة ـ يعلن أنَّ "هؤلاء الأبطال يذكروننا بأنَّ الغرب نجا بدماء الوطنيين، وأنَّ كلَّ جيل يجب أن ينهضَ ويلعب دوره في الدفاع عنه"، كان من الصعب تفويت النغمة المشؤومة: "كلّ جيل" تعني أنَّ الوطنيين في جيلنا سيضطرون إلى إراقة دمائهم في المعركة القادمة لإنقاذ أمريكا من انحلالها وفسادها أيضاً.

يساهمُ ترامب نفسه بإدخال عناصر جديدة إلى هذه القصة القديمة، ويضيف إلى "العقيدة الألفية"* لليمين المتطرف والعدميَّة الثوريَّة لليسار المتطرف السخرية العميقة لشخص قضى سنوات في إدارة مخططات أعمال بغيضة في جميع أنحاء العالم، ولا يملك ترامب معرفة بالقصة الأمريكيَّة، وبذلك لا يمكن أن يؤمنَ بها، ولا يفهم أو يتعاطف مع لغة المؤسسين، لذلك لا يمكن أن يستلهم منها، ولأنَّه لا يعتقد أنَّ الديمقراطيَّةَ الأمريكيَّة جيدة، فليس لديه مصلحة في أمريكا التي تطمح أن تكونَ أنموذجاً بين الدول.

في مقابلة عام ٢٠١٧ مع بيل أورايلي/ Bill O'Reilly من قناة فوكس نيوز، أعرب عن إعجابه بفلاديمير بوتين، الديكتاتور الروسيّ، باستخدام شكل كلاسيكيّ من "الماذالوية"، فبعد أن قال أورايلي: "لكنَّه قاتل"، ردَّ ترامب: "هناك الكثير من القتلة، هل تعتقد أنَّ بلدنا بريء للغاية؟" وقبل عامين، عبر عن فكرة مماثلة في مقابلة متلفزة أخرى، هذه المرة مع جو سكاربورو/ Joe Scarborough،

* الإيمان بالعصر الألفي السعيد، أو "العقيدة الألفيَّة/ Millenarianism": معتقدات أعضاء بعض الحركات الدينيَّة بأنَّ تغييراتٍ كارثيَّة ستحدثُ في المستقبل القريب أو بعد المجيء الثاني للمسيح، للبحثِ عن خلاصٍ جماعيٍّ وشيك ونهائيّ ودنيويّ (تعليق المترجم).

قال عن بوتين: "إنَّه يدير بلاده وهو زعيم على الأقلّ، على عكس ما لدينا في هذا البلد. . . أعتقد أنَّ بلدنا يرتكب الكثير من القتل أيضاً، يا جو، كما تعلم".

إنَّ طريقةَ الكلام هذه ـ "بوتين قاتل، لكنَّنا جميعاً كذلك" ـ تعكسُ دعاية بوتين الخاصَّة، والتي تقول غالباً، وبكلمات عديدة، "حسناً، روسيا فاسدة، لكن الجميع كذلك"؛ إنّها حجة من أجل التكافؤ الأخلاقيّ، حجة تقوض الإيمان والأمل والاعتقاد أنَّه يمكننا أن نرتقي إلى مستوى لغة دستورنا، وهي حجة مفيدة للرئيس أيضاً، لأنَّها تمنحه الإذن بأن يكون "قاتلاً" أو فاسداً أو يخالف القواعد "مثل أيّ شخص آخر تماماً".

في رحلة إلى دالاس، سمعتُ نسخة من هذا من أحد أنصار الرئيس الأثرياء، نعم أخبرتني أنَّه فاسد، لكنَّها كانت تعتقد أنَّ كلَّ الرؤساء الذين سبقوه كانوا كذلك: "لم نكن نعرف عن ذلك من قبل"، أعطتها هذه الفكرة ـ مواطنة نزيهة، ووطنيَّة ملتزمة بالقانون ـ ترخيصاً لدعم رئيس فاسد، وإذا كان الجميع فاسدين وكانوا كذلك دوماً، فعندئذٍ كلّ ما يتطلبه الأمر للفوز لا بأس به.

بطبيعة الحال، هذه الحجة التي لطالما طرحها المتطرفون المناهضون للأمريكيين، الجماعات الواقعة في أقصى اليمين واليسار المتطرف في المجتمع، إنَّ المثل الأمريكيَّة خاطئة، والمؤسَّسات الأمريكيَّة مخادعة، والسلوك الأمريكيّ في الخارج شرير، ولغة المشروع الأمريكيّ ـ المساواة، والفرص، والعدالة ـ

ليست سوى شعارات فارغة، والواقع الحقيقيّ، في وجهة النظر التآمريَّة هذه، هو واقع رجال الأعمال السريين، أو ربما بيروقراطيي "الدولة العميقة"، الذين يتلاعبون بالناخبين ليوافقوا خططهم، مستخدمين اللغة المبتذلة لتوماس جيفرسون كقصة تغطية، وكلّ ما يتطلبه الأمر للإطاحة بهؤلاء المتآمرين الأشرار له ما يبرره، ونددت منظمةُ الطقس تحت الأرض في "نيران البَراريّ" بـ"وزارة العدل والبيت الأبيض، فئات وكالة المخابرات المركزيَّة (CIA)"، ويفعل ترامب الشيء نفسه الآن، قال لفوكس وأصدقائه بعد عامين من رئاسته: "تنظر إلى الفساد في رأس مكتب التحقيقات الفيدراليّ (FBI)، إنَّه وصمة عار"، "و وزارة العدل لدينا، التي أحاول الابتعاد عنها، وابتعدت، لن أفعلَ ذلك في مرحلة ما"، ولم يفعل ذلك لاحقاً.

إنَّ هذا الشكل من التكافؤ الأخلاقيّ ـ الاعتقاد بأنَّ الديمقراطيَّة لا تختلف في الأساس عن الاستبداد ـ هو حجة مألوفة، استخدمها السلطويون منذ مدَّة طويلة، حيث كتبت جين كيركباتريك/ Jeane Kirkpatrick، في عام ١٩٨٦، الباحثة والمفكرة وسفيرة ريغان لدى الأمم المتحدة، عن الخطر الذي يواجه الولايات المتحدة وحلفاءها من خطاب التكافؤ الأخلاقيّ الذي كان يأتي من الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت، شكلت البنادق والأسلحة وحتى الرؤوس الحربيَّة النوويَّة خطراً على الديمقراطيَّات، لكنَّها ليست بنفس خطورة هذا الشكل المعين من التشاؤم: "لتدمير المجتمع، من الضروريّ أولاً نزع الشرعيَّة عن مؤسَّساته الأساسيَّة".

إذا كنت تعتقد أنَّ المؤسسات الأمريكيَّة لا تختلف عن نظيرتها، فلا ضرورة للدفاع عنها، وينطبق الشيء نفسه على المؤسَّسات عبر الأطلسي، لتدمير حلف شمال الأطلسي، مجتمع الديمقراطيَّات، وكتبت: "إنَّه لا يلزم إلا حرمان مواطني المجتمعات الديمقراطيَّة من الشعور بالهدف الأخلاقيِّ المشترك الذي يكمن وراء الهويَّات المشتركة والجهود المشتركة".

يشكل انتصار ترامب في عام ٢٠١٦ انتصاراً لهذا الشكل من التكافؤ الأخلاقيّ على وجه التحديد، وبدلاً من تمثيل المدينة المشرقة على التل، نحن لا نختلف عن "قتلة" روسيا بوتين، وبدلاً من أمَّة تقود "مواطني المجتمعات الديمقراطيَّة"، نحن "أمريكا أولاً"، وبدلاً من رؤية أنفسنا في قلب تحالف دوليّ كبير من أجل الخير، نحن غير مبالين بمصير الدول الأخرى، بما في ذلك الدول الأخرى التي تشاركنا قيمنا.

كتب ترامب، أو كاتبه الخفي، في عام ٢٠٠٠: "ليس لدى أمريكا مصلحة حيويَّة في الاختيار بين الفصائل المتحاربة التي تعود عداواتها إلى قرون في أوروبا الشرقيَّة"، "لا تستحق صراعاتهم أرواح الأمريكيين"، ليست تلك لائحة اتهام لحرب العراق، تلك لائحة اتهام لتورط أمريكا في العالم يعود تاريخها إلى بداية القرن العشرين، ولائحة اتهام لتورط أمريكا في حربين عالميتين والحرب الباردة، وعودة إلى كراهية الأجانب والانعزاليَّة المنغلقة في عشرينيات القرن الماضي، في الحقبة التي تم فيها اعتقال والد ترامب بسبب أعمال شغب مع كو كلوكس كلان.

وهذا ما أثبته ترامب: تحت سطح الإجماع الأمريكيّ، الإيمان بآبائنا المؤسّسين والإيمان بمثلنا العليا، هناك تكمن أمريكا أخرى ـ أمريكا بوكانان، أمريكا ترامب ـ أمريكا التي لا ترى أيّ تمييز مهم بين الديمقراطيَّة والدكتاتوريَّة، أمريكا هذه لا تشعر بأيّ ارتباط بديمقراطيَّات أخرى، أمريكا هذه ليست "استثنائيَّة"، أمريكا هذه ليس لديها روح ديمقراطيَّة خاصَّة من النوع الذي وصفه جيفرسون، إنَّ وحدة أمريكا هذه من صنع الجلد الأبيض، وفكرة معينة عن المسيحيَّة، وتعلق بالأرض التي سيحيط بها ويدافع عنها جدار.

إنَّ هذه القوميَّة العرقيَّة الأمريكيَّة تشابه القوميَّة العرقيَّة من الطراز القديم للدول الأوروبيَّة القديمة، ويشابه اليأس الثقافيّ لأمريكا يأسهم الثقافيّ، وليست المفاجأة أنَّ هذا التعريف لأمريكا موجود: كان موجوداً دوماً، والمفاجأة أنّه ظهر في الحزب السياسيّ الذي استخدم بأكبر قدر من التباهي الأعلام واللافتات والرموز الوطنيَّة والاستعراضات للدلالة على هويته، ولكي يصبح حزب ريغان حزب ترامب، لكي يتخلى الجمهوريون عن المثاليَّة الأمريكيَّة، ويتبنون بدلاً من ذلك خطاب اليأس، كان لا بدَّ من حدوث تغيير جذريّ، ليس فقط بين ناخبي الحزب، ولكن بين كتبة الحزب.

***

"كانت ساعة الكوكتيل في يوم افتتاح الكونغرس الجديد الذي يهيمن عليه الجمهوريون، وكانت صالة الاستقبال الطويلة المضاءة بالثريا في منزل ديفيد بروك الفخم في

جورجتاون يمتلئ بالمحافظين الشباب الوافدين الجدد من الأحداث في الـ هيل"، كانت تلك هي الجملة الافتتاحية، في عام ١٩٩٥، لقصة غلاف مجلة "نيويورك تايمز" بعنوان "The Counter Counterculture"، وكان المؤلف هو الراحل جيمس أتلاس/ James Atlas، وقدَّم سلسلة من الشخصيَّات واحداً تلو الآخر: كان يوجد الشاب ديفيد بروكس، الذي كان وقتها من صفحة افتتاحيَّة صحيفة "وول ستريت جورنال"، وكان بروك نفسه الذي اشتهر في ذلك الوقت بتحقيقاته الشرسة في الشؤون الشخصيَّة للرئيس بيل كلينتون، وأصدقائي ديفيد فروم ـ الذي يوصف بأنَّه "كاتب مقالات افتتاحيّة سابق في صحيفة وول ستريت جورنال" ـ وزوجته دانييل كريتندن، التي شاركت معها بعد سنوات بتأليف كتاب الطبخ البولنديّ الخاص بي.

توجد هناك تفاصيل مسليّة؛ مطاعم باهظة الثمن في جورجتاون حيث تسخر النخب المحافظة المثقفة من النخب الليبراليَّة المثقفة، لكن النبرة ليست سلبيَّة، ويتبع موكب من أسماء أخرى وموجزات تعريفيَّة قصيرة: بيل كريستول، جون بودهورتز، روجر كيمبال، دينيش ديسوزا، كنت أعرف معظمهم وقت ظهور المقال، عملت حينها في لندن لدى مجلة "ذا سبكتيتور"، وكانت علاقتي بهذه المجموعة علاقة ابن عم أجنبي كان يزور من وقت لآخر، أثار اهتماماً طفيفاً داخل العائلة، لكنَّه لم يصل أبداً إلى الدائرة الداخليَّة، وكنت أكتب أحياناً في "ويكلي ستاندرد/ Weekly Standard"، حرره كريستول، ولمجلة "المعيار الجديد/ The New Criterion"، حرره

كيمبال، ومرة واحدة لمجلة "المرأة ربع السنويَّة/ Independent Women's Quarterly"، الذي حررته وقتها من بين آخرين كريتندن، وعرفت ـ قليلاً ـ امرأة كان مظهرها، مرتدية تنورة قصيرة من جلد الفهد، أكثر ما لفت انتباهي في صورة غلاف المجلة: لورا إنغرام/ Laura Ingraham، التي كانت كاتبة لدى قاضي المحكمة العليا كلارنس توماس، وكانت محامية في مكتب توني للمحاماة آنذاك، ويجد جيمس أتلاس نفسه في الفقرة قبل الأخيرة، قرب منتصف الليل، "منطلقاً في شوارع وسط مدينة واشنطن مع بروك في سيارة إنغرام اللاند روفر الخضراء العسكريَّة بسرعة ٦٠ ميلاً في الساعة بحثاً عن حانة مفتوحة بينما كانت ضوضاء موسيقا بكويت زيديكو* تصدع على جهاز الستيريو".

تؤكد إنغرام من حين لآخر، في برامجها المتلفزة أو في الخطب العامَّة، الشيء الرئيس الذي ربطها به في ذلك الوقت: الولاء لريغان والريغانيَّة**، نفس الولاء الذي كان سيشترك فيه كلّ هؤلاء الأشخاص في حفل كوكتيل بروك في ذلك الوقت، أو ربَّما يكون الولاء لريغان محدداً للغاية، ما جعل هذه المجموعة متماسكة حقّاً ـ وما جذبني إليها أيضاً ـ كان نوعاً من التفاؤل بعد الحرب الباردة، والاعتقاد بأنَّنا "انتصرنا"، وأنَّ الثورة الديمقراطيَّة ستستمر الآن،

* ستانلي دورال الابن، كان معروفاً باسمه المسرحي "بكويت/ Buckwheat"؛ أي "الحنطة السوداء"، وهو عازف أكورديكو أمريكي وزيديكو؛ نوع موسيقيّ يقال إنّه نشأ في جنوب غرب لويزيانا بين المتحدثين بالفرنسيَّة الكريولية، وهو خليط من موسيقا البلوز والإيقاع القويّ (تعليق المترجم).

** "الريغانيَّة/ Reaganism": السياسات أو المبادئ التي دعا إليها الرئيس الأمريكيّ السابق رونالد ريغان (تعليق المترجم).

وأنَّ المزيد من الأشياء الجيدة ستتبع انهيار الاتحاد السوفيتيّ، نفس التفاؤل الذي كان لدينا في بولندا في ذلك الوقت، والذي أتذكره جيداً من ليلة رأس السنة الجديدة لعام ١٩٩٩، لم تكن تلك النزعة المحافظة النوستالجيَّة للإنجليز، كانت شيئاً أكثر مرحاً، وأكثر أمريكيَّة، نزعة محافظة متفائلة لم تكن رجعيَّةً إطلاقاً، وعلى الرغم من وجود إصدارات أكثر قتامة، إلا أنَّها كانت في أفضل حالاتها نشطة، وإصلاحيَّة، وكريمة، مبنيَّة على الإيمان بالولايات المتحدة، والاعتقاد في عظمة الديمقراطيَّة الأمريكيَّة، والطموح لمشاركة تلك الديمقراطيَّة مع بقية العام، لكن تبين أنَّ تلك اللحظة كانت أقصر ممَّا توقعنا، وإن أسفرت نهاية الحرب الباردة والتاتشريَّة عن عدم الرضا بين المحافظين البريطانيين، فقد أدت نهاية الحرب الباردة في أمريكا إلى انقسامات عميقة ونزاعات لا يمكن حلّها.

قبل عام ١٩٨٩، كان الأمريكيون المناهضون للشيوعيَّة ـ بدءاً من الديمقراطيين الوسطيين على طول الطريق من خلال الأطراف الخارجيَّة للحزب الجمهوريّ ـ مرتبطين معاً بتصميمهم على معارضة الاتحاد السوفيتي، لكن المجموعة لم تكن متراصة، كان بعضهم من محاربي الحرب الباردة لأنَّهم ـكمفكرين أو دبلوماسيين السياسة الواقعيَّة* ـ كانوا يخشون من العدوان الروسيّ التقليديّ الكامن تحت البروباجندا السوفيتيّة، وكانوا قلقين بشأن الحرب النوويَّة، وكانوا مهتمين بالنفوذ الأمريكيّ في جميع أنحاء

* السياسة القائمة على عوامل عمليَّة وماديَّة وليس على أهداف نظريَّة أو أخلاقيَّة، ويستخدم مصطلح السياسة الواقعيَّة أحياناً بطريقة ازدرائيَّة للإشارة إلى السياسات السياسيَّة التي يُنظر إليها على أنّها قسريَّة أو غير أخلاقيَّة أو ميكافيليَّة (تعليق المترجم).

العالم، واعتقد آخرون ـ وأنا أدرج نفسي في هذه الفئة ـ أنَّنا نحاربُ ضد الشموليَّة والديكتاتوريَّة، ومن أجل الحريَّة السياسيَّة وحقوق الإنسان، واتضح أنَّ آخرين قاتلوا الاتحاد السوفيتيّ؛ لأنَّ الأيديولوجيَّة السوفيتيَّة كانت ملحدة على نحوٍ واضح، ولأنَّهم كانوا يؤمنون بأنَّ أمريكا تقف إلى جانب الله، وعندما انهار الاتحاد السوفيتي، انقطعت الروابط التي جمعت هؤلاء المناهضين للشيوعيَّة معاً.

لقد استغرق التحول التكتوني بعض الوقت، لم يكن نطاقه وحجمه واضحين مباشرة، ومن المحتمل أن تكونَ أحداثُ الحادي عشر من أيلول قد أبقت المجموعة معاً لمدَّة أطول بكثير ممَّا كان يمكن أن يكونَ عليه الحال لولا ذلك، لكن تبين في النهاية أنَّ الأمسية في منزل بروك كانت حفلة أخرى لم يعد الحاضرون فيها يتحدثون مع بعضهم البعض، وتراجع بروك نفسه عن رأيه بعد عامين فقط من حدوث ذلك، في مقال بعنوان "اعترافات قاتل من اليمين/ Confessions of a Right_Wing Hit Man"، متهماً اليمين في "التعصب الفكريّ والتفكير الجماعيّ المتعجرف"، وانجرف بروكس ببطء إلى الوسط وأصبح كاتب عمود في "نيويورك تايمز" يكتب كتباً عن كيفيَّة عيش حياة ذات معنى، وأصبح فروم كاتب خطابات لجورج دبليو بوش، ثم أصيب بخيبة أمل من هامش رهاب الأجانب والتآمر في الحزب، ثم انفصل بعد انتخاب دونالد ترامب كلياً، واتبع كريستول نفس المسار المنحني بعد ذلك بقليل، وذهب آخرون ـدي سوزا، كيمبال ـ في الاتجاه المعاكس تماماً.

جاءت استراحتي في عام ٢٠٠٨، وذلك بفضل صعود سارة بالين/ Sarah Palin، إحدى شخصيَّات ترامب الأصليَّة، واستخدام إدارة بوش للتعذيب في العراق، حتى أنّني كتبتُ مقالاً "لماذا لا أستطيع التصويت لجون ماكين/ Why I Can't Vote for John McCain"، أوضح كيف اعتقدتُ أنَّ الحزبَ قد تغيَّر (عند إعادة القراءة، أجد أنَّ هذه المقالة كانت مخصَّصة في الغالب للإشادة بماكين، ومع ذلك فإنَّ ماكين، الذي ألقى خطاباً رائعاً في حفل صدور كتابي في واشنطن،"Gulag: A History"، لم يتحدث معي أبداً مرة أخرى)، ولم أعرف كيف أصبح فهمي للعالم مختلفاً عن بعض أصدقائي الأمريكيين ـ انقسمت تلك المجموعة الصغيرة من "المحافظين الشباب" إلى نصفين بطريقة نظيفة ـ حتى أصبح ترامب مرشحاً للحزب.

في عام ٢٠١٧، كتب سام تانينهاوس/ Sam Tanenhaus مقالاً آخر عن حفل، هذه المرة في مجلة "إسكواير/ Esquire"، كان هذا هو الحفل الذي قدَّمه آل فروم في منزلهم بواشنطن بمناسبة نشر كتابي "المجاعة الحمراء: حرب ستالين على أوكرانيا/ Red Famine: Stalin's War on Ukraine"، وهو حفل احتوى على مجموعة كبيرة ممَّا وصفه تانينهاوس بأنَّه "كادر من الكتاب المهجرين والمشردين والمثقفين والنقاد الذين، لو اجتمعوا في باريس أو لندن ـ حسناً، وأوتاوا على أيَّة حال ـ ربما ارتدوا بريق المهاجرين والمنفيين المطارد".

سخر تانينهاوس بلطف من هذا التجمع لـ "حركة لا لترامب/

"Never Trumpers"، من بين أمور أخرى ضاحكاً على "مقبلات أوروبا الشرقيَّة" المقدمة في حفلة للاحتفال بنشر كتاب عن المجاعة، والذي كان عادلاً بما فيه الكفاية، لكنَّه أشار أيضاً إلى نقطة جديَّة: "بالنسبة للعديد من الضيوف. . . أدَّى صعود ترامب إلى تغيير العبارة القديمة "يمكن أن يحدث هنا" إلى شيء أكثر خطورة وإلحاحاً: "إنَّه يحدث الآن ويجب إيقافه".

لم يشعر جميع معارفنا القدامى بنفس الشعور، وبالتأكيد لم تتم دعوتهم، فقد كانت قوائم الضيوف التي وضعها أصدقائي في تسعينيات القرن الماضي والقوائم التي أنشأها هؤلاء الأصدقاء أنفسهم في أواخر عام ٢٠١٠ مختلفة تماماً، وعلى سبيل المثال: كان هناك عدد قليل من الديمقراطيين من يسار الوسط في الغرفة، أشخاص لم يعرفهم آل فروم قبل ثلاثين عاماً، وكان هناك بعض الغياب، فمثلاً: لم يكن روجر كيمبال موجوداً.

في عام ١٩٩٢، كتب كيمبال في الواقع تقديراً لـكتاب "La trahison des clercs"، وظهرت أجزاء منه لاحقاً كمقدمة لطبعة جديدة باللغة الإنجليزيَّة من كتاب بيندا الشهير، وأشار في مقال عام ١٩٩٢ باستحسان إلى أنَّ بيندا ـ "كتابة في لحظة بدأت فيها الكراهية العرقيَّة والقوميَّة تمزق أوروبا" ـ عارض الحزبيَّة وكان يؤمن بـ"مبدأ اللامبالاة، وعالميَّة الحقيقة"، ربَّما في تلك اللحظة بسبب تصاعد "الكراهية العرقيَّة والقوميَّة" في يوغوسلافيا والاتحاد السوفيتي السابق، بدا مثال الحياد الفكريّ بالنسبة لكيمبال جديراً بالاحتفاء، وأصبح كيمبول نفسه نقيض اللامبالاة بحلول عام ٢٠١٩، ولم

يعد مرتبطاً بوجهٍ خاص بـ "عالميَّة الحقيقة"، وأنتج خلال جلسات الاستماع لعام ٢٠١٩ سلسلة من المقالات لموقع مؤيد لترامب بعنوان "American Greatness"، سخر منها مراراً أو تجاهل الأدلة، التي لم يعترض عليها محامي الرئيس مطلقاً، بأنَّ الرئيس ترامب قد انتهك القانون، وكتب كيمبال عام ١٩٩٢ أنَّ "تفكك الإيمان بالعقل والإنسانيَّة المشتركة لا يؤدي إلى تدمير المعايير فحسب، ولكنَّه ينطوي على أزمة في الشجاعة أيضاً"، وشبه عمل كيمبال (٢٠١٩) أعضاء الكونجرس الديمقراطيين بـ "جموع الغاضبين الذين وقفوا إلى جانب باراباس أمام بيلاطس البنطي"، وهو تصريح يساوي ضمنياً بين ترامب والمسيح، لم يذكر قط جبن أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين الذين، باستثناء ميت رومني/ Mitt Romney، كانوا يخشون الاعتراف بأنَّ الرئيس قد استخدم أدوات السياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة لمصلحته الشخصيَّة، كانت "الأزمة في الشجاعة" هناك، جالسة أمامه، لكن لم يعد كيمبال قادراً على رؤيتها، ولم تكن إنغرام موجودة أيضاً، على الرغم من أنَّني ربما سأكون سعيداً في حقبة سابقة بحضورها حفل بمناسبة نشر كتاب عن الجرائم السوفيتيَّة، ولكان من دواعي سرورها أن تأتي، لكن منذ التسعينيات، كانت مساراتنا تسير في اتجاهات مختلفة جذرياً، فقد تركت القانون، وانجرفت إلى عالم الإعلام المحافظ، وحاولت لمدة طويلة الحصول على برنامجها المتلفز الخاصّ، وعلى الرغم من فشل جميع هذه المحاولات المبكرة، إلا أنَّها حصلت في النهاية على برنامج إذاعيّ حواريّ شهير، وكنت ضيفةً في البرنامج أكثر من مرة، واحدة منها بعد الغزو الروسيّ لدولة

جورجيا في عام ٢٠٠٨، وبالاستماع مرة أخرى إلى المحادثة؛ يضمن سحر الإنترنت عدم فقد أيّ مقطعي صوتي مطلقاً.

لقد أدهشتني كيف كانت متسقةً مع الاتجاه المحافظ المتفائل في التسعينيات، كانت إنغرام ما تزال تتحدث عن قوَّة أمريكا في فعل الخير، وقدرة أمريكا على صد التهديد الروسيّ، لكنَّها كانت بالفعل تتلمس شيئاً آخر، وفي وقت من الأوقات، اقتبست من مقال بقلم بات بوكانان/ Pat Buchanan، أحد مرشديها، الذي انتقد مراراً وتكراراً عدم جدوى أيّ علاقة أمريكيَّة مع جورجيا، وهي ديمقراطيَّة طموحة، وأشاد بروسيا، البلد الذي كان يتخيل أن يكون أكثر "مسيحيَّة" من بلده.

كانت الإحالة تلميحاً لبعض التغييرات الأخرى، ففي مرحلة ما، اختفى تفاؤلها الريغاني وتحول ببطء إلى حالة من التشاؤم المروع الذي يتقاسمه كثيرون آخرون، ويمكن العثور على هذا في الكثير ممَّا تقوله وتكتبه في الوقت الحاضر: أمريكا منكوبة، وأوروبا منكوبة، والحضارة الغربيَّة منكوبة.

إنَّ الهجرة، اللياقة السياسيَّة، التحول الجنسيّ، الثقافة، المؤسَّسة، اليسار، من مسؤوليَّة "الديموقراطيين"، وبعض ممَّا تراه حقيقي: ما يسمى بـ "إلغاء الثقافة" على الإنترنت، والتطرف الذي يندلع في حرم الجامعات أحياناً، والادعاءات المبالغ فيها لمن يمارسون سياسات الهويَّة هي مشكلة سياسيَّة وثقافيَّة تتطلب شجاعة حقيقيَّة للمواجهة، لكن لم يعد من الواضح ما إذا كانت

تعتقد أنَّه يمكن مكافحة هذه الأشكال من التطرف اليساريّ باستخدام السياسات الديمقراطيَّة العادية.

في عام ٢٠١٩، كان لديها بوكانان نفسه في برنامجها وعرضت عليه القضيَّة مباشرة: "هل الحضارة الغربيَّة، كما فهمناها، على المحكّ؟ أعتقد أنَّه يمكنك في الواقع تقديم حجة قويَّة للغاية مفادها أنَّها من فوق الجُرف".

أصبحت إنغرام ـ مثل بوكانان ـ متشككة أيضاً بشأن ما إذا كان بإمكان أمريكا أو ينبغي عليها أن تلعب أيّ دور في العالم، ولا عجب: إذا لم تكن أمريكا استثنائيَّة، ولكنَّها متدهورة، فلماذا تتوقع منها تحقيق أيّ شيء خارج حدودها؟

يلوّن الشعور بالعذاب نفسه وجهات نظرها بشأن الهجرة، فقد صورت إنغرام منذ عدة سنوات الآن، مثل العديد من الآخرين في عالم فوكس، المهاجرين غير الشرعيين على أنَّهم لصوص وقتلة، على الرغم من الأدلة الدامغة أنَّ المهاجرين يرتكبون جرائم أقلّ من الأمريكيين المولودين في أمريكا عموماً، ولا تعدّ هذه دعوة مألوفة ومعقولة لمزيد من القيود على الحدود.

لم تدعُ إنغرام الرئيس ترامب إلى إنهاء الهجرة غير الشرعيَّة فحسب، بل الهجرة القانونيَّة أيضاً، مشيرة أكثر من مرة إلى "التغييرات الديموغرافيَّة الهائلة" في أمريكا، "التغييرات التي لم يصوت لها أيّ منا مطلقاً، ومعظمنا لا يحبّها"، وقالت في بعض أجزاء البلاد: "يبدو أنَّ أمريكا التي نعرفها ونحبها لم تعد موجودة"،

ثم أنهت حديثها بمخاطبة ترامب مباشرة:

إنَّ هذه حالة طوارئ وطنيَّة، وعليه أن يطالب الكونجرس بالتحرك الآن، يوجد شيء ينزلق بعيداً في هذا البلد، وهو لا يتعلق بالعرق أو الإثنيَّة، وقد كان ما يعدّ يوماً فهماً مشتركاً لكلا الطرفين أنَّ الجنسيَّة الأمريكيَّة تعدُّ امتيازاً، وهو أمرٌ يتطلب على الأقلّ احترام حكم القانون والولاء لدستورنا.

إذا كانت أمريكا الحقيقيَّة، أمريكا الواقعيَّة، تختفي، فقد تكون هناك حاجة إلى إجراءات متطرفة لإنقاذها، وفي عام ٢٠١٩، أومأت إنغرام برأسها عندما بدأ أحد ضيوفها، المحامي المحافظ جوزيف ديجنوفا/ Joseph diGenova، في الحديث عن الصراع الثقافيّ القادم في أمريكا: "انتهى الاقتراح بأنَّه سيكون هناك خطاب مدنيّ في هذا البلد في المستقبل المنظور قد انتهى. . ." قال: "ستكون حرباً شاملة"، "أنا أفعل شيئين، أصوت وأشتري أسلحة"، وعندما قال رافائيل برداجي: "لا نريد أن نُقتل، علينا البقاء على قيد الحياة"، كان يتحدث على نحوٍ مجازي، تروج إنغرام لمجموعة من الأمريكيين الذين يعتقدون أنَّ السياسة قد تصبح حرباً حقيقيَّة قريباً، مع عنف حقيقيّ.

يساعدُ هذا التشاؤم المظلم، مع أصدائه لأكثر الحركات اليمينيَّة واليساريَّة إثارة للقلق في التاريخ السياسيّ الأمريكيّ، في تفسير كيف أصبحت إنغرام، قبل كثيرين آخرين، مؤيدةً عن اقتناع لدونالد ترامب، وهي تعرف ترامب منذ تسعينيات القرن الماضي، فقد ذهبا

ذات مرة في موعد، على الرغم من أنَّ ذلك لم يكن جيداً على ما يبدو ـ فقد وجدته مغروراً (أخبرت بعض الأصدقاء المشتركين: "إنَّه يحتاج إلى سيارتين منفصلتين، واحدة لنفسه والأخرى لشعره")، إلاّ أنّها كانت من أوائل المؤيدين لمشاركته في السياسة، حتى أنّها سمحت له بالتشدق حول "بلد الولادة" في برنامجها، وتحدثت نيابة عنه في المؤتمر الجمهوريّ، وجادلت في قضيته حتى قبل أن يمضي بقيّة أعضاء حزبها، وكان لها اتصال خاص معه طوال فترة رئاسته، وهي واحدة من عدة أشخاص في فوكس يتحدثون إليه بانتظام.

لقد شكل إيمانها به، أو على الأقلّ بقضيّته، تأثيراً عميقاً في تغطية إنغرام لوباء فيروس كورونا في ربيع عام ٢٠٢٠، ومثل زملائها من مذيعي "فوكس نيوز"، قلّلت في البداية من أهميَّة القصة، وألقت باللوم على الديمقراطيين في تضخيم الفيروس، واصفة إيّاه بـ "طريق جديد لضرب الرئيس ترامب"، وشاركت لاحقاً في معلومات مضللة نشطة، متجاهلة الخبراء الطبيين وروجت بشدة لعقار "هيدروكسي كلوروكين" قبل اختباره؛ لقد ذكرت ذلك قبل ثلاثة أيام من بدء ترامب في الترويج له بنفسه، وفي نيسان، انضمت إنغرام إلى حملة الرئيس الغريبة ضد سياسات الإغلاق التي تتبعها إدارته، وشجّعت "المتمردين" على الانتفاض ضد الحجر الصحيّ، وكشفت إحدى تغريداتها عن بعض وجهات نظرها الأعمق: "كم من أولئك الذين حثوا حكومتنا على المساعدة في تحرير العراقيين والسوريين والأكراد والأفغان...، ملتزمون الآن بتحرير فرجينيا

ومينيسوتا وكاليفورنيا... ؟" لم تكن هذه أفكار شخص ما يؤمن بالديمقراطيَّة الأمريكيَّة؛ لأنَّ استخدام كلمة التحرير لتحقيق التعادل بين صدام حسين، الرجل الذي ارتكب جرائم قتل جماعيَّة، وبين الحكام الأمريكيين المنتخبين ديمقراطياً، الذين كانوا يحاولون الحفاظ على مواطنيهم في مأمن من الوباء.

تظلّ بعض عناصر المسار المنحي لإنغرام غامضة، الأوَّل هو استحضارها المتكرر للقيم الأخلاقيَّة والقيم المسيحيَّة والقيم الشخصيَّة، فخلال خطاب ألقته عام ٢٠٠٧، أخبرت مجموعة في دالاس أنَّه "من دون فضيلة لا توجد أمريكا، من دون فضيلة سوف يحكمنا الطغاة"، ثم أعدت قائمة بهذه الفضائل: "الشرف، والشجاعة، والإيثار، والتضحية، والعمل الجاد، والمسؤوليَّة الشخصيَّة، واحترام الكبار، واحترام الضعفاء"، لكن لا يمكن عزو أيّ من هذه الفضائل إلى دونالد ترامب، والأمر الأكثر تعقيداً هو مشاركتها في الإزعاج الذي ينزله الرئيس على جميع المهاجرين، ومخاوفها من أنَّ الهجرة القانونيَّة قوضت "أمريكا التي نعرفها ونحبها"، مع أنَّ إنغرام نفسها لديها ثلاثة أطفال بالتبني؛ جميعهم مهاجرون.

لا أعرف كيف تشرح هذه التناقضات لنفسها، لأنَّ إنغرام لن تتحدث معي، مثل صديقتي أنيا بيليكا، أجابت على بريد إلكتروني واحد ثم سكتت، لكن هناك أدلة على ذلك، إذ يشير بعض الأصدقاء المشتركين إلى أنَّها تحوَّلت إلى الكاثوليكيَّة، وناجية من سرطان الثدي ومتدينة بشدة: أخبرت أحدهم أنَّ "الرجل الوحيد الذي لم

يخيب ظني أبداً هو يسوع"، لا ينبغي الاستهانة بقوة الإرادة التي احتاجتها للبقاء على قيد الحياة في عالم وسائل الإعلام اليمينيَّة السفاحة، ولاسيّما في قناة "فوكس نيوز"، حيث كانت النجمات في كثير من الأحيان يتعرضن لضغوط للنوم مع رؤسائهن.

يعطي هذا المزيج من التجارب الشخصيَّة ميزة مسيانيَّة لبعض تصريحاتها العامَّة، ففي ذلك الخطاب نفسه في عام ٢٠٠٧، تحدثت عن تحولها الديني، وقالت لولا إيمانها: "لما كنت هنا. . . ربَّما لن أكونَ على قيد الحياة"، وقالت إنّ هذا هو السبب في أنَّها كافحت لإنقاذ أمريكا من الكفرة: "إذا فقدنا الإيمان بالله، كدولة، فإنَّنا نخسر بلدنا".

إنَّ الطموحَ المهنيّ، أقدم عذر في العالم، جزء من القصة أيضاً، جزئياً بفضل ترامب وعلاقتها بترامب، حصلت إنغرام على برنامجها المتلفز الخاصّ في وقت الذروة على قناة فوكس أخيراً، براتب كبير يتناسب معها، لقد حصلت على مقابلات معه في اللحظات المهمة، والتي طرحت خلالها أسئلة مليئة بالثناء فقط: "بالمناسبة، تهانينا على أرقام الاقتراع الخاصَّة بك"، أخبرته بذلك أثناء إجراء مقابلة معه في ذكرى اليوم-دي*، لكنَّني لا أعتقد، بالنسبة لشخص ذكي مثل إنغرام، أنَّ هذا هو التفسير الكامل، لقد أدارت برنامجاً إذاعيّاً على مدار السنوات العديدة التي لم تقدم لها "فوكس" برنامجاً متلفزاً، وأعتقد أنَّها ستعود إلى إدارة برنامج إذاعيّ

* "اليوم-دي/ D-Day" مصطلحٌ عسكريٌّ يرمز إلى اليوم الذي بدأت فيه عمليَّة أوفرلورد خلال الحرب العالميَّة الثانية في ٦ حزيران ١٩٤٤، وتعدّ هذه العمليَّة أكبر عمليَّة غزو بحريّ في التاريخ لتحرير مناطق شمال غرب أوروبا التي احتلتها ألمانيا النازيَّة (تعليق المترجم).

إذا ألغوا برنامجها، وكما هو الحال في العديد من السير الذاتيَّة، فإنَّ التميز بين الشخصيّ والسياسيّ هو لعبة حمقاء.

توجد بعض القرائن على تفكيرها من أوقات وأماكن أخرى، ربَّما كانت التناقضات الشخصيَّة تغذي التطرف، مثل إنجاب ابن مثلي الجنس ودعم حزب معاد للمثليين، كما يفعل صديقي البولنديّ، أو إدانة الهجرة أثناء تبني أطفال من خارج الحدود، أو استخدام لغة متطرفة على أيَّة حال، فقد وصف الكاتب البولنديّ جاسيك ترزينادل/ Jacek Trznadel ما شعرت به، في بولندا الستالينيَّة؛ أن تكون مدافعاً صريحاً عن النظام وتشكك فيه في نفس الوقت، حيث قال: "كنتُ أصرخ من منبر في اجتماع إحدى الجامعات في فروتسواف، وشعرت في الوقت ذاته بالذعر من فكرة أنَّني أصرخ. . . قلتُ لنفسي إنَّني كنتُ أحاول إقناع [الجمهور] بالصراخ، لكن في الواقع كنتُ أحاول إقناع نفسي"، وبالنسبة لبعض الناس، فإنَّ الدعوة بصوت عالٍ لترامب تساعد في التستر على الشك العميق وحتى العار الذي يشعرون به بشأن دعمهم لترامب، ولا يكفي التعبير عن الموافقة الفاترة على رئيس يفسد البيت الأبيض، ويدمر التحالفات الأمريكيَّة، عليك أن تصرخ إذا كنت تريد إقناع نفسك والآخرين، وعليك أن تبالغ في مشاعرك إذا أردت أن تجعلها قابلة للتصديق.

لكن قد يكمن الجواب ـ ببساطة ـ في عمق يأس إنغرام، فأمريكا في الوقت الحاضر مكان مظلم وكابوسيّ حيث لا يتحدث الله إلا لعدد ضئيل من الناس، حيث ماتت المثاليَّة، تقترب الحرب

الأهليَّة والعنف، السياسيون المنتخبون ديمقراطياً ليسوا أفضل من الدكتاتوريين والقتلة الجماعيين الأجانب، حيث تنغمس "النخبة" في الانحطاط والفوضى والموت.

إنَّ أمريكا الحاضر، كما تراها إنغرام والعديد من الآخرين، هي مكان تعلم فيه الجامعات الناس أن يكرهوا بلادهم، حيث يُحتفَلُ بالضحايا أكثر من الأبطال، وحيث يتم تجاهل القيم القديمة، يجب دفع أيّ ثمن، والتغاضي عن أيّ جريمة، كما يجب تجاهل أيّ غضب إذا كان هذا هو ما يتطلبه الأمر لاستعادة أمريكا الحقيقيَّة، أمريكا القديمة.

الفصلُ السادس
التَّاريخ اللا مُنتهي

حدثتْ من قبل تحولات سياسيَّة عميقة مثل تلك التي نعيشها الآن ـ الأحداث التي أدَّت فجأة إلى تمزيق العائلات والأصدقاء، وتفكك الطبقات الاجتماعيَّة، وإعادة ترتيب التحالفات بشكل كبير ـ لم يتم إيلاء اهتمام كافٍ تقريباً في السنوات الأخيرة للجدل الفرنسيّ في أواخر القرن التاسع عشر، والذي أثار العديد من نقاشات القرن العشرين، وهو الجدل الذي يحمل مرآة لحجج القرن الحادي والعشرين أيضاً.

بدأت قضيَّة ألفريد دريفوس/ Alfred Dreyfus في عام ١٨٩٤ عندما اكتشف خائن في الجيش الفرنسي: كان شخص ما ينقل المعلومات إلى ألمانيا، التي هزمت فرنسا قبل ربع قرن وما زالت تحتلّ إقليم "الألزاس واللورين" الفرنسي سابقاً، فحققت المخابرات العسكريَّة الفرنسيَّة وزعمت أنَّها وجدت الجاني، كان الكابتن ألفريد دريفوس من الألزاس، ويتحدث بلكنة ألمانيَّة، وكان يهوديَّاً؛ أي إنَّه في نظر البعض ليس فرنسيَّاً حقيقيَّاً، وكما سيتضح، كان بريئاً أيضاً، لأنَّ الجاسوسَ الحقيقيَّ كان الرائد فرديناند

إسترهازي/ Ferdinand Esterhazy، ضابط آخر استقال بعد عدة سنوات من مأموريته وهرب من البلاد.

لكن محققو الجيش الفرنسي ابتكروا أدلة مزورة وأدلوا بشهادات زور، وتمت محاكمة دريفوس العسكريَّة، وأدين، وتعرض للإذلال العلني، أمام حشد متهكم في ساحة دي مارس، مزق مساعد ضابط شرائط تدريج الضابط من زيه وكسر سيفه، صاح دريفوس عليه: "إنَّك تهين رجلاً بريئاً! تحيا فرنسا! يعيش الجيش!" أرسل بعد ذلك إلى الحبس الانفراديّ في جزيرة الشيطان، قبالة سواحل جويانا الفرنسيَّة.

أدَّى الجدل الذي تلا ذلك ـ وصفه رومان رولاند بأنَّه "معركة بين عالمين" ـ إلى تقسيم المجتمع الفرنسيّ على أسس تبدو مألوفة فجأة، أولئك الذين حملوا ذنب دريفوس كانوا "اليمين البديل"، أو حزب "العدالة والقانون"، أو الجبهة الوطنيَّة، أو في الواقع أتباع "كيو أنون" في عصرهم، باستخدام العناوين الصاخبة للصّحافة الصفراء الفرنسيَّة، نسخة القرن التاسع عشر لعمليَّة التصيد اليمينيَّة المتطرفة، دفعوا عمداً باتجاه نظريَّة المؤامرة، وطبعوا ملصقات عليها ثعابين تنبثق من رأس دريفوس ـ مجاز قديم معاد للسامية ـ ورسومات كاريكاتوريَّة تصوره على أنَّه حيوان ذو ذيل مكسور، "ميمات" عنصريَّة في حقبة ما قبل استخدام هذا المصطلح، كذب قادتهم للحفاظ على شرف الجيش، وتشبث أتباعهم بإيمانهم بذنب دريفوس ـ وولائهم المطلق للأمَّة ـ حتى حين كشف عن التزوير.

لإقناعهم بالحفاظ على هذا الولاء، كان على مجموعة كاملة من الكتبة في القرن التاسع عشر التخلي عن التزامهم بالحقيقة الموضوعيَّة، إذ لم يكن دريفوس جاسوساً، ولإثبات أنَّه كذلك، كان على مناهضي قضيَّة دريفوس الاستخفاف بالأدلة والقانون والعدالة وحتى التفكير العقلانيّ، مثل لانغبهن الكاتب الألمانيّ الذي عظّم رامبرانت، هاجموا العلم في النهاية، لأنَّه كان حديثاً وعالميَّاً، ولأنَّه كان يتعارض مع عقيدة الأسلاف والمكان العاطفيين.

كتب أحد مناهضي قضيَّة دريفوس: "في كلّ عمل علميّ"، هناك شيء "محفوف بالمخاطر" و "عرضي"، كما هاجموا الرموز والشخصيَّات والشرعيَّة ووطنيَّة الأشخاص الذين دافعوا عن دريفوس، كان هؤلاء الناس "أغبياء" و"أجانب"، أشخاص لا يصلحون لأن يكونوا مواطنين في فرنسا.

أطلق مناهضو قضيَّة دريفوس على أنفسهم اسم "الفرنسيين الحقيقيين"، النخبة الحقيقيَّة، على عكس النخبة "الأجنبيَّة" وغير الموالية، وأنشأ أحد قادتهم، إدوارد درومون/ Edouard Drumont، صحيفة "حريَّة التعبير / La Libre Parole"، التي كانت معادية للرأسماليَّة ومعادية للسامية، وسبقت بذلك بعض الاستبداديين الاشتراكيين القوميين في القرن العشرين وحتى عصرنا، واتهم درومون اليهود بالتآمر لتدمير الجيش الفرنسيّ والقوة الفرنسيَّة وفرنسا نفسها.

في غضون ذلك، جادل أنصار قضيَّة دريفوس بأنَّ بعضَ المبادئ أعلى من الولاء للمؤسّسات الوطنيَّة، وأنَّه من المهم حقاً ما إذا كان

دريفوس مذنباً أم لا، وفوق كلّ ذلك جادلوا في أنَّ الدولة الفرنسيَّة ملزمة بمعاملة جميع المواطنين على قدم المساواة، بصرف النظر عن دينهم، كانوا وطنيين أيضاً، لكن من نوع مختلف، لقد تصوروا الأمَّة ليس كعشيرة عرقيَّة، ولكن بوصفها تجسيداً لمجموعة من المُثل: العدالة، والصدق، والموضوعيَّة، وحياد المحاكم، وكانت وطنيتهم أكثر عقلانيَّة، وأكثر تجريديَّة وأصعب في الفهم، ولكن ليس من دون جاذبيَّة خاصة بها، وفي مقالته الشهيرة "J'accuse"، التي نُشرت عام ١٨٩٨، أعلن إميل زولا/ Emile Zola أنَّه لا يحمل أيّ عداء شخصيّ تجاه الرجال الذين اختلقوا القضيَّة ضد دريفوس، بل كتب: "بالنسبة لي، هم فقط كيانات، أرواح من الشر الاجتماعيّ، والعمل الذي أنجزه بموجب هذا ما هو إلا وسيلة ثوريَّة للإسراع بنشر الحقيقة والعدالة".

هاتان الرؤيتان للأمَّة، هذا الخلاف حول "من نحن"، قسمت فرنسا إلى نصفين ـ أو ربما كشفت عن صدع كان موجوداً طوال الوقت في ظل الافتراضات الهادئة المتمثلة في سرعة التصنيع والتحديث في فرنسا، احتدم النقاش، وتغيرت الولاءات الاجتماعية ـ وتغيرت قوائم الضيوف.

في المجلدات اللاحقة من روايته العظيمة "بحثاً عن الزمن الضائع/ Remembrance of Things Past"، وصف مارسيل بروست/ Marcel Proust كيفيَّة تدمير قضيَّة دريفوس للصداقات وإعادتها لتنظيم المجتمع، حيث أصبحت إحدى السيدات الرائعات في قصته مناهضة لقضيَّة دريفوس من أجل الدخول إلى

الصالونات الأرستقراطيَّة التي ينظر أعضاؤها إليها بوصفها "ذات جدارة مضاعفة" لأنَّها متزوجة من يهوديّ، وتسعى أخرى لكسب ود مضيفة في قضيَّة دريفوس، "أعلنت أنَّ كلَّ الناس في عالمها أغبياء".

يُظهر رسم كاريكاتوريّ شهير للكاتب الساخر كاران داتش/ Caran d'Ache عائلة فرنسيَّة تتناول العشاء، يجلسون جميعاً بأدب في المشهد الأوَّل، ويتشاجرون ويكافحون ويلقون الطعام ويحطمون الأثاث في المشهد الثاني، ويوضح الشرح المكتوب: "لقد بدؤوا الحديث عنها"؛ بمعنى قضيَّة دريفوس، ويتذكر ليون بلوم/ Leon Blum، أوَّل رئيس وزراء يهوديّ في فرنسا، الحجج بأنَّها "ليست أقلّ عنفاً من الثورة الفرنسيَّة أو الحرب العالميَّة الأولى".

في النهاية، فاز أنصار قضيَّة دريفوس، وأُعيد دريفوس أخيراً إلى وطنه في عام ١٨٩٩، وتم العفو عنه رسمياً في عام ١٩٠٦، وفي نفس العام، أصبح جورج كليمنصو/ Georges Clemenceau، ناشر كتاب زولا "J'accuse"، رئيساً لوزراء فرنسا، وفي إحدى المقاطع الموجودة في نهاية رواية بروست، يعود الراوي من المقاطعات بعد مرض طويل ويكتشف أن لا أحد يتحدث عن دريفوس ـ "لقد نُسِي هذا الاسم" ـ وقد تغيرت جميع التحالفات مرة أخرى.

لكن النصر لم يكن مستمراً، ففي أوائل القرن العشرين، اكتسبت ردة فعل عنيفة ضد قضيَّة دريفوس القوّة مرة أخرى، وبدأ الطلاب في باريس برفض نتيجة قضيَّة دريفوس، وتبنوا بدلاً من ذلك "نظرة

محافظة" باطلة، كما وصفها المؤرخ توم كونر/ Tom Conner، "بناءً على القيم التقليديَّة مثل الأسرة والكنيسة والأمَّة".

في عام ١٩٠٨ ـ في نفس العام الذي شككت فيه إيما جولدمان في وجود الوطنيَّة الأمريكيَّة ـ نظمت حركة العمل الفرنسيَّة الفاشية الأوليَّة، التي أسَّسها تشارلز موراس المناهض لقضيَّة دريفوس، حملة كراهية ضد المؤرخ أميدي ثالاماس/ Amédée Thalamas. كان موراس ـ يدرجه بيندا كواحد من الكتبة ـ غاضباً لأنَّ ثالاماس قد تجرأ على الإشارة إلى أنَّ رؤى جان دارك الدينيَّة ربَّما كانت مجرد هلوسة سمعيَّة بدلاً من علامات مقدَّسة من الله، وهاجمت عصابة من النشطاء ثالاماس خلال إحدى محاضراته في جامعة السوربون وأجبروه على الاختباء، وفي نهاية المطاف، تحالف موراس مع نظام فيشي تعاون مع هتلر بعد عام ١٩٤٠، مستخدماً بالطبع شعار "فرنسا أوَّلاً".

دارت العجلة السياسيَّة مرة أخرى، هُزم هتلر، وطُرد فيشي، حوكم موراس وأدين كخائن، صرخ عند سماع الحكم، بعد أكثر من نصف قرن من المشهد الشهير في ساحة شامب دي مارس، "إنَّه انتقام دريفوس/ C'est la revanche de Dreyfus"!

سيطرت رؤية مختلفة لفرنسا منذ الحرب، وكانت تستند إلى الفكر العقلانيّ وسيادة القانون والتكامل مع أوروبا، لكن روح الكتبة الذين سعوا لتشويه سمعة دريفوس والانضمام إلى فيشي والقتال من أجل فرانس فيرست ما زالت مستمرة، وإنَّ القوميَّة الفرنسيَّة

"فرنسا من أجل الفرنسيَّة" لمارين لوبان، مع استحضارها للرموز والأبطال الأصليين القدامى ـ وقبل كلّ شيء، جان دارك ـ والنزعة المحافظة الاجتماعيَّة لماريون تتعارض الآن مع رؤية إيمانويل ماكرون الأوسع لفرنسا الجمهوريَّة التي ما تزال تمثل مجموعة من القيم المجردة، من بينها العدالة النزيهة وسيادة القانون، ويصبح النضال عنيفاً في بعض الأحيان فعندما قامت السترات الصفراء ـ ذوو ستر صفراء والأناركيون المناهضون للمؤسسة ـ بأعمال شغب في باريس في ربيع عام ٢٠١٩، حطموا تمثال ماريان، الرمز الأنثويّ للجمهوريّة، التجسيد التجريديّ للدولة.

اندلعت قضيَّة دريفوس بسبب قضيَّة واحدة مثيرة للجدل، فقد كشفت قضيَّة محكمة واحدة فقط ـ محاكمة متنازع عليها ـ عن انقسامات غير قابلة للحل بين أشخاص لم يكونوا مدركين في السابق أنَّهم يختلفون مع بعضهم البعض، أو على الأقلّ لم يكونوا على علم بأهميتها.

قبل عقدين من الزمان، كان لابدَّ من وجود تفاهمات مختلفة لـ "بولندا" مسبقاً، في انتظار أن تتفاقم بالصدفة والظروف والطموح الشخصيّ، وكانت توجد تعريفات مختلفة لما يعنيه أن تكون "أمريكيّاً" قبل انتخاب ترامب، ومع أنَّنا خضنا حرباً أهليَّة ضربت بقوَّة ضد الأهلانيَّة، والتعريف العرقيّ لما يعنيه أن تكون أميركيّاً، إلا أنَّها عاشت لفترة طويلة بما يكفي لتتجسد مرة أخرى في عام ٢٠١٦.

إنَّ تصويتَ "خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ" والمناقشات الفوضويّة التي تلت ذلك دليل على أنَّ بعض الأفكار الأقدم حول إنجلترا والإنجليزيَّة، التي غُمرت لمدَّة طويلة في تعريف أوسع لمصطلح "بريطانيا"، تحتفظ بجاذبيَّة قوية أيضاً، والارتفاع المفاجئ في الدعم لـ Vox هو علامة على أنَّ القوميَّة الإسبانيَّة لم تختف بموت فرانكو؛ لقد دخل فقط في حالة السبات.

كلُّ هذه المناقشات، سواء أكانت في فرنسا في تسعينيات القرن التاسع عشر أم في بولندا في تسعينيات القرن الماضي، لديها في جوهرها الأسئلة التي تكمن في قلب هذا الكتاب: كيف تُعرَّف الأمَّة؟ من الذي سيحدّد ذلك؟ من نحن؟ لوقت طويل، تخيلنا أنَّ مثل هذه الأسئلة قد تمت تسويتها، ولكن لماذا يجب أن تُحَلَّ في أيّ وقت؟

***

في آب ٢٠١٩، أقمنا حفلة، كانت الحفلة هذه المرة في الصيف ولذا كان هناك حمامات شمسيَّة على العشب والسباحة في البركة بدلاً من الثلج وركوب الزلاجات، وبدلاً من الألعاب النارية، نظمنا جلسة موقد، ولكن لم يكن الأمر يتعلق بالطقس فقط: إنَّ نجاح بولندا ـ نجاحها الاقتصادي والسياسي والثقافي ـ جعل الأمور مختلفة عن ليلة رأس السنة الجديدة لعام ١٩٩٩ أيضاً، وهذه المرة، شركة يديرها صديق محلي، صاحب سلسلة مخابز مربحة، بتنظيم الطعام، الذي كان أفضل بكثير من أوعية يخنة اللحم البقري التي صنعناها قبل عشرين عاماً، وطلب صديق آخر، وهو عضو

سابق في البرلمان من منطقتنا والذي صادف أنه يعزف على الغيتار الكهربائي، من بعض أصدقائه العزف، ولذا كانت هناك موسيقا حية بدلاً من أشرطة الكاسيت.

أقام بعض الضيوف في الفنادق الجديدة في "ناكلو ناد نوتسي" (بالبولندية: Nakło nad Notecią)، المدينة المجاورة، وكان أحدها مصنع جعة سابقاً حُوّلَ بشكل جميل من قبل رجل أعمال محليّ كنوع من عمل مدفوع بالحبّ، واحتفظت مرة أخرى بقوائم أسماء الضيوف وأماكن منامتهم، لكن كان الأمر برمته أسهل بكثير، لأنَّ جميع أنواع الأشياء التي كانت كماليات لا يمكن تصوّرها في عام ١٩٨٩ أو حتى ١٩٩٩ ـ أشياء مثل أنظمة الصوت المحمولة أو الخل البلسميّ ـ متاحة على نطاقٍ واسع الآن، وتستخدم في آلاف الحفلات والأعراس البولنديَّة في نهايةِ كل أسبوع.

كان بعض الضيوف مألوفين، الصديق الذي جاء من نيويورك عام ١٩٩٩ عادَ في عام ٢٠١٩، وهذه المرَّة مع زوجته وابنه، وجاء زوجان بولنديان بدون أطفال شبا معاً وتزوجا، وضمت المجموعة التي أتت من وارسو عدداً قليلاً من زملاء لاجئين ممن اعتادوا أن يكونوا "اليمين"، بالإضافة إلى بعض الذين لم نكن نحلم بدعوتهم قبل عشرين عاماً؛ أشخاص كانوا ينتمون إلى ما كان يُطلق عليه "اليسار"، وفي السنوات الفاصلة، فقدنا بعض الأصدقاء، لكنَّنا كسبنا أصدقاء جدداً أيضاً.

كان هناك آخرون أيضاً، بما في ذلك الجيران من القرية، ورؤساء بلديات بعض البلدات المجاورة، ومرة أخرى، مجموعة

صغيرة من الأصدقاء من الخارج، قادمون بالطّائرة من هيوستن، لندن، إسطنبول، ولاحظت في مرحلة ما أنَّ حارس الغابة المحلي دخل في نقاش حادٍ مع وزير الخارجيَّة السويدي السابق، كارل بيلت/ Carl Bildt، الذي أنشأ معه زوجي الشراكة الشرقيَّة بين الاتحاد الأوروبيّ وأوكرانيا قبل عدة سنوات.

في مرحلة أخرى، رأيت محامياً معروفاً، وهو حفيد لقوميٍّ بولندي سيء السمعة في ثلاثينيات القرن الماضي، منغمساً في محادثة مع صديق مقيم في لندن من مواليد غانا، وقد تقلص العالم بما يكفي في العقدين الماضيين ليلتقوا جميعاً في نفس الحديقة البولنديَّة الريفيَّة.

لاحظت أيضاً أنَّ التقسيم الزائف والمبالغ فيه للعالم إلى "مكان ما" و"أي مكان" ـ أشخاص يفترض أنَّهم ينحدرون من مكان واحد مقابل الأشخاص الذين يسافرون، والأشخاص الذين يُفترض أنَّهم "إقليميون" مقابل أولئك الذين يُفترض أنَّهم "كوزموبوليتانيون" ـ قد انهار تماماً، لم يكن من الممكن في حفلنا تحديد من ينتمي إلى أي فئة، لقد كان الناس الذين يعيشون في قطعة غامضة من الريف البولنديّ سعداء بالتحدث إلى أشخاص لا يعيشون في بولندا، كما اتضح أنَّ الأشخاص ذوي الخلفيات المختلفة جوهرياً يمكنهم التعايش جيداً، لأنّ "هويات" معظم الناس تمتد إلى ما وراء هذه الثنائية البسيطة، ومن الممكن أن تتجذر في مكان ما ومع ذلك تكون منفتحاً على العالم، ومن الممكن الاهتمام بالمحليّ والعالميّ في الوقت نفسه.

مجموعةٌ واحدة من الضيوف لم يولدوا بعد، أو لم يولدوا إلا مؤخراً، في عام ١٩٩٩، كان هؤلاء أصدقاء أبنائنا من المدرسة والجامعة، وهم مزيجٌ انتقائيّ من البولنديين والأوروبيين والأمريكيين ـمن وارسو، بيدغوشتش، كونيتيكت وجنوب لندنـ وصلوا بالقطار وناموا على الأرض أو في حالة واحدة في أرجوحة خارجيَّة، سبحوا في البحيرة، وناموا في وقت متأخرٍ من صباح اليوم التالي، ثم سبحوا مرة أخرى في البحيرة، لقد مزجوا الإنجليزيَّة والبولنديَّة، ورقصوا على نفس الموسيقا، وعرفوا نفس الأغاني، لا توجد اختلافات ثقافيّة عميقة، ولا صدامات حضاريَّة عميقة، ولا توجد فجوات هوية تقسمهم لا يمكن سدها.

ربما يكون المراهقون الذين يشعرون بالبولنديَّة والأوروبيَّة على حد سواء، والذين لا يمانعون ما إذا كانوا في المدينة أو الريف، هم نذير بشيء آخر، شيء أفضل، شيء لا يمكننا تخيله حتى الآن، وبالتأكيد هناك العديد من الآخرين مثلهم، وفي العديد من البلدان، لقد قابلت مؤخراً زوزانا شابوتوفا/ Zuzana Čaputová، على سبيل المثال، الرئيس الجديد لسلوفاكيا، وهي محامية بيئية من بلدة صغيرة فازت في الانتخابات الوطنية عن طريق ربطها معاً ـ تماماً مثل: فوكس ـ لتحالفٍ من الأشخاص الذين يهتمون بأشياء متباينة: البيئة، الفساد وإصلاح الشرطة، وكنت محظوظةً أيضاً لمقابلة أغون ماليكي/ Agon Maliqi، شاب من كوسوفو يروج للأفكار الليبراليَّة والثقافة الديمقراطيَّة من خلال الفن والسينما والتعليم، قال لي: "ما اختبره الغرب كعقود

من النضال جاء إلينا كقطعة من الورق"، وكان هدفه جعل الأفكار المكتوبة على تلك الورقة تبدو حقيقيَّة للناس العاديين.

قمت بعمل بث مباشر مع فلافيا كلاينر/ Flavia Kleiner، طالبةُ تاريخٍ سويسريَّة سئمت من نسخة بلدها من الحنين الاسترجاعي وقررت التراجع عن ذلك؛ إذ أعلنت مع بعض أصدقائها أنَّهم "أبناء عام ١٨٤٨" ـ من سلالة الثورة الليبراليَّة في سويسرا ـ وبدأت في الترويج لنوع مختلف من الوطنيَّة، عبر الإنترنت وخارجه، وساعدت في هزيمة بعض الاستفتاءات القوميَّة.

إنَّ أوروبا وأمريكا والعالم مليئة بالناس ـفي المناطق الحضريَّة والريفيَّة والكوزمابولتينيَّة* والإقليميَّةـ الذين لديهم أفكار إبداعيَّة ومثيرة للاهتمام حول كيفيَّة العيش في عالم أكثر عدلاً وانفتاحاً.

لديهم العديد من العقبات للتغلب عليها، ففي ربيع عام ٢٠٢٠، مع انتشار فيروس كورونا الجديد في جميع أنحاء أوروبا وحول العالم، بدا تفاؤلهم العالمي ـ أيَّ تفاؤل عالمي ـ ساذجاً فجأة، وفي ١٣ آذار (وبالصُّدفة كان يوم الجمعة ١٣ آذار) كان زوجي يقود سيارته في الطريق السريع البولندي عندما فتح الأخبار وعلم أنَّ حدود البلاد ستغلق في غضون أربع وعشرين ساعة، توقف واتصل بي، اشتريت تذكرة من لندن إلى وارسو بعد دقائق، وفي صباح اليوم التالي، كان مطار هيثرو فارغاً على نحوٍ مخيف باستثناء رحلة

* "كزموبوليتانيَّة": مصطلح يشير إلى أنَّ جميع البشر هم أعضاء في مجتمع واحد، للعيش في مجتمع عالمي من خلال تعزيز المعايير الأخلاقيَّة العالميَّة، وتعبير عن الأماكن التي تكون متعددة الثقافات وتستوعب ثقافات مختلفة وتكوّن حالة من التناغم بين ثقافات مختلفة في مكان أو مدينة (تعليق المترجم).

وارسو، التي كانت مكتظة بالناس الذين كانوا يحاولون الحصول على واحدة من آخر الرحلات التجاريَّة إلى بلادهم، وأثناء تسجيل الوصول، رفض الوكلاء ركوب الركاب من دون جواز سفر بولندي (لديّ واحد) أو وثائق إقامة، ثم أدرك أحدهم أنَّ القواعد الجديدة لن تدخلَ حيز التنفيذ إلا في منتصف الليل، ولذا شاهدت محادثة بين أحد المضيفين واثنين من الركاب غير البولنديين: "أنت تدرك أنَّك قد لا تتمكن من السفر مرة أخرى، أنت تدرك أنَّك قد تكون في وارسو لمدَّة طويلة جداً...".

في نفس اليوم، اتصلنا بابننا الطالب الجامعي الجديد في الولايات المتحدة وأخبرناه أن يصل إلى المطار، كان يخطط للبقاء مع الأصدقاء والعائلة بعد إغلاق جامعته، وبدلاً من ذلك، أعطيناه إشعاراً من ثلاثين دقيقة للوصول إلى إحدى الرحلات الأخيرة إلى لندن، والاتصال بإحدى الرحلات الأخيرة إلى برلين، وبحلول الوقت الذي وصل فيه إلى أوروبا يوم الأحد، كانت بولندا قد أغلقت حدودها أمام جميع وسائل النقل العام، واستقل قطاراً من برلين إلى مدينة فرانكفورت على أودر، على الحدود البولندية الألمانية، ثمَّ نزل ومشى عبر الجسر الذي يمتد عبر الحدود، حاملاً أمتعته، كما لو كان في فيلم من الحرب الباردة عن تبادل جواسيس، رأى حواجز على الطريق، وجنوداً مسلحين، ورجالاً يرتدون بدلات الوقاية من المواد الخطرة ويأخذون درجات الحرارة، وطائرات بدون طيار في الجو، ويتعجبون، من بين أمور أخرى، لأنَّه لم ير أبداً حدوداً في قارة أوروبا من قبل، حمله زوجي إلى

الجانب الآخر، وبقي ابننا الآخر على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي عالقاً لعدة أسابيع.

تسبب قرار الحكومة البولنديَّة العشوائي بإغلاق الحدود على ما يبدو في حدوث فوضى عارمة، إذ تقطعت السبل بالمواطنين البولنديين في كل مكان، واضطرت الحكومة إلى ترتيب رحلات جويَّة مستأجرة لإعادتهم إلى الوطن، لقد اصطف الآلاف من مواطني أوكرانيا وبيلاروسيا ودول البلطيق ـ بما في ذلك سائقي الشاحنات والسياح الذين كانوا يحاولون العودة إلى منازلهم ـ في سياراتهم على الحدود البولنديَّة الألمانيَّة لعدة أيام، مستخدمين الحقول المجاورة كمرحاض، لأنَّ حرس الحدود كانوا يرفضون دخول غير البولنديين، كان الصليب الأحمر الألماني يوزع المشروبات والطعام والبطانيات، لم توقف أيّ من هذه التدابير القاسية والشديدة الفيروس: فقد بدأ الوباء بالفعل في الانتشار، وظل ينتشر، حتى بعد إغلاق الحدود، سرعان ما اكتظت المستشفيات البولندية، على الأقل لأنَّ خطاب الحكومة القوميَّة قد أقنع الكثير من الأطباء البارعين بمغادرة البلاد في السنوات الخمس الماضية، لكن على الرغم من الفوضى ـ ربما بسبب الفوضى ـ فقد حظي التشديد على الحدود بشعبيَّة كبيرة، إذ كانت الدولة تفعل شيئاً ما، ولعلَّ هذا نذير لما هو آتٍ.

أدت الأوبئة على مر التاريخ إلى تمدد سلطة الدولة: أحياناً حين يخشى الناس الموت، فإنَّهم يوافقون على التدابير التي يعتقدون، صواباً أم خطأً، أنها ستنقذهم ـ حتى لو عنى ذلك فقدان الحرية؛

ففي بريطانيا وإيطاليا وألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة والعديد من الأماكن الأخرى، كان يوجد إجماع على أنَّ الناس يجب أن يبقوا في منازلهم، وأنَّ الحجر الصحيّ يجب أن يُنفذ، وأنَّ الشرطة يجب أن تؤدي دوراً استثنائياً، لكن في أماكن قليلة، أصبح الخوف من المرض، إلى جانب جوانب الحداثة المقلقة الأخرى، مصدر إلهام لجيل جديد كامل من القوميين السلطويين، إنَّ نايجل فاراج، ولورا إنغراهام، وماريا شميت، وجاسيك كورسكي، جنباً إلى جنب مع المتصيدين الذين يعملون لصالح "فوكس" في إسبانيا أو اليمين البديل في أمريكا، قد أعدوا الأرضيَّة الفكريَّة لهذا النوع من التغيير ـ وقد تم الأمر، سنَّ فيكتور أوربان في المجر في نهاية آذار قانوناً يسمح لنفسه من خلاله بالحكم بموجب مرسوم ويسمح لحكومته باعتقال الصحفيين وسجنهم لمدة خمس سنوات لانتقادهم الجهود الرسميَّة لمكافحة الفيروس، لا توجد حاجة إلى هذه التدابير، ولم تساعد المستشفيات المجريَّة التي كانت مثقلة أيضاً، كما هو الحال في بولندا، بسبب نقص الاستثمار والهجرة، كان الهدف هو استخدام التدابير لتعليق الحوار، وقد استهزأت وسائل الإعلام الحكوميَّة من السياسيين المعارضين الذين اعترضوا بوصفهم "مؤيدين للفيروس".

قد تكون نقطة تحول، وربما يمثل أطفالي وأصدقاؤهم ـ وأصدقاؤنا جميعهم، وكلّنا؛ من الذين يريدون الاستمرار في العيش في عالم حيث يمكننا قول ما نفكر فيه بثقة، ويكون الحوار العقلاني ممكناً، وتُحترم المعرفة والخبرة، ويمكن عبور الحدود بسهولة ـ واحدة من العديد من الطرق المسدودة في التاريخ، وقد يكون

مصيرنا أن ننجرف إلى مكان غير ذي صلة، مثل مدينة هابسبورغ فيينا المتألقة متعددة الأعراق أو فايمار برلين المبتكرة والمنحلة أخلاقيّاً، ويحتمل أنّنا نعيش بالفعل في شفق الديمقراطيّة، وأنَّ حضارتنا قد تتجه نحو الفوضى أو الاستبداد، مثل ما كان يخشى الفلاسفة القدامى ومؤسسو أمريكا ذات يوم؛ إذ سيتولى جيلٌ جديدٌ من الكتبة، ودعاة الأفكار غير الليبراليَّة أو السلطويَّة، السلطة في القرن الحادي والعشرين، كما فعلوا في القرن العشرين تماماً، وإنَّ رؤاهم للعالم، المولودة من الاستياء أو الغضب أو الأحلام العميقة بالمسيح المنتظر، قد تنتصر، وربما ستستمر تكنولوجيا المعلومات الجديدة في تقويض الإجماع، تقسيم الناس أكثر، وزيادة الاستقطاب حتى يتمكن العنف فقط من تحديد من يحكم، لعلَّ الخوف من المرض سيخلق الخوف من الحرية.

أو ربما يلهم فيروس كورونا شعوراً جديداً بالتضامن العالمي؛ ربما سنجدد ونحدث مؤسساتنا، ربما سيتوسع التعاون الدولي بما أنَّ العالم بأسره يمرّ بمجموعة التجارب ذاتها في الوقت ذاته: الإغلاق، والحجر الصحيّ، الخوف من العدوى، والخوف من الموت، ربما سيجد العلماء في أنحاء العالم أجمع طرقاً جديدة للتعاون، تفوق وتتجاوز السياسة، وربما ستعلِّم حقيقة المرض والموت الناس أن يكونوا مرتابين من المساومين والكاذبين ومروجي المعلومات المضللة.

علينا أن نقبل بجنون أنَّ كلا المستقبلين ممكنان، فلا يوجد نصر سياسيّ دائم، ولا يوجد أيّ تعريف لـ "الأمة" يؤمن بقاؤه، ولا توجد نخبة من أيّ نوع، سواء أكانت تسمى "شعبويَّة" أو "ليبراليَّة"

أو "أرستقراطيَّة"، تحكم إلى الأبد، ويبدو تاريخ مصر القديمة، من مسافة بعيدة في الزمن، كأنَّه قصة رتيبة لفراعنة بالإمكان الاستغناء عنهم، لكن عند فحصها عن كثب، فإنَّه يشمل مدداً من الرشاقة الثقافيَّة وعصور من الكآبة الاستبداديَّة، وسيبدو تاريخنا يوماً ما على هذا النحو أيضاً.

بدأت مع جوليان بيندا، وهو فرنسيّ كتب في عشرينيات القرن الماضي وتوقع الاضطرابات القادمة، واسمحوا لي أن أنتهي بإيطالي كان يكتب في خمسينيات القرن الماضي، وقد عانى بالفعل من اضطرابات استمرَّت طوال حياته، كان الروائي إينياتسيو سيلونه بمثل عمري تماماً حين كتب "اختيار الأصدقاء"؛ إنَّه مقال حاول فيه أن يصف، من بين أمور أخرى، سبب استمراره في المشاركة في العمل السياسيّ، على الرغم من العديد من خيبات الأمل والهزائم، انضمَّ سيلونه إلى الحزب الشيوعيّ وغادره، يعتقد البعض أنَّه ربَّما يكون قد تعاون أولاً مع الفاشية قبل أن يرفضَ ذلك أيضاً، لقد عاش الحروب والثورات، كان تحت الأوهام ثم أصيب بخيبة أمل، وكتب بوصفه مناهضاً للشيوعيَّة وللفاشية على حد سواء، لقد رأى تجاوزات نوعين مختلفين من السياسات المتطرفة، ومع ذلك، اعتقد أنَّ النضال كان يستحق الاستمرار، ليس بسبب وجود سكينة يجب بلوغها، وليس بسبب وجود مجتمع مثاليّ يجب بناؤه، بل لأنَّ اللامبالاة كانت مميتة ومرهقة للغاية، ومدمرة للروح.

كان يعيشُ في زمن عاش فيه الناس، مثل ما يعيشون اليوم، مع اليمين واليسار المتطرف، مع أنواع مختلفة من المتطرفين

يصرخون جميعهم في الوقت ذاته، وأعلن العديد من أبناء بلده كرد فعل أنَّ "كلّ السياسيين محتالون" أو "كلّ الصحفيين يكذبون" أو "لا يمكنك تصديق أيّ شيء"، اكتسب هذا الشكل من الشك ومعاداة السياسة واللاشيئيَّة، في إيطاليا ما بعد الحرب، تسمية "اللا مبالاة/ Qualunquismo"، لقد شهِد سيلونة التأثير، كتب: "الأنظمة السياسيَّة تأتي وتذهب، لكن العادات السيئة تبقى"، وأسوأ عادة هي العدميَّة، "مرض الروح الذي لا يمكن تشخيصه إلا من قبل أولئك المحصنين أو شُفيوا منه، إلا أنَّ معظم الناس غافلين عنه تماماً، لأنَّهم يعتقدون أنَّه يتوافق مع وضع طبيعيّ تماماً للوجود: "هذا ما كان عليه الحال دوماً، وهذا ما سيكون عليه الحال على الدوام".

لا يقدم سيلونة دواءً أو ترياقاً خارقاً لأنَّه لا يوجد؛ لا يوجد حلّ نهائيّ ولا نظريّة تشرح كلّ شيء، لا توجد خارطة طريق لمجتمع أفضل، ولا أيديولوجية توجيهيّة، ولا كتاب قواعد، كلّ ما يمكننا فعله هو اختيار حلفائنا وأصدقائنا ـ رفاقنا، على حدّ تعبيره ـ بعناية كبيرة؛ لأنَّه معهم فقط، سوياً، يمكن تجنب إغراءات الأشكال المختلفة للسلطويَّة الموجودة مرة أخرى، لأنَّ الأنظمة السلطويَّة كلّها تقسم تستقطب وتفصل الناس إلى معسكرات متحاربة، إذ يتطلب القتال ضدهم تحالفات جديدة، يمكننا أن نجعل للكلمات القديمة والمُساء فهمها مثل الليبراليَّة معنى مرة أخرى، يمكننا معاً أن نقاوم الأكاذيب والكاذبين، ويمكننا معاً إعادة التفكير في الشكل الذي يجب أن تبدو عليه الديمقراطيَّة في الحقبة الرقميَّة.

كتب سيلون أنَّه مثلُ اللاجئين الذين يكافحون للوصول إلى

هدف بعيد في طريق مظلم، فإنَّنا مضطرون إلى شق طريقنا خلال الليل من دون أيَّة فكرة واضحة عمَّا إذا كنَّا سنصل: "إنَّ سماء البحر الأبيض المتوسط القديمة الصافية، التي كانت مليئة بالأبراج الساطعة، مكفهرة، لكن بصيص الضوء الصغير هذا الذي تبقَّى لنا يمكننا على الأقلّ من رؤية مكان وضع أقدامنا للخطوة التالية".

أشعرُ أنَّني محظوظ لكوني قضيت الكثير من الوقت مع أشخاص يهتمون بما سيحدث بعد أن نتخذ الخطوة التالية.

يبدو عدم الاستقرار في اللحظة الحالية مخيفاً بالنسبة للبعض، مع ذلك إنَّ عدم اليقين هذا موجودٌ دائماً، لم تَعِد ليبراليَّة "جون ستيوارت ميل/ John Stuart Mill" أو "توماس جيفرسون/ Thomas Jefferson" أو "فاتسلاف هافيل/ Václav Havel" بأيّ شيء دائم أبداً، ولم تضمن الضوابط والتوازنات في الديمقراطيَّات الدستوريَّة الغربيَّة الاستقرار مطلقاً؛ إذ طالبت الديمقراطيَّات الليبراليَّة دائماً المواطنين بأشياء: المشاركة، الجدال، الجهد، والنضال، إنَّها تتطلبُ بعض التسامح مع التنافر والفوضى على الدوام، إضافة إلى بعض الاستعداد للرد على الأشخاص الذين يخلقون تنافراً وفوضى.

لقد اعترفوا دائماً بإمكانيَّة الفشل؛ الفشل الذي من شأنه تغيير الخطط، وتبديل الحياة، وتفكيك العائلات، لطالما عرفنا، أو كان علينا أن نعرف، أنَّ التاريخ يمكن أن يصل مجدداً إلى حياتنا الخاصَّة ويعيد ترتيبها، ولطالما عرفنا، أو كان علينا أن نعرف، أنَّ الرؤى البديلة لأممنا ستحاول جذبنا إليها، لكن ربما، حين نختار طريقنا عبر الظلام، سنجد أنَّه يمكننا مقاومة هذه الرؤى معاً.



I

a documentary called *Invasion:* "Kulisy, cele, metody, pieniądze. Jak działa inwazja LGBT," TVPINFO, October 10, 2019, https://www.tvp.info/44779437/kulisy_cele_metody_pieniadze_jak_dziala_inwazja_lgbt.

gave a sermon describing homosexuals: Marek Jędraszewski, archbishop of Krakow, quoted in Filip Mazurczak, "Krakow's Archbishop Jędraszewski under Fire for Remarks about 'Rainbow Plague,' " *Catholic World Report,* August 16, 2019, https://www.catholicworldreport.com/2019/08/16/krakows_archbishop_jedraszewski_under_fire_for_remarks_about_rainbow_ plague/.

each time postulating a different explanation: investigative films include "Pierwszy film śledczy o tragedii smoleńskie," April 10, 2010, https://www.youtube.com/watch?v=_RjaBrqoLmw; "Magazyn śledczy Anity Gargas," TVP, March 29, 2018, https://vod.tvp.pl/video/magazyn_sledczy_ anity_gargas,29032018,36323634; "Jak 8 lat po katastrofie wygląda Smoleńsk?," TVPINFO, April 5, 2018, https://www.tvp.info/36677837/jak_8_lat_po_katastrofie_wyglada_smolensk_magazyn_sledczy_anity_gargas; "Magazyn śledczy Anity Gargas," TVP, February 27, 2020, https://vod.tvp.pl/video/magazyn_sledczy_anity_gargas,27022020,46542067.

as "scabby" and "greedy": Rafal Ziemkiewicz, Twitter post, https://twitter.com/R_A_Ziemkiewicz/status/637584669115072512?2=20.

"blackmailers": Rafal Ziemkiewicz, *Fakty Interia,* April 13, 2018, https://fakty.interia.pl/opinie/ziemkiewicz/news_czy_izrael_jest_ glupi,nId,2568878.

regrets his former support for Israel: Rafal Ziemkiewicz, *Wirtualne Media,* February 2, 2018, https://www.wirtualnemedia.pl/artykul/rafal_ziemkiewicz_ nie_mam_powodu_przepraszac_za_parchow_i_zydowskie_obozy_zaglady_ marcin_wolski_dal_sie_podejsc.

wSieci cover: June 2016, https://wiadomosci.gazeta.pl/wiadomosci/1,114883,20191010,na_okladce_wprost_jasniejaca_twarz_lewandowskiego_ czyli_jak.html.

Do Rzeczy cover: September 5, 2016, http://www.publio.pl/tygodnik_do_rzeczy,p147348.html.

fired from a job that I didn't have: The think tank later corrected the story but TVP never took the story down. TVP, September 21, 2016, https://www.tvp.info/27026877/think_tank_w_waszyngtonie_po_tym_artykule_zwolnil_pania_ applebaum_ze_wspolpracy.

"Is friendship possible": Mihail Sebastian, *Journal 1935_1944: The Fascist Years* (Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2012).

"No, you're wrong": Mihail Sebastian, *For Two Thousand Years,* trans. Philip Ó Ceallaigh (New York: Other Press, 2017).

"false and braggart words": Plato, *Republic,* ed. and trans. C. J. Emlyn_Jones and William Preddy (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2013).

"talents for low intrigue": Alexander Hamilton, John Jay, and James Madison, *The Federalist Papers,* no. 68.

"without any other social ties": Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (London: Penguin Classics, 2017).

authoritarian predisposition: Author interview with Karen Stenner, July 19, 2019. his 1927 book *La trahison des clercs:* Julien Benda, *The Betrayal of the Intellectuals* [*La trahison des clercs*] (Boston: Beacon Press, 1955).

II

"invariably replaces all first_rate talents": Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (London: Penguin Classics, 2017).

freedom of the press "is a deception": Vladimir Lenin, "Draft Resolution on Freedom of the Press," *Pravda,* November 7, 1932, https://www.marxists.org/archive/lenin/works/1917/nov/04.htm.

"hollow phrase": Vladimir Lenin, speech at the opening session of the First Congress of the Communist International, March 2, 1919, https://www.marxists.org/archive/lenin/works/1919/mar/comintern.htm.

"a machine for the suppression": Lenin, speech given to the first Congress of the Communist International, March 14, 1919.

"better sort of Pole": "Kaczyński krytykuje donosicieli. Gorszy sort Polaków," YouTube, December 16, 2015, https://www.youtube.com/watch? v=SKFgVD2KGXw.

"I saw what doing politics was really about": Author interview with Jarosław Kurski, April 2, 2016.

"a person who wants to be on top": Author interview with anonymous source, April 4, 2016.

"The ignorant peasants will buy it": Jacek Kurski, quoted in Agnieszka Kublik, "Kłamczuszek Jacek Kurski," *Wyborcza.pl,* May 19, 2015, https://wyborcza.pl/politykaekstra/1,132907,17946914,Klamczuszek_Jacek_Kurski.html.

"without scruples": Author interview with Senator Bogdan Borusewicz, April 6, 2016.

The clip shows Schetyna pausing and frowning: reprinted in " 'Ordynarna manipulacja' TVP Info," *Wiadomosci,* April 21, 2018, https://wiadomosci.wp.pl/czy_oni_ludzi_naprawde_maja_za_durni_ ordynarna_manipulacja_tvp_info_6243821849708161a.

"You destroyed him": Jan Cienski, "Polish President Bucks Ruling Party over Judicial Reforms: During a Bad_Tempered Debate, Jarosław Kaczyński Accuses the Opposition of 'Murdering' His Brother," *Politico,* July 18, 2017, https://www.politico.eu/article/polish_president_bucks_ruling_party_over_ judicial_reforms/.

so_called "mercenaries of Soros": Pablo Gorondi, Associated Press, April 12, 2018, https://apnews.com/6fc8ca916bdf4598857f58ec4af198b2/Hungary:_Pro_govt_weekly_prints_list_of_%27Soros_mercenaries%27.

Schmidt agreed to speak with me: Author interview with Mária Schmidt, November 14, 2017.

"post_colonial" mindset: Ivan Krastev and Stephen Holmes, "How Liberalism Became 'the God That Failed' in Eastern Europe," *Guardian,* October 24, 2019, https://www.theguardian.com/world/2019/oct/24/western_liberalism_failed_post_communist_eastern_europe.

institutions of "bourgeois democracy": Vladimir Lenin, "Working Class and Bourgeois Democracy," *Vperyod* 11, no. 3 (January 24, 1905), https://www.marxists.org/archive/lenin/works/1905/jan/24.htm.

Though Barrès "began as an intellectual skeptic": Julien Benda, *The Betrayal of the Intellectuals* [*La trahison des clercs*] (Boston: Beacon Press, 1955).

III

"The post_1989 liberal moment": Author conversation with Stathis Kalyvas, June 21, 2018.

"A shriller note could now be heard": Evelyn Waugh, *Decline and Fall* (London: Chapman & Hall, 1928).

"I was sort of chucking these rocks": Boris Johnson, interview with Sue Lawley, *Desert Island Discs,* BBC, November 4, 2005, https://www.bbc.co.uk/programmes/p00935b6.

"We are Greeks to their Romans": Geoffrey Wheatcroft, "Not_So_Special Relationship: Dean Acheson and the Myth of Anglo_American Unity," *Spectator,* January 5, 2013, https://www.spectator.co.uk/2013/01/not_so_special_relationship/.

Graham Greene's novel: Graham Greene, *The Quiet American* (Melbourne: Heinemann, 1955).

"I'm so isolated, I'm like Colonel Kurtz": Boris Johnson as quoted in James Pickford and George Parker, "Does Boris Johnson Want to Be Prime Minister?," *Financial Times,* September 27, 2013, https://www.ft.com/content/f5b6a84a_263c_11e3_8ef6_00144feab7de.

"culture of freedom, openness, and tolerance": From Boris Johnson, "Athenian Civilisation: The Glory That Endures," speech at the Legatum Institute, September 4, 2014, https://www.youtube.com/watch?v=qeSjF2nNEHw.

"Brexit will be crushed": Lizzy Buchan, "Boris Johnson 'Thought Brexit Would Lose, but Wanted to Be Romantic, Patriotic Hero,' says David Cameron," *Independent,* September 16, 2019, https://www.independent.co.uk/news/uk/politics/boris_johnson_brexit_david_cameron_leave_remain_vote_support_ a9107296.html.

"reflective" nostalgia of the émigré: Svetlana Boym, *The Future of Nostalgia* (New York: Basic Books, 2016).

"cultural despair": Fritz Stern, *The Politics of Cultural Despair: A Study in the Rise of the Germanic Ideology* (Berkeley: University of California Press, 1961).

"It has gradually become an open secret": Julius Langbehn, *Rembrandt as Educator* (London: Wermod and Wermod Publishing Group, 2018). Thatcher's most important pupil: Charles Moore, *Margaret Thatcher, The Authorized Biography, Vol. 3: Herself Alone* (London: Penguin Books, 2019).

"thanks to a happy accident of birth": Simon Heffer, "The Sooner the 1960s Are Over, the Better," *Telegraph,* January 7, 2006, https://www.telegraph.co.uk/comment/personal_view/3622149/Simon_Heffer_on_Saturday.html.

"the slightest scintilla of principle": Simon Heffer, "David Cameron Is Likely to Win, but Don't Expect a Conservative Government," *Telegraph,* July 28, 2009, https://www.telegraph.co.uk/comment/columnists/simonheffer/5926966/David_Cameron_is_likely_to_win_but_dont_expect_a_Conservative_ government.html.

called Cameron a "liar": Simon Heffer, "David Cameron's Disgraceful Dishonesty over the EU Is Turning Britain into a Banana Republic," *Telegraph,* May 21, 2016, https://www.telegraph.co.uk/opinion/2016/05/21/david_camerons_ disgraceful_dishonesty_over_the_eu_is_turning_bri/.

"pay a personal tribute to the civilization": Roger Scruton, *England: An Elegy* (London: Pimlico, 2001).

compared Britain's EU membership to "appeasement": William Cash, interview with Simon Walters, "Tory MP and Son of a War Hero Compares Current Situation to Pre_War Europe and Warns Britain Is Heading for Appeasement," *Daily Mail,* February 13, 2016, https://www.dailymail.co.uk/news/article_3446036/Tory_MP_son_war_hero_compares_current_situation_ pre_war_Europe_warns_Britain_heading_APPEASEMENT.html.

"a foreign power overruling": Simon Heffer, "The EU Empire Is Going to Fail. On Thursday, We Can Protect Britain from the Chaos of Its Death Throes,"*Telegraph,* June 19,

2016, https://www.telegraph.co.uk/news/2016/06/19/the_eu_empire_is_going_to_fail_on_thursday_we_can_protect_britai/.

"systemic dysfunction of our institutions": Dominic Cummings, "On the Referendum #33: High Performance Government, 'Cognitive Technologies,' Michael Nielsen, Bret Victor, & 'Seeing Rooms,' " *Dominic Cummings's Blog,* June 26, 2019, https://dominiccummings.com/2019/06/26/on_the_ referendum_33_high_performance_government_cognitive_technologies_michael_nielsen_bret_victor_seeing_rooms/.

"old institutions like the UN": Cummings, "On the Referendum #33." "Soviet propaganda": Bagehot, "An Interview with Dominic Cummings,"*Economist,* January 21, 2016, https://www.economist.com/bagehots_notebook/2016/01/21/an_interview_with_dominic_cummings.

"Europe has advanced largely": Simon Heffer, "The Collapse of the Euro Would Open the Door to Democracy," *Telegraph,* May 25, 2010, https://www.telegraph.co.uk/comment/columnists/simonheffer/7765275/The_collapse_of_the_euro_would_open_the_door_to_democracy.html.

"our membership of the EU stops us": "Brexit Brief: Dreaming of Sovereignty," *Economist,* March 19, 2016, https://www.economist.com/britain/2016/03/19/dreaming_of_sovereignty.

ENEMIES OF THE PEOPLE: Cover, *Daily Mail,* November 3, 2016.

"openly gay ex_Olympic fencer": James Slack, "Enemies of the People: Fury over 'Out of Touch' Judges Who Have 'Declared War on Democracy' by Defying 17.4m Brexit Voters and Who Could Trigger Constitutional Crisis," *Daily Mail,* November 3, 2016, https://www.dailymail.co.uk/news/article_ 3903436/Enemies_people_Fury_touch_judges_defied_17_4m_Brexit_voters_ trigger_constitutional_crisis.html.

CRUSH THE SABOTEURS: Cover, *Daily Mail,* April 19, 2017, https://www.dailymail.co.uk/debate/article_4427192/DAILY_MAIL_ COMMENT_saboteurs_simmer_down.html.

copycat referenda: Simon Heffer, "The EU Empire Is Going to Fail. On Thursday, We Can Protect Britain from the Chaos of Its Death Throes," *Telegraph,* June 19, 2016, https://www.telegraph.co.uk/news/2016/06/19/the_eu_empire_is_ going_to_fail_on_thursday_we_can_protect_britai/.

"among the worst idlers": "British Workers 'Among Worst Idlers,' Suggest Tory MPs," BBC, August 18, 2020, https://www.bbc.com/news/uk_politics_19300051.

"dynamism of those bearded Victorians": Boris Johnson, "The Rest of the World Believes in Britain. It's Time That We Did Too," *Telegraph,* July 15, 2018, https://www.telegraph.co.uk/politics/2018/07/15/rest_world_believes_britain_time_did/.

"believe that if Brexit brings chaos": Author interview with Nick Cohen, March 2020; Nick Cohen, "Why Are Labour's Leaders So Quiet on Europe? Maybe It's the Lure of Disaster?," *Guardian,* December 16, 2018, https://

www.theguardian.com/commentisfree/2018/dec/16/why_are_labour_ party_leaders_so_quiet_on_europe___ maybe_it_is_the_lure_of_disaster.

"once_in_a_lifetime opportunity": Thomas Fazi and William Mitchell, "Why the Left Should Embrace Brexit," *Jacobin,* April 29, 2018, https://www.jacobinmag.com/2018/04/brexit_labour_party_socialist_left_ corbyn.

"providing intellectual cover": Anne Applebaum, "How Viktor Orbán Duped the Brexiteers," *Spectator USA,* September 22, 2018, https://spectator.us/viktor_ orban_ duped_brexiteers/.

introduction to a short book: John O'Sullivan, *The Second Term of Viktor Orbán: Beyond Prejudice and Enthusiasm* (Social Affairs Unit, June 2015).

"neutral social structures": Christopher Caldwell, "Hungary and the Future of Europe: Viktor Orbán's Escalating Conflict with Liberalism," *Claremont Review of Books,* Spring 2019, https://claremontreviewofbooks.com/hungary_and_the_future_of_europe/.

"more favorable" to the Democratic Party: Author interview with John O'Sullivan, October 4, 2019.

"There is a legitimate question": Robert Merrick, "Fury as Boris Johnson Accuses Rebel Alliance MPs of 'Collaboration' with Foreign Governments over Brexit," *Independent,* October 1, 2019, https://www.independent.co.uk/news/uk/politics/boris_johnson_brexit_no_deal_latest_news_legal_advice_collusion_ a9127781.html.

"After Brexit we also need": The Conservative and Unity Party Manifesto, 2019, https://assets_global.

website_files.com/5da42e2cae7ebd3f8bde353c/5dda924905da587992a064ba_Conservative%202019%20Manifesto.pdf.

"misfits and weirdos": Rajeev Syal, "Dominic Cummings Calls for 'Weirdos and Misfits' for No 10 Jobs: Boris Johnson's Chief Adviser Touts for 'Unusual' Applicants Outside of the Oxbridge Set," *Guardian,* January 2, 2020, https://www.theguardian.com/politics/2020/jan/02/dominic_cummings_ calls_for_weirdos_and_misfits_for_no_10_jobs.

"Great Britain has lost an empire but not yet found a role": Dean Acheson, speech at West Point, December 5, 1962.

IV

"authoritarian predisposition" she has identified: Author interview with Karen Stenner, July 19, 2019.

"capitalism is in deep trouble": Jean_François Revel, *The Totalitarian Temptation* (New York: Penguin Books, 1978).

"somewhere, in the past or in the future": Isaiah Berlin, *Four Essays on Liberty* (Oxford: Oxford University Press, 1992).

"Instead of hearing the harmony": Olga Tokarczuk, Nobel Prize Lecture, Swedish Academy, Stockholm, December 7, 2019, https://www.nobelprize.org/prizes/literature/2018/tokarczuk/lecture/.

an advertisement for Vox: "Un nuevo comienzo," VOX, June 7, 2016, https://www.youtube.com/watch?v=RaSIX4_RPAI.

a "criminal organization": Ortega Smith, quoted in Anne Applebaum's "Want to Build a Far_Right Movement? Spain's VOX Party Shows How," *Washington Post*, May 2, 2019, https://www.washingtonpost.com/graphics/2019/opinions/spains_far_right_vox_party_shot_from_social_media_into_ parliament_overnight_how/.

#EspañaViva: Santiago Abascal, Twitter post, https://twitter.com/Santi_ABASCAL/status/1062842722791424002?s=20.

"patriotic movement of salvation": Applebaum, "Want to Build a Far_Right Movement?"

"it was kind of a joke": Author interview with Rafael Bardaji.

"This was Spanish politics": Author interview with Ivan Espinosa, April 9, 2019.

4.5 million pro_Vox and anti_Islamic messages: Institute for Strategic Dialogue, *2019 EU Elections Information Operations Analysis: Interim Briefing Paper* (2019).

"hundreds of Muslims" were celebrating: Santiago Abascal, Twitter post, https://twitter.com/Santi_ABASCAL/status/1117890168340586497.

"We are trying to connect the past": Marion Maréchal, quoted in Anne Applebaum's "This Is How Reaganism and Thatcherism End," *Atlantic*, February 10, 2020, https://www.theatlantic.com/ideas/archive/2020/02/the_sad_path_from_reaganism_to_national_conservatism/606304/.

Macron himself was in Kraków: "Discours du Président Emmanuel Macron devant les étudiants de l'Université Jagellonne de Cracovie," https://www.elysee.fr/emmanuel_macron/2020/02/05/discours_du_president_

emmanuel_macron_ devant_les_etudiants_de_luniversite_jagellonne_de_cracovie.

V

"last, best hope of earth": Abraham Lincoln, Annual Message to Congress, December 1, 1862.

"one day this nation will rise up": Rev. Martin Luther King Jr., "I Have a Dream" speech, Washington, DC, August 28, 1963.

"impressed from their cradle": Thomas Jefferson, letter to John Breckinridge, January 29, 1800, https://founders.archives.gov/documents/Jefferson/01_31_02_0292.

"shining city on a hill": Ronald Reagan, "Farewell Address to the Nation," Washington, DC, January 12, 1989, https://www.nytimes.com/1989/01/12/news/transcript_of_reagan_s_farewell_address_to_american_people.html.

"A free Republic!": Emma Goldman, *Anarchism and Other Essays* (New York: Mother Earth Pub. Association, 3rd rev. edition, 1917).

"What is patriotism?": Emma Goldman, "What Is Patriotism?," speech, April 26, 1908, San Francisco, California, https://awpc.cattcenter.iastate.edu/2017/03/09/what_is_patriotism_april_26_1908/.

"modern martyrs who pay for their faith": Goldman, *Anarchism and Other Essays*. "deadening ideology of conformism": *Prairie Fire: The Politics of RevolutionaryAnti_Imperialism—Political Statement of the Weather Underground,* 1974,https://www.sds_1960s.

org/PrairieFire_reprint.pdf.

"myths of American exceptionalism": Howard Zinn, "The Power and the Glory: The Myths of American Exceptionalism," *Boston Review,* June 1, 2005, http://bostonreview.net/zinn_power_glory.

"A new and better age": Michael Gerson, "The Last Temptation," *Atlantic,* April 2018, https://www.theatlantic.com/magazine/archive/2018/04/the_last_temptation/554066/.

"The only time we faced": Eric Metaxas, interview with Mike Gallagher, June 22, 2016, https://www.rightwingwatch.org/post/eric_metaxas_we_are_on_the_ verge_of_losing_america_under_clinton_presidency_as_we_could_have_lost_it_ in_the_civil_war/.

"I believe we are in the midnight hour": Brian Tashman, "Franklin Graham: 'The End Is Coming,' Thanks to Gays, Obama," *Right Wing Watch,* June 8, 2015, https://www.rightwingwatch.org/post/franklin_graham_the_end_is_coming_ thanks_to_gays_obama/.

"popular culture that undergirded the values": Patrick J. Buchanan, official website, October 11, 1999, https://buchanan.org/blog/pjb_the_new_ patriotism_329.

"In the popular culture of the '40s": Buchanan, official website, May 26, 2016, https://buchanan.org/blog/great_white_hope_125286.

"9/11 was a direct consequence": Patrick J. Buchanan, *Hardball,* September 30, 2002.

"multicultural, multiethnic, multiracial": Patrick J. Buchanan,

"How to Avoid a New Cold War," *American Conservative,* January 3, 2017, https://www.theamericanconservative.com/buchanan/how_to_avoid_a_new_cold_war/.

"You know what solves": Donald Trump, interview, *Fox and Friends,* Fox News, February 10, 2014, https://video.foxnews.com/v/3179604851001#sp=show_ clips.

"We're gonna have to have": Paul Blumenthal and J. M. Rieger, "Steve Bannon Thinks Dark Days Are Coming and War Is Inevitable," *Huffington Post,* February 8, 2017, https://www.huffpost.com/entry/steve_bannon_apocalypse_n_5898f02ee4b040613138a951.quoting from the Bob Dylan song: Steve Bannon, speech, Tax Day Tea Party, New York, April 15, 2010, https://www.youtube.com/watch?v=Jf_Yj5XxUE0.

"Establishment" which had "protected itself": Donald J. Trump, inaugural address, Washington, DC, January 20, 2017, https://www.whitehouse.gov/briefings_statements/the_inaugural_address/.

"The people, not the powerful": Donald J. Trump, "Remarks from President Trump to the People of Poland," Warsaw, July 6, 2017, https://www.whitehouse.gov/briefings_statements/remarks_president_trump_people_poland/.

"But he's a killer": Donald J. Trump, interview with Bill O'Reilly, Fox Sports, February 4, 2017, https://www.youtube.com/watch?v=tZXsYuJIGTg.

"He's running his country": Donald J. Trump, interview with Joe Scarborough, *Morning Joe,* December 18, 2015, https://www.washingtonpost.com/news/the_fix/wp/2015/12/18/donald_trump_glad_to_be_endorsed_by_

russias_top_ journalist_murderer/.

"Justice Department and White House_CIA types": *Prairie Fire.*

"You look at the corruption": Donald Trump, interview, *Fox and Friends,* Fox News, April 26, 2018, https://www.youtube.com/watch?v=5OjyHhz3_BM.

"To destroy a society": Jeane Kirkpatrick, "The Myth of Moral Equivalence," *Imprimis,* January 1986, https://imprimis.hillsdale.edu/the_myth_of_moral_ equivalence/.

"America has no vital interest": Donald J. Trump and David Shiflett, *The America We Deserve* (New York: St. Martin's Press, 2000).

"It was cocktail hour": James Atlas, "The Counter Counterculture," *New York Times Magazine,* February 12, 1995, https://www.nytimes.com/1995/02/12/magazine/the_counter_counterculture.html.

"intellectual intolerance and smug groupthink": David Brock, "Confessions of a Right_Wing Hit Man," *Esquire,* July 1, 1997, https://classic.esquire.com/confessions_of_a_right_wing_hit_man/.I even wrote: "Why I Can't Vote for John McCain," Anne Applebaum, *Slate,* October 27, 2008.

"a cadre of the uprooted and displaced": Sam Tanenhaus, "On the Front Lines of the GOP's Civil War," *Esquire,* December 20, 2017, https://www.esquire.com/news_politics/a14428464/gop_never_trump/.

"when ethnic and nationalistic hatreds": Julien Benda, *The Treason of the Intellectuals,* trans. Richard Aldington

(London: Taylor & Francis, 2017).

"disintegration of faith in reason": Roger Kimball, "The Treason of the Intellectuals & 'The Undoing of Thought,' " *New Criterion,* December 1992, https://newcriterion.com/issues/1992/12/the_treason_of_the_intellectuals_ldquothe_undoing_of_thoughtrdquo.

"angry mob which sided with Barabbas": Roger Kimball, *American Greatness,* November 2, 2019.I was a guest on the program a couple of times: Anne Applebaum, *The Laura Ingraham Show,* August 19, 2008, http://www.lauraingraham.com/b/Anne_ Applebaum_on_the_return_of_the_Soviet_Union./5995.html.

"Is Western civilization": Laura Ingraham, interview with Patrick J. Buchanan, *The Laura Ingraham Show,* March 28, 2019, https://www.mediamatters.org/laura_ingraham/laura_ingraham_says_immigration_pushing_western_civilization_toward_tipping_over.

"the America that we know and love": Laura Ingraham, "The Left's Effort to Remake America," Fox News, August 8, 2018, https://www.youtube.com/watch?v=llhFZOw6Sss.

"it's going to be total war": Joseph diGenova, *The Laura Ingraham Podcast,* February 22, 2019.

"we don't want to be killed": Rafael Bardaji, quoted in Anne Applebaum, "Want to Build a Far_Right Movement? Spain's VOX Party Shows How," *Washington Post,* May 2, 2019, https://www.washingtonpost.com/graphics/2019/opinions/spains_far_right_vox_party_shot_from_social_media_into_ parliament_overnight_how/.

"a new pathway for hitting President Trump": Laura

Ingraham, Fox News, February 25, 2020 https://twitter.com/MattGertz/status/1233026012201603079?s=20.

promoting the drug hydroxychloroquine: Michael M. Grynbaum, "Fox News Stars Trumpeted a Malaria Drug, Until They Didn't," *New York Times,* April 22, 2020.

"How many of those who urged our govt": Laura Ingraham, Twitter post, https://twitter.com/IngrahamAngle/status/1251219755249405959?s=20.

"without virtue there is no America": Laura Ingraham, "Laura Ingraham on Faith," speech, Dallas, Texas, September 29, 2007, https://www.youtube.com/watch?v=72KwL_abkOA.

"congratulations on your polling numbers": Laura Ingraham, interview with Donald Trump, Fox News, June 6, 2019, https://www.youtube.com/watch? v=QyQCcgXkANo.

"I was shouting from a tribune": Jacek Trzynadel, *Hańba Domowa* (Paris: Instytut Literacki, 1986).

VI

"You are degrading an innocent man": Emile Zola, *The Dreyfus Affair: "J'Accuse" and Other Writings,* ed. Alain Pagès, trans. Eleanor Levieux (New Haven: Yale University Press, 1998).

"combat between two worlds": Romain Rolland, quoted in Tom Conner, *The Dreyfus Affair and the Rise of the French Public Intellectual* (Jefferson, NC: McFarland & Co., 2014).

"In every scientific work": Ferdinand Brunetière, *After the*

Trial, quoted in Ruth Harris, *Dreyfus: Politics, Emotion, and the Scandal of the Century* (New York: Picador USA, 2010).

"J'accuse," published in 1898: Zola, *Dreyfus Affair*.consider her "doubly meritorious": Marcel Proust, *Remembrance of Things Past* trans. C. K. Scott Moncrieff (London: Penguin Classics, 2016).

"no less violent than the French Revolution or World War I": Quoted in Geert Mak, *In Europe: Travels Through the Twentieth Century* (London: Penguin Books, 2004), p. 10.

an ostentatiously "conservative outlook": Conner, *Dreyfus Affair*.

"Political regimes come and go": Ignazio Silone, "The Choice of Comrades," *Dissent*, Winter 1955, https://www.dissentmagazine.org/wp_content/files_mf/1438718063spring74silone.pdf.



شفق الديمقراطية



آن أبلباوم

يقدّمُ هذا الكتابُ دراسةً تفصيليَّةً حول توجّه النُخب في الديمقراطيّات الغربيّة نحو النزعة السلطويّة، من الولايات المتحدة وبريطانيا إلى أوروبا القاريّة وما وراءها، وتحرص مؤلفته آن أبلباوم، الحائزة على جائزة بوليتسر، على استخلاص أمثلة ملموسة من تجارب شخصيّة لتحوّل المناخ السياسيّ وصعود السياسات الشعبويّة اليمينيّة، ويتعمّقُ في بعض أسباب هذا التحوّل ممّا يؤدي إلى تغيير مسار الفرد والمجتمع، وسيوفّر هذا الكتاب للمهتمين بالاتّجاهات الاجتماعيّة والسياسيّة في عالمنا المعاصر لوناً آخر ورؤية أوضح لهشاشة أقوى الديمقراطيّات وأكثرها نضجاً في الغرب، ويحدد الأحداث الموازية الهادفة إلى تقويض مبادئ المجتمعات الديمقراطيّة، ويطرحُ تساؤلات حول مدى خطورة مواقع التواصل الاجتماعيّ واستخدام المعلومات المضلّلة ونظريّات المؤامرة، فهل بلغت الديمقراطيّة أوج ترفها، ممّا يعني الاستعداد في المجتمعات الغربيّة لانهيار موكبها، أم هو فجر جديد؟









@DarAlkhan_kw